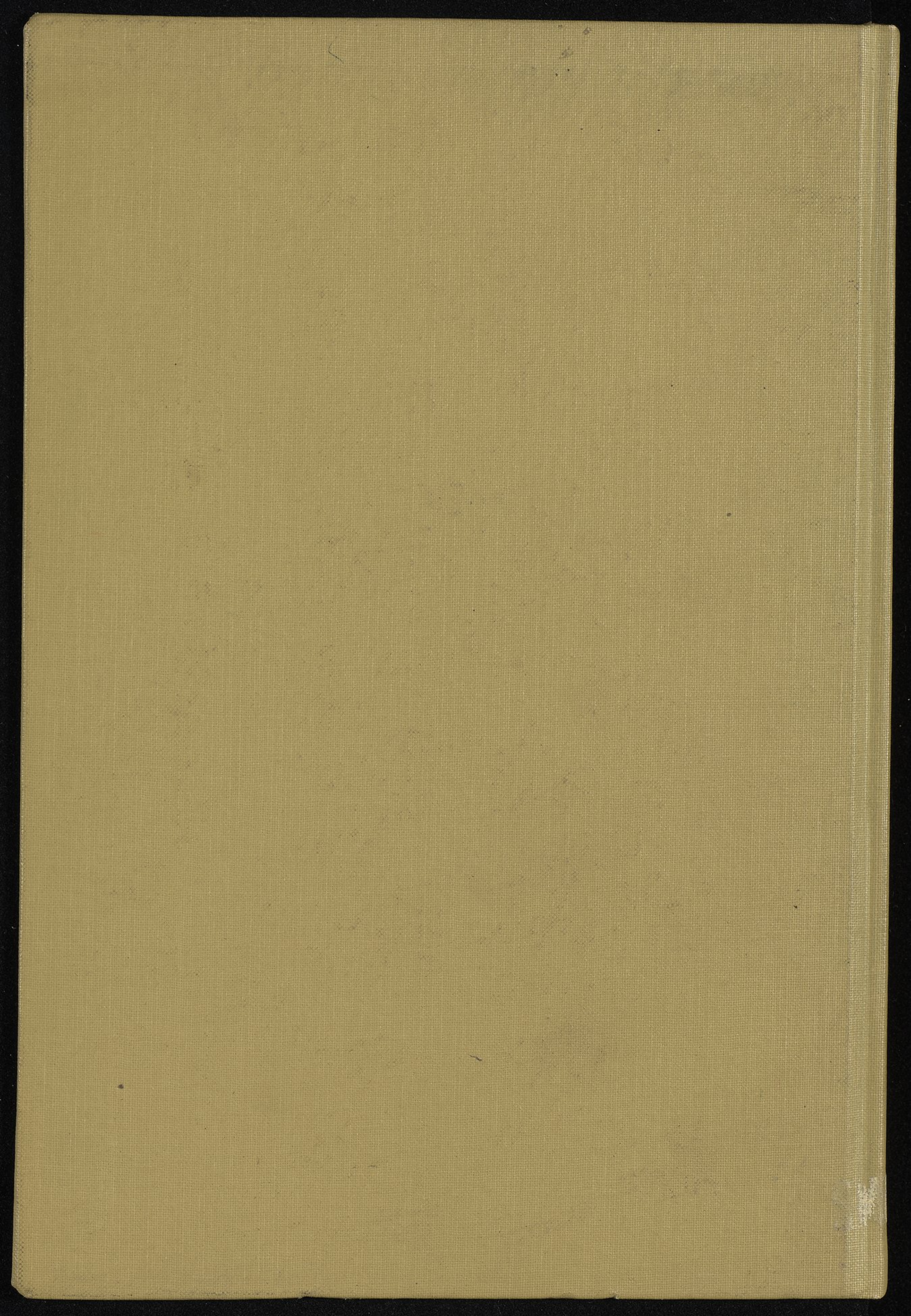
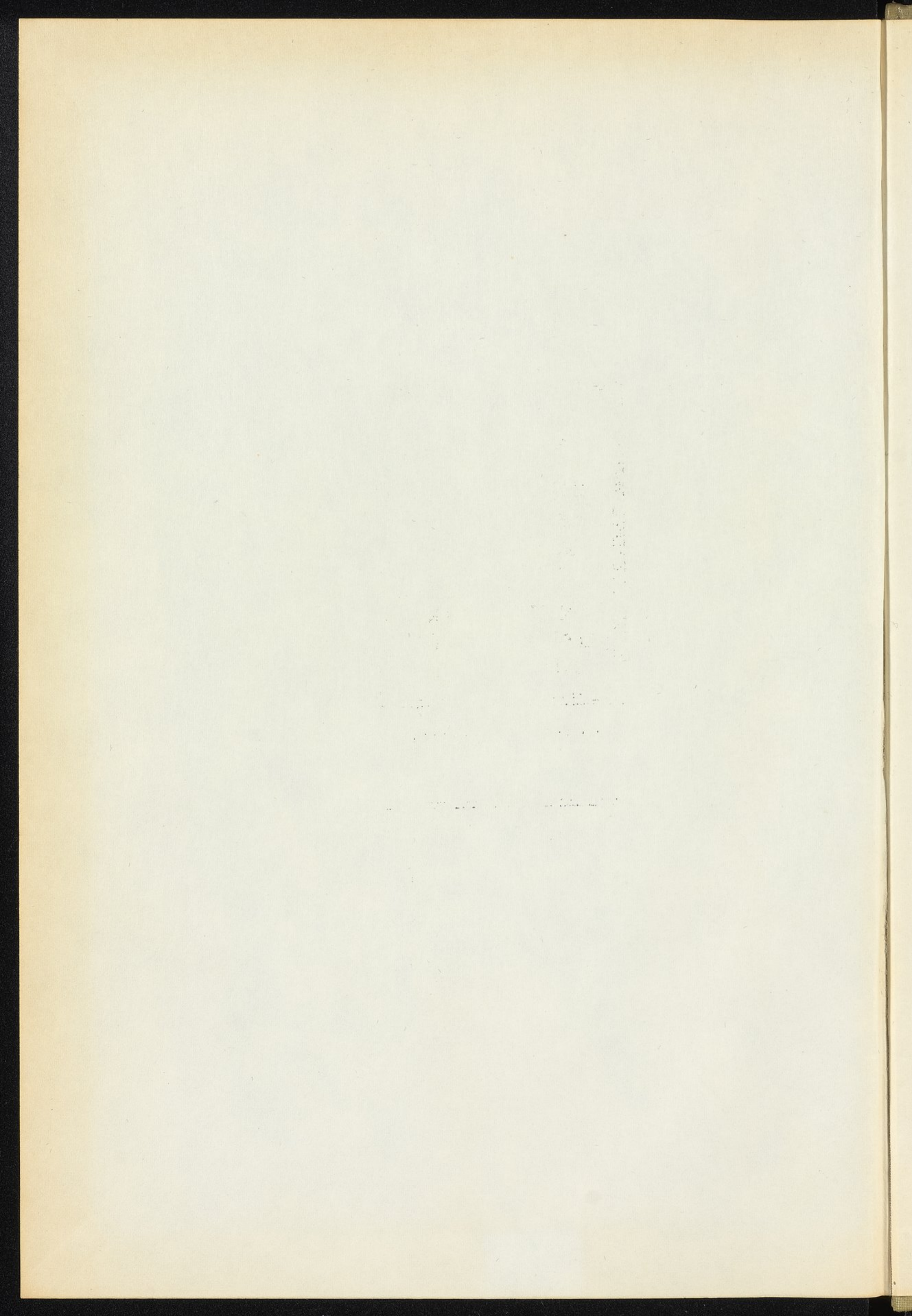
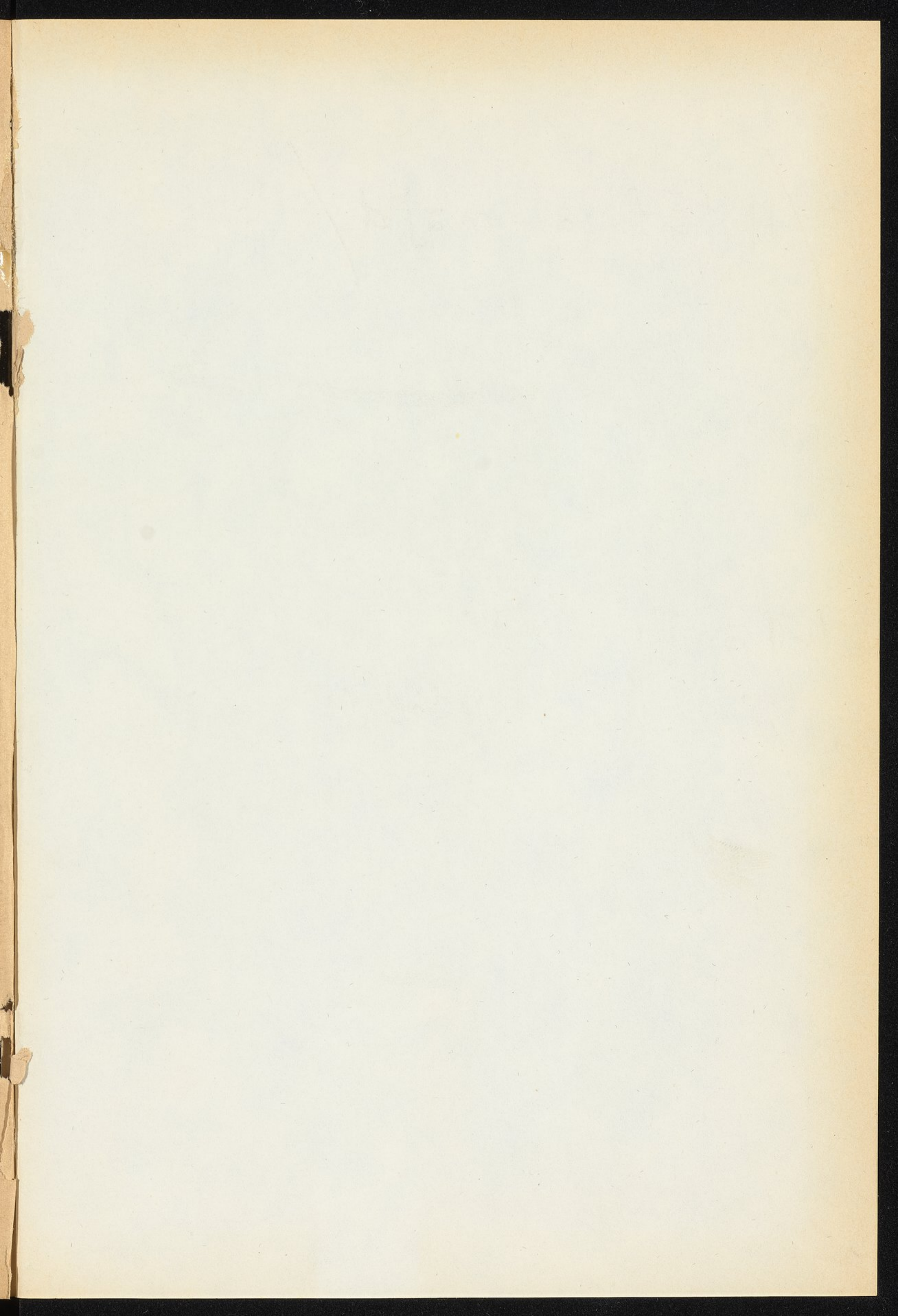






هتاف المجد

علي الطنطاوي

نشر وتوزيع
دار الدعوة بدمشق
لصاحبها موفق الشاويش
ص ب ٨٠٠ هاتف ١١٦٣٧

الطبعة الاولى

١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م

مطابع دار المنار بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك
نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين
انعمت عليهم . غير المغضوب عليهم . ولا الضالين . آمين
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على ابراهيم وعلى
آل ابراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد . كما باركت
على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . في العالمين انك حميد مجيد .
اللهم علمنا ما ينفعنا . وانفعنا بما علمتنا . وزدنا علما .

المقدمة

هذا هو الكتاب التاسع من سلسلة كتبي الجديدة . وفيه مقالات وخطب ، أما الخطب فقد القي أكثرها في هذه السنوات الاخيرة . لذلك لم احدد تاريخها ، ولذلك جاء فيها معان مكررة ، وافكار معارة ، وهذه الخطب لم تنشر قبل الآن .

وأنا أعتاد هذه المنابر من أكثر من ثلاثين سنة ، ولكني كنت أخطب ارتجالا ، فيضيع ما قلت ، ولو أني دوّنت كل ما كنت ألقيته كما دوّنت هذه الخطب ، لكان لديّ منها ما يملأ عشرة كتب من أمثال هذا الكتاب .

وعند الله أرجو عليها الثواب

دمشق : ١٠ شعبان سنة ١٣٧٩ — **علي الطنطاوي**

٨ شباط سنة ١٩٦٠ — مستشار محكمة النقض

خطبة الحرب

اني أحاول أن ألقي اليوم خطبة ، فلا تقولوا ، قد شبعنا من الخطب ، انكم قد شبعتم من الكلام الفارغ ، الذي يلقيه أمثالي من مساكين الأدباء ، أما الخطب فلم تسمعوها الا قليلا ، الخطب العبقريات الخالدات ، التي لا تُنْسج من حروف ، ولا تؤلّف من كلمات ، ولكنها تنسج من خيوط النور الذي يُضيء طريق الحق لكل قلب ، وتُحاك من أسلاك النار التي تبعث لهب الحماسة في كل نفس .

ولا تقولوا ، وماذا تصنع الخطب ؟ ان خطب ديموستين صبّت الحياة في عروق أمة كادت تفقد الحياة ، ونفثَتْ فيها روحاً وملأتها عزماً ، حين استعارت لها من جلال ماضيها ، أجنحة تضرب بها في طباق الجو بعد ما هاض الزمان جناحها ، ووقفت (وهي كلمات) سدّاً في وجه أعظم قائد عرفته القرون الأولى : الاسكندر ، ووجه أبيه من قبله : فيليب .

وخطبة طارق هي التي فتحت الأندلس .

وخطبة الحجاج أخضعت يوما العراق ، وأطفأت نار الفتن التي كانت مشتعلة فيه ، ثم وجّهته الى المعركة الماجدة ، ففتح رجل واحد من قواد الحجاج ، أكثر مما فتحت فرنسا في عصورها كلها ، وبلغ الصين ، وحمل الاسلام الى هذه البلاد كلها ، فاستقرّ فيها الى يوم القيامة ، ذلك هو قُتيبةُ بن مسلم .

ولمّا اجتاح نابليون بروسيا ، ما أعاد لها حريتها ، ولا ردّ عليها

عزمها ، الا خطب (فيختـه) التي صارت لقومه (معلقات) يحفظها في المدارس الطلاب ، ويرددها على المنابر الخطباء ، وتقرؤها كل امـرأة ، ويتلوها كل رجل .

ان خطب (فيخته) هي التي أنشأت المانيا .

وما قام في التـاريخ زعيم عبقري ، ولا قائد نابغة ، الا كان السلم الذي صعد عليه ، هو الخطب .

وما زعمت أني أستطيع أن ألقي مثل هذه الخطب .

ولا جئت اباري في ميدان البيان ، ولكن جئت لأقول الحقيقة التي تملك العقول بصدقها ، وتأسر القلوب بجمالها ، فيا أيها المستمعون الي مقبلين علي ، ويا أيهـا المستمعون وهم معرضـون عني ، يَلْهون في القهوات أو يتبخترون في الطرقات ، الى العالِم في مكتبه ، والعامل في معمله ، والمرأة في بيتها ، والطفل في مدرسته ، الى كل من يتفيأ الظلال من جنّات الشام ، ومن يَضْحى بشمس القفار في فلوات الحجـاز ، ومن يحيا على شط الفرات ، وعلى جنبات الخليج ، الى الأسود المرابطين في نحور العدو في شوارع بور سعيد ، وعلى حفافي القناة ، وعلى شعفات الجبـال في الجزائر ، وعلى سيف القـرى الأمامية في فلسطين ، الذين يمسون على وهج النار ، ويصبحون على دخان البـارود ، لا يزولون حتى يطردوا الواغل الأثيم أو تزول الصمّ الرواسي .

الى كل من شرّق من امة محمد وغرّب .

ما جئت اليوم لأستنفر وأستثير ، ولا لأشكو وأستغيث ، ولا لأفخر وأحمّس ، بل جئت لأبارك هذه الحرب التي أشعلها العرب في كل مكان : من الجزائر الى مصر الى العراق ، وأطعموها الجماجم ، وسقوها الدماء ، هذه الحرب ، ويا بارك الله هذه الحرب .

لقد كشفت منّا عن الجوهر الذي طالما اختفى تحت غبار القرون ،

وأظهرت منا العزائم التي طالما هجعت في ظلام الليالي ، وسلّت بأيدينا السيوف التي طالما تلوّت في الأغماد ، وتشكّت طول الرقاد ، وذكرتنا (وقد طالما نسينا) أننا نحن بنو الحرب ، بنو التضحيات ، بنو المعامع الحمْر ، والأيام العوابس ، واننا :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت　　　لنا رغبة أو رهبة عظماؤها

وانها ما كانت قط قلوب أقوى ولا أطهر من قلوبنا ، ولا كانت سيوف أحدّ ولا أمضى من سيوفنا ، ولا كان مجد أعظم من مجدنا ، ولا تاريخ أحفل بالنصر والظفر والفضل والنبل من تاريخنا ، واننا نحن طهّرنا أرض الجزيرة العربية من نجس يهود ، ونحن أنقذنا الشرق والغرب من عبودية كسرى وقيصر ، ونحن قصمنا ظهر كل جبّار ، وكسرنا رقبة كل متكبِّر ، واننا نحن أبطال بدر واليرموك والقادسية ونهاوند وحطين وعين جالوت والغوطة وجبل النار ، واننا هدمنا صروح الشر في الدنيا ثم بنينا فيها صروح الخير والعلم ، وأقمنا فيها منار الحق والهدى ، وأقمنا للناس خير حضارة عرفها الناس .

لا . ما جئت أفخر بالتاريخ الذي كتبناه أمس ، بل بالتاريخ الذي نكتبه اليوم ، لقد وصلنا ما كان انقطع من أمجادنا ، فالتقى المجد الجديد ، بالمجد التليد ، واجتمعت البطولات التي نبديها اليوم ، بالبطولات التي أبديناها بالأمس ، وأرينا الدنيا أننا ما أضعنا ارثنا من أمجاد الأجداد .

لا أريد الكلام ولو أردناه لكنا نحن سادته ، نحن فرسان المنابر ، ونحن أرباب الاقلام ، ولكننا نريد الفعال فليقل أعداؤنا ما شاؤوا ، وليكتبوا في صحفهم ما أرادوا ، فقد كتبنا نحن ما أردناه سطورا على ثرَى بور سعيد ، سطورا سطّرناها بجثث الغاصبين .

قد ملأنا البرّ من أشلائهم　　　فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما

ولسنا نزهى بما عملنا اننا لم نصنع شيئاً بعدُ ، فاصبروا تروا ماذا نعمل ، اصبروا تروا أن الذين حطّموا أصنام الحجارة التي كانت حول الكعبة ، وصيّروها طحينا تطؤه النعال ، بعد ما كانت أربابا تُعبد من دون الله ، سيحطمون آخر صنم من أصنام اللحم والدم ، نحته جون بول الساحر ونصبه على شط دجلة ، وقال : هذا ربّكم ، فقال أهل العراق : كذبت لا ربَّ الا الله ، وما كان عبد الثعلب الانكليزي[1] رب الأسود العـــرب .

أرب يبول الثعلبـــان برأســـه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب

اصبروا تروا انه لا يمكن أن يتحالف العـــرب والانكليز ، كلا ولا يكون الشعب العربي المسلم ، حليفا لعدوّ العروبة والاسلام .

اصبروا تروا انه يستحيل أن يعيش مليون من اللصوص المجرمين ، وسط عالم فيه خمسمئة مليون ، كلهم اخوة بسجل النفوس ، الـــذي وضع من فوق سبع سماوات ، وأثبت مادة خالدة ، في الدستور الخالد : (انما المؤمنون اخوة) . انه يستحيل أن تبقى اسرائيل وان عاشت عشر سنين أو عشرين ، ولقد قامت مكانها يوما حكومة اخرى من الواغلين الغاصبين ، عاشت نحواً من مئة سنة ثم أزالها رجل واحد هو صـــلاح الدين ، بمعركة واحدة هي معركة حطين .

اصبروا تروا انه لا يمكن أن تكون الجزائر لفرنسا ، وليس لفرنسا فيها حق شرعي ، وليس لها مع أهلها قرابةُ دين ولا لسان ، وما مكانها فيها الا مكان اللص الذي يدخل الدار في غفلة من قاطنيها ، ثم يعمد الى تثبيت قدمه فيهـــا باغتيال أصحابها ، ولكن اللص لا يمكن أن يصبح صاحب الدار .

اصبروا تروا انها ليست معركةَ بلد ولا قطر ، ولكنها وثبة شعب

---

(1) كان المراد به عبد الاله .

يعدُّ ثمانين مليوناً من العرب ، لم يتّحد ويجتمع من ألف سنة ، مثلما اجتمع اليوم ، انها غضبةٌ أمة تعدُّ خمسمئة مليون من المسلمين ، ولم تتقارب على تنائي الديار ، ولم تؤلف الأحداث بين قلوب أبنائها ، ولم تعدْ كالجسم الواحد يتألم كله لألم العضو الواحد منه ، كما بدت اليوم .

ان المسلمين الذين ناموا قروناً طوالاً ، فتحوا أعينهم من نحو خمسين سنة وحركوا أيديهم ثم نهضوا وتمطّوا حتى طردوا من أجفانهم آخر بقايا المنام .

لقد استيقظنا الآن تماماً ، وزالت آثار المخدر الذي تجرّعناه من يد المعلمين في مدارس المستعمرين ، وعلمنا الآن أننا لسنا أضعف من الغربيين ، ولا أجهل ، واننا نستطيع أن نقف أمامهم وقفة النّد للندّ ، نقول لهم لقد تعلمنا العلوم التي كنتم تنفردون بها ، وحملنا السلاح الذي كنتم تختصّون به ، وعرفنا ظواهركم وخفاياكم ، فوجدنا أن كل مزية هي عندكم قد صارت عندنا ، وأن لنا فوق ذلك ما ليس لكم : ماضينا العظيم ، وارثنا من البطولات والأمجاد ، وايماننا الذي فتح به أجدادنا الدنيا .

وان كنتم في شك من هذا ، فتعالوا انظروا ماذا في سفوح دمشق وميادينها في الأصباح البواكر ، ها هم أولاء أبناء دمشق ، قد هجروا دورهم ، ولبسوا ملابس الجند ، وحملوا سلاح الجند ، ثم اصطفّوا صفوفا وراء صفوف ، آلاف من ورائها آلاف يتدربون ويستعدون ليوم الكريهة ، بعد ما كانوا يفزعون من الجندية ، ويرونها أكبر الخطوب ، لقد عهدتُ وكنت صغيرا مدركا ، كيف كانت تقام المآتم في بيوت دمشق ، أيام الحرب العالمية الأولى اذا دعي أحد أبنائها الى الحرب وأنا أشهد الآن ، كيف يزدحم الشباب على مكاتب التطوع والتدريب .

اللهم ان هذا شيء عجيب .

لقد عرفنا مكاننا في هذا الكون ، وأدركنا أن حياة أوربة وصناعتها وأمنها وبقاءها بأيدينا ، واننا نستطيع أن ندمرها بقنبلة واحدة ونحن في مكاننا ، قنبلة واحدة على مضخات البترول ، ترجع بفرنسا وانكلترا الى مثل حياة القرون الوسطى .

لقد هببنا لنطهر بلادنا من اللصوص ، ولنعيد بناء دارنا ، ونرفع عليها لواء مجدنا ، ونسترجع تحت عين الشمس مكاننا .

هببنا هبة الثأر للقرون الطوال التي قضيناها نياما ، هبة الثأر للحريات التي عدا عليها العادون هبة الثأر للأرض والعرض ، لضحايا العدوان في كل أرض مسلمة ، للأيامى ، واليتامى ، والثاكلات .

انها معركة الخير والشر قد عادت ، ونحن أبدا حملة لواء الخير في الدنيا ، ونحن حماة الحق في الارض ، ما أضعنا الأمانة التي وضعتها على عواتقنا خمسة ملايين من شهدائنا نثرناهم في الأرض طوال القرون .

هذا تاريخنا ، ما سمعت أذن الزمان تاريخا أحفل منه بالمفاخر ، وأغنى بالنصر ، وأملأ بالأمجاد ، ووالله الذي جعل العزة للمؤمنين ، وجعل الذلة لليهود ، لنكتبن هذا التاريخ مرة ثانية ، ولنتلون على الدنيا سفر مجد ينسي ما كتب الجدود ، ولنجعلن أساسه ضرباً ضرباً لا تثبت له شوامخ الصم من أجلاد الكرمل ، ولا هام المردة من شياطين الجحيم فكيف برؤوس اللصوص الغاصبين ؟

ولنحاربن بالنار والحديد والبارود ، وبالسيوف والخناجر والعصي ، فان لم نجد يوماً السلاح حاربنا بأيدينا ، ولنسوقن الى الحرب شباباً أنضر من الزهر ، وأبهى من الضحى ، وأثبت من الجبل ، وأمضى من العاصفة ، فان لم نجد يوماً شباباً سقنا اليها الشيوخ والأطفال والنساء ، ولقد ألف الأطفال في معركة تحرير أندونيسيا فرق (جيش النمل) فكانوا يملؤون جيوبهم بالحصى ، ويتسلقون الدبابات

وهي تطلق رصاصها ، ثم يصبّونها على سلاسلها وآلاتها ليخربوها ، ولقد كان بنات أندونيسيا يَتَزَنَّرْنَ بالقنابل ، ثم يلقين بأنفسهن تحت الدبابات ، فتنفجر الدبابة ويتفجّرن معها ، وهذا مثال من ملايين الأمثال التي ضربناها للناس في تاريخ جهادنا ، ولنصنعن مثلها وأعجب منها .

ولئن كان قد داخل الضعف نفوساً منا اكتهلت وشاخت في ظلام الماضي القريب ، فسيكون من هؤلاء الأطفال شعب نشأ في نور الاستقلال ، وستلهب دمه ذكريات عشرة آلاف معركة مظفّرة خاضها الجدود وستخترق صماخ آذانه نداء عشرة آلاف بطل أنجبهم الجدود ، وستدفعه يد (محمد) الى ميادين التضحية والبذل ، حتى يطهر أرض الوطن من اسرائيل ، ويغسل بالدم هذه الصفحة التي كتبها في تاريخنا التردد والتخاذل والانقسام ، وحتى يَعُدْ مجد الماضي ، فتقرأ الطلاب في المدارس بعد حين خبر هذه الدولة ، كما يقرؤون الآن خبر القرامطة والزنج ، ممن أزعجوا الدنيا أياما طوالا ، ثم نُسُوا حتى ليقول الناس اليوم : من هم الزنج ؟ ومن القرامطة ؟

ونحن لا نبغي عدواناً ، ولا نطلب باطلا ، اننا نطلب الحق ، وسنحارب ان لم نعط الحق ، نحارب لا بغياً ولا ظلماً فلا ينصر الله ظالماً ولكن دفاعا عن أنفسنا ، وعن الحق ، وعن كرامة الانسان ، نحارب بشيوخ لهم حماسة الشباب ، وشباب لهم حكمة الشيوخ ، ونساء لهم رجولة الرجال ، وصغار لهم عزائم الكبار ، ولئن هلك منا فوج لنأتين بأفواج ، ولئن صبر العدوّ يوما لنرْ مينّه بأيام ، والمستقبل لنا ، وهذي بوادر النصر وتباشيره قد ظهرت من أفق بور سعيد .

اننا خمسمئة مليون ولو أن خمسمئة مليون هِرّة قد هجمت على انكلترا دفعة واحدة لهرب منها أهل انكلترا ، فكيف تطمع انكلترا أن

ترغم آناف خمسمئة مليون رجل ، يرون الجهاد فرضا في دينهم ، كفرض الصلاة ، ويرون الموت في الحرب أمنية من أجمل الأماني .

فيا أيهـا العرب في كل أرض ، يا أيهـا المسلمون تحت كل نجم ، يا أيها الرجال ويا أيتها النساء لقد أزفت ساعة المعركة الفاصلة ، فليحمل كل رجل منكم وكل امرأة فيكم نصيبه منها ، واعلموا أن الظفر لكم .

يا اخواننا المجاهدون في عمان والجزائر والقرى الأمامية ويا أيهـا العاملون على تحطيم آخر صنم للاستعمار في ديار العـرب ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

مجزرة الجزائر

فرنسا في يوم من أيامها السود ، فهي تستعد وتحتشد ، وتستنفر الرجال ، وتدعو الى التطوع الشبان ، وتعدّ الدبابات على الارض ، والطيارات في السماء ، وتسخّر الحديد والنار ، وكل ما أوحى به الى أوليائه الشيطان من سُبُل التدمير والتقتيل والأذى والخراب .

وهي تنادي بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتستغيث وتستجير ، وتطلب المعين والنصير .

فماذا دهى فرنسا ؟ أي عدو دهم أرضها ؟ وأي غاصب عدا على حريتها ؟ ولمن تحشد الرجال ؟ ولمن تعدّ هذه الأسلحة الثقال ؟ وهذه البلايا والأهوال ؟

هل عادت اليها الحرب وعاد الألمان ؟ أم كرّت الأيام ورجعت جان دارك ورجع الى احتلال أرضها الانكليز ؟ فهي تستعد للدفاع عن حقها المغصوب وبلدها المسلوب ؟

لا . لا . يا أيها السامعون ، لم ينزل بفرنسا البلاء ولا حلّ بأرضها الأعداء ولكن فرنسا تستغيث وتستجير ، لأن البلد الذي عَدَت هي عليه ، وسلبته أهله ، وسرقته من أصحابه ، قام يطالب بحقه ، ويدافع عن حريته . وهذا الحشد كله وهذا العتاد ، انما أعدّ للفئة من اخوانكم الجزائريين ، لأبناء أبيكم أيها العرب ، لشركائكم في القبلة ، وفي القرآن ، وفي دعوة (لا اله الا الله محمد رسول الله) .

وما ذنبهم ؟ ذنبهم أنهم تجرؤوا فقالوا للّص : اخرج من دارنا ،

ذنبهم أنهم قالوا لغاصب حريتهم : أردد علينا حريتنا •

كل مئة من هؤلاء الجنود المسلحين أعـد لواحد فقط من أولئكم المجاهدين ، لأن وزن جنود فرنسا في ميزان البطولات ، أن يكون المئة من جنودها المسلحين ، عدل واحد من المسلمين المجاهدين •

انها جريمة قتل مبيّتة متعمّدة ، تغطي بها جريمة سرقة موصوفة مقصودة ، لقد كان من قواعد الفروسية التي يصفها الأدب الفرنسي ، أن الرجل المسلح لا يبارز رجلا أعزل ، ولا أقل منه سلاحا ، وأن الاثنين لا ينازلان واحدا ، وكانوا يرون ذلك سبّة وعارا ، ولعنة من لعنـات الشرف •

ولكن فرنسا لم تعد تبالي ، انها لما خسرت بطولة الميدان ولم يعرف تاريخها الحديث الا الهزائم جاءت تسترد اعتبارها ، وتثبت بطولتها على العزل الأقلاء المطالبين بحقوقهم ، وجاءت تجرب فيهم سلاحها ، هل قلت سلاحها ؟ انها زلة لسان ، أعتذر اليكم منها • لا ليس سلاحها ، لم يبق لفرنسا سلاح ولكنه سلاح الديمقراطية ياسادة ، السلاح الذي استجدته فرنسا ، الذي (شحدته شحادة) من أمريكا لتحمي به استقلالهـا من الألمان أن يطؤوها بنعالهم مرة رابعة كمـا وطؤوها في حرب السبعين ، وحرب أربع عشرة ، وحرب تسع وثلاثين •

سلاح حلف الاطلنطي الذي ألّف ليحمي فرنسا من روسيا وحلفائها وفرنسا في الرمز السياسي تصوّر أنثى لأنها لم تعرف الرجولة قط في تاريخها ، يرمز لها بصورة (المدموازيل ماريان) فجاءت هـذه الأنثى الفاسقة تنازل الرجال المجاهدين بسلاح أمريكا وسلاح حلف الأطلنطي، تسلط النار والحديد على صدور لا تحميها النار ولا يدرأ عنها الحديد ، والأنثى الفاسقة كالنذل الجبان اذا صار بيده السلاح كان ذئبا كاسرا ، لأنه لا يجد نبلاً يمنعه ولا رجولة تحدّ من فتك سلاحه •

مجزرة ظاهـرة ، ومذبحة معلنة ، والرأي العـام الغربي[1] يسمع ويرى ، انهـا لمـا قامت اليونان على الدولة العثمانية انبرت الألسنة ، وأحدّت الأقلام وتحمّس لنصرتها كل جبـان ، وثار كل خامل ، حتى أمثال اللورد بيرون من مخنثي الأدب ، حتى فتى الشهوة والغرام ، لبس في نصرة اليونان الدرع وتقلد الحسام .

وفي الحرب الماضية نادوا : يا للانسانية ، ويا للديمقراطية ، ويا للعدالة التي استبيح حماها ودُنّس قدسها ، كيف يعاقب النـازيون اللصوص الخونة من اليهود ؟

وفي كوريا بكى الديمقراطيون بعيون التماسيح ونعبوا بحنـاجر البوم .

فما لهم اليـوم خرسوا فلا ينطقون ؟ وما لهـم عموا وصمّوا فلا يبصرون ولا يسمعون ؟ ولا يدرون ماذا يجري في الجزائر ؟

الجزائر التي استعملت فرنسا سلاح الامريكان في حرب أبنائهـا المجاهدين ، وتريد أن تسلط قوى حلف الاطلنطي كلها على هذه الفئة الصابرة المحتسبة .

جريمة من جرائم الغاب ترتكب جهاراً نهاراً ، والضمير الغربي ساكت مطمئن ، لأنها جريمة على العرب المسلمين ، لذلك لا يحسّون بها ، ولو كانت على أبناء ملّتهم من الغربيين لأقاموا الدنيا على ساق .

هذا هو الضمير العالمي ، لقد كفرنا بالضمير العالمي ، كفرنا بعدالته لأنها عدالة جائرة ، تكبر الصغير من ذنب الشـرقي وتصغّر الكبير من ذنب الغربي ترى الشعرة هنا وتعمى عن الحبل هناك .

ان من أمثال الغرب : اذا كنت كاذبا فكن ذاكرا ، ولكن الغـرب يكذب وينسى ، نسي ميثاق الاطلنطي وحق لهم أن ينسوه لأنهم كتبوه

---

(١) أعني بالغربي أميركا وروسيا على السواء .

على ماء الاطلنطي فلما ماج الماء محاه ، ونسي حقوق الانسان ، ونسي مبادىء ويلسون ونسي كل أكاذيبه الماضيات .

لقد كنا من خمسين سنة نرى قوة الغرب ومظاهر حضارته ونجهل حقيقته فكنا نخافه ونكبره ، فلما خالطناه ، وعرفناه ، رأينا أهل الغرب وحوشا تلبس ثياب بني الانسان .

انهم لا يزيدون علينا الا في هذه الحضارة المادية وسنغدو قريبا سواء فيهـا ، أما الحضارة الروحية ، أما الانسانية ، أما الفضائل البشرية ، أما الترفع عن طبائع البهائم وعن الشهوات الشيطانية ، فليسوا منها في قليل ولا كثير ولا سيما هؤلاء الفرنسيون .

فيا أيها الفرنسيون لا تذكروا الحرية والاخوة والمساواة بعد اليوم ، ولا حقوق الانسان ، انكم تدنسون طهر هـذه الالفاظ ونقاءها حين تضعونها في أفواهكم ولا تحتفلوا بيوم ١٤ تموز ، ولا تقـرؤوا كتب روسو وهوغو ولا مارتين ، ولا تسيئوا الى الأدب الفرنسي ، بادعائكم أنكم أربابه ، انكم لم تعودوا خليقين بهذا الأدب .

لقد خنتم تاريخكم ولطختم وجه أمجادكم بالطين .

لقد أطفأتم المصباح الذي زعمتم أنكم رفعتموه يوما للشعوب حين ثرتم ثورتكم الكبرى وما ثورتكم هذه التي ملأتم الدنيا فخراً واعتزازاً ؟ لقد كانت ثورة القتل والتدمير والسلب والنهب ، ثورة مجرمة حمقـاء مغموسة بدماء الابرياء ، وما الفرق بينها وبين عهد الملوك ، الا أنه كان في عهد الملوك نفر معدودون يظلمون ، فصار بالثورة كل فرد من الشعب ملكاً ظالماً .

ان فرنسا تمشي القهقرى كل يوم خطوة الى الوراء .

لقـد كانت لغتكم لغة السياسة والكياسة والحب فسبقتها اللغـة الانكليزية وصيرتها وراء .. وراء .

وكانت دولتكم من الدول العظمى فصارت اليوم وراء وراء . وكنتم علماء فصرتم تراجمة . لقد انتهى العلم في فرنسا وصار خير ما تخرجه مطابعها المترجم عن اللغات الأخرى .

لقد عقمت فرنسا أن تخرج مثل باستور ولافوازيه وديكارت وهنري بركسون وهوغو وأناتول فرانس ومدام كوري .

وصارت عجوزاً متصابية فاجرة أدركها سن الأياس فلا تلد العظماء .

وكانت لكم مستعمرات فأضعتم بحماقتكم مستعمراتكم ، وستضيع منكم افريقية كلها على رغم أنوفكم ورغم الرصاص الذي (شحدتموه) من أميركا وسلّطتموه على العزل الأبرياء .

وها أنتم هؤلاء قد بقيتم في الجزائر قرنا وثلث قرن ، فهل استطعتم أن تجعلوها فرنسية ؟ هل استطعتم أن تجعلوها تحب فرنسا ؟ هل استطعتم أن تمحوا منها العربية والاسلام ؟ لقد عملتم كل شيء . ولكن الذي أردتموه هو المستحيل .

انكم شعب أحمق أرعن لا يمكن أن يعقل أبداً ولا أن يكون سياسيا أبدا .

ان التاريخ الفرنسي يحتضر ، وأنتم يا أيها الفرنسيون تعجلون بموته ، انكم لا تطلقون الرصاص في الجزائر على المجاهدين ، ولكن على تاريخكم وأمجادكم ومفاخركم .

لقد كتب ملككم فرانسوا الأول يوما لأمه : (لقد خسرنا كل شيء الا الشرف) وسيكتب التاريخ عنكم للاجيال القادمة ، انكم خسرتم كل شيء حتى الشرف .

أما دعواكم أن الجزائر بلد فرنسي ، وقطعة من فرنسا ، فستصير ذكرى مضحكة من ذكريات الحماقة الفرنسية ، يتفكه بها التاريخ ، وتضحك عليكم بها القرون الآتيات .

الجزائر فرنسية ؟ بِمَ ؟ بِمَ يا أيها العقلاء جدا ؟ أهي فرنسية بشعبها؟ أهي فرنسية بلغتها ؟ أهي فرنسية بتاريخها ؟ الشعب فيها عربي واللغة عربية والتاريخ عربي ، وكل حجر من جبالها وكل رملة في صحرائها ، تكذب هذه الدعوى الوقحة الكاذبة البذيئة ، دعوى أن الجزائر قطعة من فرنسا ، وأقرب من هذه الدعوى بمئة مرة أن يدعي الطليان أن فرنسا قطعة من ايطاليا . ان ايطاليا ان قالتها أيّدتها وحدة اللغة ، كلتاهما لاتينية والايطالية أقرب الى الأصل ، وأيدها تاريخ يوليوس قيصر وبومبي ، وان فرنسا بقيت قرونا وهي تابعة لروما ، فماذا يقول الفرنسيون لو ادّعت ايطاليا هذه الدعوى ؟

وماذا ، لو كانت ايطاليا أقوى وساقت قواها لتذبح الفرنسيين الذين يدافعون عن حرية بلادهم ؟

وبعد ، فما أخاف على الجزائر ، ان الجزائر تبدأ في كتاب المجد صفحة جديدة ، وانتم تختمون كتاب أمجادكم بصفحاته كلها .

ان ذخر المسلمين من البطولة لن ينقطع أبداً ، حتى يستكملوا تحرير بلادهم ثم يكتبوا في تاريخ الدنيا مثل الصفحة التي كتبها الجدود ان الاستعمار قد مضى وقته ، مضى ، انه بناء من الثلج أقمتموه خلسة في ظلام الليالي الطوال من كانون ، وقد سطعت الآن شمس آب فلا تثبت بيوت من الثلج لشمس آب .

لقد تحررت آسيا كلها ، واستقلت أممها وشعوبها ، وستحرر شعوب افريقية وتعود كما كانت يوم كانت أرض فرنسا موطيء أقدام الجنود المسلمين ، وكنا نحن الحاكمين في قلب فرنسا ، ولكن أخاف عليكم أنتم .

وليس أمامكم أهل الجزائر وحدهم ، بل المغرب كله ، بل ديار

العروبة من أقصاها الى أقصاها ، بل المسلمون في كل الأرض ، بل الناس جميعاً ، الناس الذين لا تزال في صدورهم قلوب ، ولا تزال في قلوبهم ضمائر ، أما الذين فقدوا الانسانية وأضاعوا القلوب ، أما الجثث التي تمشي الى المادة وحدها ، فستقتلها المادة التي تمشي اليها .

وسيستيقظ العرب كلهم والمسلمون جميعاً ، وسيقاطعون كل شيء فرنسي ويرونه رِجساً يدنس طهرهم ، وناراً تحرق بيوتهم . وسيجاهدون حتى تشهد الدنيا جلاء آخر جندي فرنسي عن المغرب العربي كله كما جلا آخر جندي عن أرض الشام .

وما يوم الجلاء عن المغرب ببعيد .

فرنسا والجزائر

يا أصدقائي السامعين ، السلام عليكم ، لقد عدت اليكم ، عدت لأشكر بهذا الحديث فرنسا . لأشكرها مرتين : مرة عني ، ومرة عن قومي ، ولا تعجلوا عليّ بالعجب ، حتى تعرفوا السبب .

لقد قطعني عن الاذاعة ، انحطاط في جسدي ، وكلال في ذهني ، منعني معه الطبيب من بذل الجهد ، ومن تكلّف النشاط ، فسألت الاذاعة هذه الاجازة ، وجعلت آخذ الدواء بعد الدواء ، من كل مقوّ منشط ، باعث للهمة ، دافع الى العمل ، فلا أكاد أجد له أثراً ، حتى قرأت من يومين نبأ ما صنعت فرنسا حين خالفت سنن العدل وقواعد الحرب والسلم ، وأعراف أهل الشرق والغرب ، فاختطفت زعماء الجزائر من جو السماء ، من فوق البحر ، حيث لا الأرض أرضها ، ولا السيادة عليها لها ، قرأت هذا الخبر فاذا هو ينفضني نفض الأديم ، ويضرم نار الحماسة في دمي ، ويعيدني من فرط التوثب والنشاط الى مثل عهود الشباب ، وقد ذهبت الحماسة وولّى الشباب ، حتى لقد شعرت والله أني أهل لخوض المعركة القاسية ، وقحم لجّة الحرب .

لقد صنعت معي فرنسا بهذا النبأ ما لم تصنعه الأدوية والعقاقير ، ونفعتني ما لم ينفعني الصيدلي والطبيب . فلذلك شكرتها عن نفسي .

وأما أني شكرتها عن قومي فلأنها أثارت من حماسة كل عربي ومن قوته ونشاطه مثل الذي أثارته مني ، انها قد ضمنت لنا النصر بما صنعت ، لقد كنا على اختلاف في الاجتهاد فمنا من يرى مسالمة فرنسا

حتى نأخذ منهـا ونطالبها ، ومن يرى أنه لا يصلح معها الا الحرب ، وكان من جـراء ذلك ما كان في مراكش وتونس من جهة ، وما كان في الجزائر من جهة ، وخشينا أن تصير الجبهة الواحدة في المغرب جبهتين ، فجاءت فرنسا ولها الشكر ، فوحّدت الصف ، فلم يعد في المغرب العربي كله الا مجاهد أو داع الى الجهاد .

لقد بعثت فينا كوامن القوى وأيقظت فينا هواجع الهمم ، وأعادت الحرب جذَعةً ، وأشعلت النـار على الاستعمار في كل بلد عربي ، ولو أن مجاهـدي الجزائر أنفقوا في الدعاية خمسة ملايين ليرة وأمضوا في ذلك خمس سنين، لما استطاعوا أن يصنعوا لقضية الجزائر ، ولما استطاعوا أن يسيئوا الى فرنسا مقدار ما أساءت فرنسا لنفسها ، وأحسنت اليهم ، بهذا العمل .

ولقد كان للجاحظ تعبير عجيب فيمن يضرُّ نفسه بنفسه ويخدم عـدوه بذاته ، وهو لا يدري ما يصنع كان يقول : « ان هـذا الفعل لا يكون الا بخذلان من الله » وما فعلته فرنسا لا يفعله بنفسه عاقل الا بخذلان من الله وخذلان فرنسا نصر لنا .

وأنا رجل مولع بالتاريخ ، ولقد قرأت تواريخ أمم الشرق والغرب ، فما رأيت أمة تهدم مجدها بيدها وتهجو نفسها بفعالها وتعين بحماقتهـا عدوها على نفسها الا أمة فرنسا ، والأحمق يخطيء مرة ولكنه لا يعود الى الخطأ نفسه ، وفرنسا أخطأت مرتين وعادت الثـالثة ، لقد لُدِغت مرتين من هذا الجحر ثم رجعت تدسُّ يدها فيه ، لقـد اختطفت يوماً حكام سوريا ، ويوماً حكام لبنان ، فماذا كانت النتيجة ؟ هـل نسيت فرنسا تلك الحوادث وما مر عليها الا عشر سنين ؟ كانت النتيجة الخيبة لفرنسا والاستقلال لسوريا ولبنان ، وكذلك تكون العاقبة الآن .

فماذا دهى فرنسا وقادتها وحكامها ؟ ;

أطارت بعقولهم هذه الهزائم ، ينالهم بها عشرة آلاف مجاهد ، ولهم هم جيش يعد نصف مليون ، يحميه الحديد والبارود والمصفحات على الارض والطيارات في السماء ، وذهبت بتفكيرهم ، فلم يعودوا يبالون بشيء لا بالحق ولا بالشرف ولا بالتاريخ القائم لهم بالمرصاد يدوّن ما يعملون ، ولا بهؤلاء الذين خُدعوا بثورات فرنسا ، وبما كتب أدباء فرنسا ، فتصوروها أم الحريات وباعثة النهضات[1] ، فأتت فرنسا تنزع من قلوبهم كل ما تعلق بها ، وكل خير كانوا يظنونه فيها .

أقسم أني لو كنت فرنسيا لخجلت أن أقول أني فرنسي ، وكل مفكر أو أديب فرنسي يخجل اليوم من نسبته الى فرنسا .

ولن يستطيع بعد اليوم شاعر من شعرائهم أن ينظم بيتاً واحداً يفخر فيه بفرنسا ويتغنى ببطولاتها وأمجادها ، وبم يفخر ؟ بهذا الذي صنعتم ؟ أهذه هي البطولة الفرنسية ، أرضيتم لأنفسكم أن تكونوا قطّاع طرق يختطفون الناس من الطريق ؟ ألا واجهتموهم في الميدان ؟ ألا صاولتموهم في المعركة الحمراء ؟ ألا أخذتموهم من معاقلهم ؟ أهذا ما انتهى اليه جنود نابليون ؟

خذوهم من حيث كانوا ، من شعفات الجبال ومهامِهِ البيد ، وهيهات ... ان البيداء للأسد ، للأسد الذي يهجم من أمام ، لا للعقرب التي تدبُّ خلسة وسط الظلام ...

وفرنسا ما كانت قطُّ أجمة آساد ، ان فرنسا مراتع غزلان مباحة لكل صيّاد ... غزلان ، ولكن القرون لذكورها فقط ... فدعوا القتال

---

(١) وبكوا على باريز لما سقطت . ولما عرضت نفسي يومئذ لغضب المستشار ، وكتبت أعتب عليهم أن آثروا ذكريات فسوقهم في باريز ، على واجبات الدين والوطنية ، لم أجد في كتّاب الرسالة يومئذ مناصرا الا أخي الأستاذ عبد المنعم خلاّف .

فما أنتم أهله ، وجرّوا الذيول على أبواب الحانات والمواخير ، في مونمارتر ومونبارناس وسنّوا قانونا يحرم على مدرسيكم أن يدرسوا تاريخ الثورة ، وحروب نابليون ، لئلا يدرك الصبية الصغار في المدارس كيف لطّخ الفرنسيون أمجادهم بالطين ، وكيف عَدَوْا على الحريات بعد ما ادعوا أنهم ثاروا دفاعاً عنها وكيف فقدوا بطولة الحروب فاستعاضوا عنها بقطع الطرق ، وسرقة المارين ، وبالعدوان على النساء والأطفال بعد ما زعموا أنهم صاروا تحت علم نابليون أبطال أوروبة ، ولا تقرؤوا روائع الأدب الفرنسي التي تتغنى بالعظمة والسمو والشرف، انكم لم تعودوا خليقين بهذا الأدب ، ولا أهلاً لهذا التاريخ .

تتشدقون بذكر حقوق الانسان وتعبثون بحقوق الانسان ، وتهتفون بحق الشعوب بتقرير المصير ، وتعدون على حقوق الشعوب ، وتدرّسون في كليات الحقوق في بلادكم قواعد الحرب ، وتكفرون بأفعالكم بقواعد الحرب أفلا تستحون ؟

استحوا من الله ، استحوا من التاريخ ، استحوا من علمائكم وأساتذتكم وأدبائكم .

استحوا ، فما هذه حرب ، هذا عدوان على بلد ما لكم فيه حق من الحقوق لا الأرض أرضكم ، ولا الأهل أهلكم ، ولا اللسان لسانكم ، ولا الدين دينكم ، هذه سرقة ، هذه جريمة ، هذه قرصنة ، هذه وحشية. وما هذه كلمات سب ، بل هي تقرير للواقع .

ان الذي يقول للذئب أنت ذئب ، لا يسبّه ولكن يسميه باسمه ، وكل هذه الكلمات لا يفي بالتعبير عما صنعت فرنسا في الجزائر ، ولو صَنَعَ "عشره شعب" آخر بفرنسا ، لقال عنه كتاب فرنسا أضعاف ما قلت أنا الآن ...

انها جريمة ولكنها جريمة ليس لها قضاة ، وليس للمظلوم فيها

محامون . انه لما أثار الاستعمار فتنة ١٨٦٠ وأوقعها بين القوم الذين ظلوا يعيشون معاً أكثر من عشرة قرون ، خرج الأمير عبد القادر وعلماء دمشق يقدمهم شيخ العلماء جدي الشيخ محمد الطنطاوي ، فوقفوا في وجوه الغوغاء يَفدون النصارى بأنفسهم ويحمونهم بأجسادهم ، ويتعرّضون للموت الأكيد ، ليدفعوا عنهم الموت ، وها هم أولاء أدعياء النصرانية من الفرنسيين يخالفون دين المسيح ، دين المحبة والعفو والسلام ، وينالون المسلمين بكل مكروه ، فلم ينهض واحد من عظماء الغرب ليقف في الدفاع عن هؤلاء المظلومين مثل موقف علماء المسلمين في فتنة الستين ؟

ذلك لأن الغرب غرب والشرق شرق ، ولن يكونا قط شرقيَين ولا غربيَين . ولذلك يقف النصارى في الشام من الجزائر مثل موقف المسلمين، ينكرون على فرنسا فعلها مرتين : مرة لأنهم عرب وهي تعدو على العرب ومرة لأنهم مسيحيون وهي تخالف بفعلها كل ما شَرَعَ للناس عبد الله ورسوله وكلمته سيدنا المسيح .

وما ضرّت فرنسا الجزائر باختطافها الزعماء الخمسة ولكن ضرّت نفسها ، بل لقد نفعتنا فرنسا ، وزادتنا ايمانا بالنصر ، وما شككنا في النصر قط ، انه لنا .

اننا لن نغلب ، وعندنا مستودع ذخائر وقوى ، يكفي لهذه الحرب مهما طالت وقست ، ويكفي لتحرير كل بلد اسلامي ، ثم السير به صُعُداً في طريق العلاء .

مستودع ظاهر مكشوف يراه الفرنسيون ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوه بسوء لأن عليه حافظا قويا لا ينام .

انه القرآن مستودع ذخائرنا ، ومصدر قوانا ، والحافظ الله .

« انا نحن نزّلنا الذكر وانا له لحافظون » .

« ان ينصـــركم الله فلا غالب لكم » . « وكان حقاً علينـــا نصـر المؤمنين » .

واننا على طريق النصر ، ان الذي تمّ في هذه السنين العشر ما كنا والله نظن أن يتمّ في مئة سنة .

لقد استقلّت اندنوسيا وصارت دولة فيها ثمانون مليونا .

واستقلت باكستان وصارت دولة فيها ثمانون مليونا .

وخرج الفرنسيون من الشام وما ظننتم أن يخرجوا ، وطرد كلوب من الأردن ، وجلا الانكليز عن القناة ، ثم أمِّمَتْ القناة على رغم أهل الارض ، واستقلّت مراكش وتونس وطرابلس ، وها هي ذي الجزائـــر تفعل في ميدان البطولات ما لم نسمع بمثله في التواريخ .

هذه الجزائر من كان يظنّ أن الجزائر التي لبث فيهـــا الفرنسيون قرناوثلثقرن ، وكنا نرى أبناءهافيجيش الانتدابفنحسبهممنالفرنسيين من كان يظن أنها ستقوم على فرنسا ؟ .

ومن الذي أقامها ؟

ما أقامها والله الا الاسلام ، ولئن اعتقل البطل ابن بلاّ ، فسيخرج الاسلام من أهل الجزائر ألف ابن بلاّ .

ومن كان يسمع باسم ابن بلاّ قبل سنتين ؟

ومن كان يسمع باسم عبد الناصر قبل خمس سنين ؟

من كان يظن أن هـــذا الضابط المصري ، الذي يملك جيش مصر آلافا مثله ، سيملأ ذكره الدنيا ويشغل الناس .

من كان يظن قبل أن يثور عبد الكريم أن عبد الكريم يستطيع أن يحارب دولتين ويواجه جيشين فيهما مئتان وخمسون ألفا ؟

من كان يتصور قبـــل أن ينهض عبد القادر أن عبد القادر يستطيع أن يحارب فرنسا سبع عشرة سنة ويقيم في الجزائر حكومة ، يضع لها القوانين ، ويرسي لها الدعائم ؟ .

ومن قبل ، أما فعلنا الأعاجيب ؟ .

لما نظر عمر في وجوه الصحابة فقال لسعد بن أبي وقاص : تعال أنت ، اني مرسلك لتحارب رستم أعظم رجال الفرس العسكريين ، وسعد ، ما درس في مدرسة عسكرية ، ولا حضر معركة ، ولكنه درس في مدرسة محمد ، فظفر سعد برستم وبدولة رستم ، وخلّد في القادسية مجداً لا تبليه الليالي .

ومثل سعد أبو عبيدة والمثنّى ، وعمرو ، والقواد الذين كانوا الأحاجي في تاريخ الحروب ، قتيبة ، والمهلّب وابن القاسم ، وموسى ، وطارق .

ان أمة ولدت عشرة آلاف بطل ليس لفرنسا عشرة فقط من وزنهم ، لا يعجزها اذا أسِرَ ابن بلاّ ، أحسن الله خلاصه ، وأجزل ثوابه ، أن تخرج ألف ابن بلاّ .

فلا تحسبوا أنكم صنعتم شيئاً ، ما صنعتم الا أن أخرستم كل لسان على طرفيه بقية كلام في تحسين الظن بكم ، والأمل فيكم ، وجعلتم المغرب كله ، والمشرق الاسلامي من بعده ، ناراً تتلظّى عليكم ، وجهنّم مفتحة أبوابها لكم .

فلا تقولوا ، خلا بأسر ابن بلاّ العرين .

لا تقولوا خلا العرين ألف ليث اذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم ثم روعوا حماه ان عند العرين أسدا غضابا

في افتتاح اسبوع الجزائر

القيت في الحفلة الكبرى وأذيعت

شكرا يا سادتي وعذرا ، فان هـذي التحية النبيلة ، هذا التصفيق الذي ينبعث من القلب هـزةَ حبٍّ تحرك الأعصـاب وتطلق الايدي لتستحق خطبة من تلك الخطب العبقريات ، التي تبدّل نفوسا بنفوس ، وتحوّل من حـال الى حال وتتلاعب بالأفئدة والقلوب وتسعّر الدم في العروق ، وتصبُّ العزم في الاعصاب .

وليس عندي الليلة شيء من هذا ، ما عندي ما أستحق به تحيتكم ، لا لأني شِخْتُ وعجزت وغاض بياني وكلّ لساني ، بل لأني مُنِعت يا سادتي ، أشهدكم على أني منعت من أمثال تلك الخطب .

لا تسرعوا بالعجب ، بل فاسمعوا السبب .

كان الفرنسيون في كل مكان من بلاد الشام ، وكانوا هم السادة ، وكانوا هم القـادة ، لهم في كل دائرة مستشار والمستشار هو الحاكم ، ولهم في كل قرية جنـد ، وعلى كل أكمة قلعة ، وكانت الحكومة منـا ولكنها معهـم ، فكنا نخطب فنهجم على الحكومة ونثـير الشعب على الفرنسيين ، فيصفق لنا الناس ويحملونا على الأعناق .

فأجلي الفرنسيون عن ديارنا ، وصارت الحكومة منا ولنـا ، فلم يبق لنا ما نخطب فيه فامتنع عليّ الكلام وانقطعت أرزاقنا .

فقلنا ، لئن مُنعنا من الكلام في شمال الشام ، فلنمش الى جنوبيه ، الي الأردن ، فكنا نسبُّ هناك كلوب ، ونطعن على الحكومة التي تأتمر

بأمره ، فنشتري بذلك اعجاب النـاس وتصفيق المستمعـين ، فطردوا كلوب وحرروا البلد ، فقطعوا أرزاقنا ، ومنعونا من الكلام .

فمشينا الى الحجاز ، فكنا تثير المصلين على ضيق الحـرم وسوء الطرق ، فنجد منهم التقدير والاكبار فوسّعوا حرم المدينة حتى جعلوه آية في الابداع ، ووضعوا ستمئة مليون ليرة لاصـلاح حـرم مكة . وخدموا الحرمين في هـذه السنوات الأربع ، أكثر مما خـدمه ملوك المسلمين جميعا في القرون الثلاثة عشر التي مضت ، ووسعوا الطـرق ، وشرعوا بالاصلاح الشامل ، فلم يعد لنا مجال لمقال .

فرحلنا الى مصر ، فكنا نهمس في بعض الآذان نسبَ فاروق ، ونظهر عوراته ، ونطعن على الانكليز ، وكان لنـا في ذلك ميـدان ، فجاؤوا فطردوا فاروقا ، وألحقوا به الانكليز ، وفعلوا الأفاعيل التي ملأ حديثها الدنيا وشغل الناس .

فأين نذهب ، وماذا نقول ، وهل يستطيع الأديب أن يعيش بلا أدب ولا لسان .

اني أحتج يا سادة باسم الأدب ، وأحتج عليكم أنتم بالذات فلقـد آذيتموني أكثر مما آذاني هؤلاء الملوك والرؤساء .

وقفت فيكم يوم أسبوع التسلح ، ووقفت على هذا المنبر أستحثكم وأذكركم فما تركتموني أتم كلامي ، حتى تزاحمتم على صندوق التبرع ، وتدافعتم تتزاحمون لا لتأخذوا بل لتعطوا ، ووقفتم في الطريق في البرد تحت المطـر ، تنتظرون أن تفتح لكم الأبواب لتـدخلوا فتـعطوا ، وعملتم العجائب ، فالفتاة تخلع حليهـا وتعطيها ، والعجوز تأتي بحجة دارها وتعطيهـا ، والدركي يجيء براتبه كله فيعطيه ، وتركت الحفلة وذهبت الى الدار ، ومرّ نصف الليل والتزاحم على الصندوق لا يزال كما كان ، وكان معي وأنا أستمع أصوات المتبرعين من الراد ، رجل عاقل

جدا ، أعني أنه جبان جدا ، وبخيل جدا ، وأرجو ألا تخبروه أني اغتبته فقال لي : لقد جنّ هذا الشعب جنون الكرم ...

ورأيته بعد أيام واذا هو قد أعطى ابنـه مئة ليرة ليتبرع بهـا في المدرسة ، وبنته مئة ، وتبرع هو بثلاثة آلاف ثم بثلاثة آلاف ، ثم بثلاثة آلاف متحمساً يرغب الناس في البذل .

فضحكت وقلت له « هل وصلت اليك نوبة الجنون » .

قال : يا أخي وهل يجوز الامساك اليوم ، والعـدو على الأبواب ، وانطلق يخطب ...

ولقيته أمس مصادفة ، فذكّرته بالقصة ، وقلت له : هل تراك تجنّ هذا الأسبوع مرة أخرى ؟

قال : لا تضحك فوالله لقد وجدت المكافأة في الدنيا قبل الآخرة ، كانت بنتي عليلة كما تعلم قد عجّزت الأطباء وكنا ندفع لعلاجهـا أكثر من مئتي ليرة في الشهر ، فَشُفيت وصحّت ، وكنت أنا وأهلي في خصام مستمر فحل الوئام محل الخصام ، وكان في قلبي الخوف دائما من الفقر والرغبة في المال ، فأراحني الله وأزاح عني هذا الغمّ ورزقني السمـاحة والرضا ، وأزيدك لقد ربحت بدل العشرة آلاف التي دفعتها أربعين ألفاً في هذه الأشهر .

قلت : بقي لك كثير ــ لم تربح الربح القانوني ،

قال : كيف ؟ لقد ربحت أربعمئة في المئة .

قلت : قانون المصرف الذي عاملته ، أن المئة تربح سبعين ألفا ، .

قال : ماذا تقول ؟

قلت : هذا قانون المصرف الالهي ، أتحب أن تسمع نص المـادة ، الفقرة الأولى « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة » وهناك زيادات بيّنتها الفقرة الثانية

« والله يضاعف لمن يشاء » أي أنه يمكن أن تربح بالليرة ألفا وأربعمئة على الأقل .

فهل في الوجود أربح من هذه التجارة ؟ والمصرف مأمون لا يُفلس ولا يأكل حق أحد .

والخلاصة أنكم آذيتموني في أسبوع التسلح وفضحتموني .

فاذا كنتم تريدون أن تفضحوني هذه المرة أيضا فخبروني من الآن لأريحكم من كلامي وأستريح ، ومـا فائدة الدرس اذا كان المتعـلم أعرف به وأسبق اليه من المعلم ، واذا كنت أقول لكم ألِف° فتسبقون فتقولون بَاء° فأقول باء فتقولون تاء .

ندعو دمشق للاضراب فتضرب دنيا العرب كلها ، من مراكش الى الخليج .

لا بل الى باكستان وأندونوسيا ، فلا يبقى لكلامنا وخطبنا معنى . ونقول للحكومة اهتمي يا حكومة بأمر القناة ، فيـأتي الوزير حومد فيقول باسم الحكومة أكثر مما تقول نحن ، ويصرح بما لم نصرح به نحن .

وهذا يا سادة قضاء على الأدب وقتل للأدباء .

عيب الأدباء أنهم يتخيلون فيرتفعون عن الواقع ، فصرنا لا نستطيع مهما تخيَّلنا أن نسمو الى الواقع ، لقد سبقت أفعالكم أقوالنا ، وزادت حقيقتكم على خيالنا .

وهل أستطيع مهما تخيلت ، أن أقول أكثر مما قال وزير خـارجية ليبيا لسفير أمريكا .

قال له : ان واجهتم مصر بالقوة ، ضربنا أكبر قاعدة حربية لكم ، فَشُد ه السفير ، وقال : هل هذا تهديد ، وباسم من تقوله ؟

قالَ : نعم انه تهديد ، وأنا أقوله باسم الشعب والملك والحكومة .

فهل بعد هذا زيادة لخطيب متحمس أو أديب ذي خيال . فاذا كنتم

عازمين أن تصنعوا في هـذا الأسبوع مثل صنيعكم في اسبوع التسلح أو نصفه أو ربعه ، وربعه شيء عظيم ، فأرجو أن تنتظروا قليلا انتظروا حتى نقول شيئا معشر الأدباء لندّعي بعدُ أن كلامنا وبياننـا هو الذي صنع هذه المعجزات .

وما يضركم أن نغذي أنفسنا بالأوهام ؟

وبعد فاسألوا الله العون ، فهذا الذي قلته كله مقدمة الكلام وهأنذا أبدأ الآن .

وما أريد أن أخطب خطبة تتلظّى بالحماسة ، ولا أريد أن أحـاضر محاضرة تضجُّ بالأرقام ، ولكن أريد أن أجلو لكم لوحة واحدة ، تبدي لكم بالخطوط الكبار ، لا بالتفاصيل والظلال ماذا في الجزائر اليوم .

وان وجدتموني أعيد شيئا مما قاله الأخ الأستاذ الجزائري فاغتفروا لي هذه الاعادة ، وان كان أثقل الكلام الحديث المعاد .

يا سادتي :

لو كان مقامي الليلة في القـاهرة أو في بغـداد ، لوجدت مشقّة في عرض صورة الحياة في الجزائر اليوم ، لأن القوم هناك لم يجربوا فرنسا ولم يعرفوا منهـا الا وجهها الثاني ، فرنسا ذات وجهين ، الوجه الذي يتمثل فيه أدب الحرية ، أدب روســو ولامارتين وهوغو وتتمثل فيـه مباحث علماء القانون ، وأعيان الفكر ، والوجه الحقيقي الذي قابلتكم به في ميسلون ، ثم في الغوطة التـي كانت خضراء بالرياض ، فجعلوها حمراء من مهرق الدماء .

فاذكروا ما كان في الثورة ، وارسموا صورتها في أذهانكم ، وكبروها مئة مرة تروا صورة الجزائر في هذه الأيام .

أعرض لكم لوحة صغيرة من لوحات الثورة ، كنت كتبت فيها قصة نشرت في مصـر من ثمان وعشرين سنة ، ولكني لن أعـرض القصة بل الحادثة .

كنت يوما في بسيِّمة في أواخر الثورة ، وكان فيها الأمير الشاب البطل عز الدين الجزائري سِبطُ شيخ الجهاد وبطل الجزائر الأمير عبد القادر ، وكان في عدد قليل من المجاهدين ، فكانت تخرج له الحملة الضخمة معها السلاح والعتاد ، فيربط لهم فم الوادي ، فيصيد جنودها ويهزمها ، فتعود فرنسا على القرى الآمنة فتنتقم لعجزها منها ، فتسوق البرآء من أهلها الى الموت ، وتذيقهم العذاب قبله ألوانا وتهدم البيوت وتنهب الأموال .

وما قتل عز الدين ضعفه ولا قتله قوة الفرنسيين ، ولكن الذي أودى به أنه وقف يوما فوجد القلب حاضرا والسلاح موجودا ولكن ينقصه العتاد ، والبندقية بلا ذخيرة عصاً من حديد ، وتلفَّت حوله فوجد عواطف الناس معه ، ولكن أيديهم عليه ، فهم ينظرون اليه ولكن لا يمدون اليه يداً بعون ، فقضى شهيدا ، كانت هذه سيرة المستعمرين فينا خلال الثورة ، جبن وهزيمة ونهب وقتل وفجور .

هذي فرنسا بوجهها الآخر ، أعني الوجه الحقيقي .

كبروا الآن هذي الصورة ألف مرة ، تروا أمامكم صورة الجزائر اليوم .

لكن الجزائر اليوم أوعى منا يومئذ ، لقد تقدم بها الزمان ، ان الجزائر تقف صفاً واحداً ، لقد ذابت الاحزاب كلها في جبهة التحرير ، واجتمعت القوى في جيش التحرير .

تصوروا مئة واد كوادي بسيِّمة ، وفي كل واد منها ووراء كل صخرة مجاهدون من جيش التحرير ، في كل مكان في الوعور وفي أصلاد الجبال ، يعيشون مع الصخر حيث لا تصبر جِمال الفلا ، ووحوش البيد ، فكيف بالشقر المخنثين ممن قذفتهم حانات مونمارتر ، يضربون ولكنهم لا يُرون ، كالأسدِ تعرف أنها في آجامها ولكن من يراها ؟

لا لأنها تـَخاف فتهرب بل لأنها تـُخاف فيهرب منها ، انّ ذِكر المجاهدين يخرط قلوب المستعمرين .

ولقد عرفنا هـذا أيام الثورة السورية ، يوم كانت فرنسا لا تحكم الا على بعض دمشق ، وأكثرها مع الغوطة في أيدي الثوار ، وكانت في وسط العقيبة حصن (استحكام) فرنسي فيه ضابط باريزي أشقر ناعم ، كأن رجولته خطأ مطبعي في سجل الحياة ، أو كأنه أنثى متخفية في ثياب رجل ، أحب أن يرى صورة حسن الخراط ، فجاءه أحـد ظرفاء الحي بصورة عنتر التي تعلّق في القهوات ، فلما نظر الى الصورة ورأى سوادا كالليل ، وعينين تتـَقدان كعيني الصقر ، وشاربين كسارِيتي المركب ، انخرط بطنه وأصابته الزنطارية (الديزانطاريا) فَحـُمل من فوره الى المستشفى .

لذلك يا سادة يلقى هؤلاء المجـاهدون مئات الألوف من جنـود المستعمرين ، ولذلك يتعاقب النصر فيهم ، وتتتالى الهزائم على عدوهم .

لقد تعلموا درسا جيدا في حروب الهند الصينية ، التي نكسَّتأعلام فرنسا وقضت على ما بقي من أسطورة بطولتها .

ينهزم الفرنسيون في كل معركة في الجزائر ، ولكن البطولة الفرنسية لا تنهزم ، البطولة التي أدهشوا بهـا الدنيا سنة ١٨٧٠ أمـام بسمارك وسنة ١٩١٤ أمام غليوم وسنة ١٩٣٩ أمام هتلر وسنة ١٩٢٥ أمام حسن الخراط ، تبدو هذه البطولة في القرى الآمنة ، وعلى المدنيين المسالمـين وعلى النساء والأطفال وتعود جيوش الاستعمار معقودا بنواصيها الغار لأنها ظفرت بالأطفال والنساء ، وأصلـَتـْهم نار المـدافع والرشـّاشات ، انهم يمحون القرى محوا ، ويبيدون أهلهـا ابادة ، وتحت يديّ وصف لما جـرى في قرية (سكيكده) في اقليم (المقلع) ، لم يكتبه عـربي جزائري ، ولكن كتبه فرنسي في جريدة فرنسية .

جاء هذا الصحفي الفرنسي القرية عقب ضربها ، فلم يجد فيها حياً واحدا ، ووجد الكلاب تنبح نباحا يقطع نياط القلوب ، تبحث عن أصحابها خلال الأنقاض ولو استطاعت البكاء لبكت لهذه المأساة دَماً ، لقد رقت قلوب الكلاب ولم ترق قلوب المستعمرين ، لقد صارت الكلاب أكثر انسانية من قوم روسو وموسه ولامارتين .

انهم كلما انهزموا انتقموا من القرى ، فيطوقون القرية ثم يأخذون الرجال فيعذبونهم ، يبتدعون طرقا في التعذيب لا تعرفها الأبالسة ، ويذبحون أطفالهم أمامهم ، ويعتدون على نسائهم أمامهم ، ثم يقتلونهم جميعا ، انهم يدمِّرون القرية بأهلها لأضعف الحجج .

أخذ المجاهدون أصابع من الديناميت من منجم العالية ، فَدُمِّرت القرية كلها وأبيد أهلها .

وكانت خصومة (خناقة) بين خبّاز فرنسي ورجل من العرب في قرية (ابن غانم) فصيَّروها قضية ثورة وجهاد ، وسعى بها الى المستعمرين ، فأبيدت القرية كلها بالمدافع .

وقُتل رئيس الشرطة في قسطنطينة فقَتَل ابنه ستة من العرب بالسلاح الرسمي ، وجرح أربعة ، فاختارت السلطات المستعمرة ثلاثة عشر من كبار أهل البلد ، منهم الاديب المعروف مدير جريدة الشعلة وعضو جمعية العلماء أحمد رضا حوحو ، ومنهم نواب في المجلس البلدي وساقوهم مشياً الى المعتقل ثم رأوا أن الاعتقال والتحقيق أمر متعب فقتلوهم جميعا بلا تحقيق ولا محاكمة ، ولما ثار الناس عليهم اعتذروا بأنهم قُتلوا خطأً .

يا سادتي : ان المصائب حينما تكبر يعجز الفكر عن تصورها ، وأنا أخشى أن تمر بكم هذه الأخبار فلا تعرضوا في أذهانكم تفاصيلها لهولها وعظمها .

ان اللص ينزل على دار من الدور فتصيح المرأة ، ويبكي الطفل ، ويرتاع الجيران ، وان النار تَشِبُّ في غرفة من الغرف فيضطرب الحي وتزلزل المنطقة كلها ، وما هي الا نار تنطفيء أو لص ينهزم ، فتصوروا ما يصيب هؤلاء الناس حينما تفاجئهم وسط الليلوهم آمنون في دورهم المدافع ترجُّ بهم الأرض والطيارات تصبُّ عليهم الحمم والدبابات قد صارت وسط دروبهم ، والجند قد دخلوا بسلاحهم الى غرف نومهم ، فيطيش الرجل عن أهله ويقتل الأب أمام بناته ويُنال من البنت بحضرة أبيها والمرأة بعين زوجها وان هرب المرء لحقه الموت وأين المهرب من النار وقد تفتحت أبوابها من كل جانب ؟

وان أفلت ولد من الموت عاش باليتم حياة ليست خيرا من الموت ، وان نجت امرأة عاشت تتجرع حزنها على زوجها وولدها وقاست مرارة الحاجة وذلَّ السؤال .

هذا ما يجري اليوم في الجزائر .

لقد سُنَّ فيها قانون فاجر ، لو صدر مثله عن جنكيز أو عن قبائل الهون في ذلك الزمن البعيد لقال التاريخ انهم تأخروا عن زمانهم ، وانحطّوا به عن رتبة أمثالهم ، فكيف وقد أصدره الفرنسيون ، أحفاد من نادوا بحرية المساكين في القرن العشرين ؟

قانون يسوغ لجنود فرنسا ، حتى الأخلاط منهم الذين هم حثالة كل أمة أن يدخلوا كل دار من الدور ، في كل ساعة من ليل أو نهار ، فجأة بلا انذار بحجة التفتيش عن المجاهدين .

وتصوروا ماذا يكون من سرقات وماذا يكون من فجور ونحن العرب قد نصبر على كل شيء ولكنا لا نصبر على المساس بالعِرْض ، وهذه حقيقة لا تفهمها فرنسا ، لأنه ليس في لغة فرنسا كلمة تترجم بها هذه الكلمة ، ليس عندهم شيء اسمه (عِرض) .

فهل تستطيعون أن تأكلوا وتشربوا ، وتلهوا وتلعبوا ، وتغنّوا وتطربوا ، واخوانكم في الجزائر يقاسون هذه الأهوال .

لو كان في الطريق قطة تموء من الألم ، أو كان عند الجيران عامل يضرب بمطرقة ، لما قدرتم على المنام ، أفتنامون وفي الجزائر اخوة لكم يهتفون بكم وينتظرون العون منكم ، وتنامون والمدافع تضرب من حولكم ؟

ان في الجزائر اخوة لكم يعيشون في الموت ، ويموتون في الحياة .

لا أريد أن تنشروا المناديل وتستدروا الدموع ، ولا أريد أن تُصعِدوا الزفرات وتنفثوا الآهات ،

لا ، وليس اخوانكم هناك هلكى يَستَجْدون الدمع ، بل هم بحمد الله أبطال يطلبون المدد ، انهم أقوياء بالله ثم بكم ، فان نصرتموهم اليوم بأموالكم طهّروا الجزائر من أرجاس الاستعمار ثم جاؤوا يعينوكم على تطهير الحرم من نجس اسرائيل .

ان فرنسا تعرفهم وتعرف بطولتهم ، ان كل نصر نالته فرنسا خلال القرن الذي مضى من صنع أيديهم هم وهذه حقيقة يقرُّ بها تاريخ فرنسا .

ان معركة (المارن) التي يجعلها الفرنسيون مدار فخرهم ومسار ذكرهم ، انما كسبها الجنود الجزائريون لما طلعت المغربية برؤوسهم فثبتوا للموت حتى فزع منهم فارتد عنهم الموت ، لقد قضى ثمانون ألفاً في هذه المعركة فقط ، لقد كان منهم في الحرب الاخيرة مليون جندي تحت راية الحلفاء ، انهم هم الذين طاردوا فهد الصحراء رومل ، وطوحوا به من أرض الى أرض حتى ذهب فمات غمّاً وهو نابغة الحروب ورجل الرجال ، هل حسبتم الانكليز هم الذين طاردوه ، متى كان الانكليز يحاربون ؟ ان صناعتهم اضرام نار الحروب والقاء الناس فيها ، لذلك

أرادوا أن يصبُّوا البترول في قناة السويس لما فقدوها فيحرقوا بالقناة العالم .

لقد كان الجزائريون في هذه الحرب الاخيرة في فم المدفع ، وكانوا في وجه النار ، وبذلوا لقضية الحلفاء ما لم يبذل مثله شعب، انهم تدربوا في جيش فرنسا ، ولكن ليس لفرنسا عليهم فضل لأنهم دفعوا أجرة التدريب ، ما دفعوا مليونا ونصف مليون فرنك ، لا يا سادة بل مليون ونصف مليون روح بشرية سيق أصحابها لازهاقها جبرا ، من أجل فرنسا . لقد جاؤوا اليوم يتقاضون بعض هذا الدين .

ان الفرنسيين يخشون المجاهدين لأنهم عرفوهم ونحن لم نعد نخشى فرنسا لأننا عرفناها .

لقد أصابتنا نكسة في آخر القرن الماضي حين رأينا أوروبا قوية بعلمها وسلاحها ورأينا أننا ضعاف بجهلنا هذه العلوم وفقدنا هذا السلاح .

جاؤونا بوابور الكاز فتعجّبنا ، ثم بالكهرباء فدهشنا ، ثم بالطيارة فتحيرنا ، ثم درسنا علومهم ورأيناهم في بلادهم وعرفنا أسرار عجائبهم فذهب العجب وزالت الدهشة وبطل السحر والساحر .

وكنا نظن أنهم لا يغلبون .

فلما صارعناهم بسلاحنا المفلول وعتادنا القليل رأيناهم مغلوبين بأيدينا .

وكان أول من علمني هذه الحقيقة ، عبد الكريم ، الذي كان ضابطاً صغيرا عند اسبانيا ، لبنة صغيرة في بناء ضخم لا يدري بها أحد ، فلما غضب لله ، وغضب للحق وثار في دمه اِرث البطولة الذي انتهى اليه من سعد وخالد وعقبة وطارق وابن القاسم حارب وحده اسبانيا وفرنسا معا .

فيا سيدي الأمير عبد الكريم تحية وسلاما .

ثم علمني هذه الحقيقة هؤلاء المجاهدون الأحرار الذين جعلوا الغوطة غوطتين ، الغوطة التي سقيت بماء بردى وأنبتت الثمار والأزاهير ، والغوطة التي سقيت بالدم ، وأنبتت الحرية والاستقلال ، هؤلاء الذين ما هابوا فرنسا يوم كانت فرنسا أقوى دولة برية ظافرة ، ولا قصّروا في نزالها .

وها هي ذي مصر اليوم ، وها هي ذي الجزائر تملي هذه الحقيقة على الدنيا من جديد .

لقد كنا نذكر أمجاد ماضينا ، ونحن نخجل من هذا الماضي ، لأننا لم نكن أهلا له ، حتى اذا كتب المجاهدون في كل بلد ، هذه الصفحات الغر في تاريخ المكارم صرنا نعود للماضي ، ولدينا مثل مفاخر الأجداد في الماضي .

ان الذي يصنعه اليوم المجاهدون في الجزائر ، من مظاهر الايمان ، ومجال البطولات ، مثل الذي صنع المجاهدون الاولون من المسلمين .

والذي عملتموه في أسبوع التسلح ، مثل الذي عمله المهاجرون والأنصار ، لقد تبرع أبو بكر بماله كله ، وعمر بنصف ماله ، فرأينا في ذلك الأسبوع من أعاد مكرمة أبي بكر وعمر .

وأنا لا أطمع أن يكون هذا الاسبوع مثل ذاك .

ان تلك الوثبة لو كانت من أمة مرة واحدة في العمر ، لكانت بها أعظم الأمم ولم نسمع بمثلها عن أمة ، ولكن أريد أن تعرفوا أننا في حرب ، حرب ظاهرة وحرب خفية ، حرب مع اسرائيل ومن ورائها الامريكان في فلسطين ، وحرب مع انكلترا ومن ورائها فرنسا في القناة ، ومع فرنسا ومن ورائها حلف الاطلنطي في الجزائر ، وهذه هي الحرب الظاهرة ، أما الحرب الخفيّة فهي حرب الاقتصاديات وحرب المبادىء الهدامة .

ان تلك براكين ساكنة توشك أن تنفجر ، وهذا بركان متفجر يرمي بالنار والحمم على اخوانكم .

وان المال الذي يأخذه منا الغربيون ، ثمن سيارات البذخ ، وأحمر الشفاه ، وعطر الاغراء ، وهاتيك السموم التي اسمها الشمبانيا والويسكي ، كل ذلك يتحول ثمن رصاص يستقر في صدور هؤلاء الاخوان ، وثمن قنابل تدمر دورهم وقراهم .

فهل سمعتم بأمة تعين عدوها على نفسها ؟

هل سمعتم بأمة تعيش في الحرب مثل عيشها في السلم ؟

هل سمعتم بأمة تنام على دوي المدافع ؟

هل سمعتم بأمة تغني على أنين المحتضرين من أبنائها ، وترقص على قبور شهدائها .

هل سمعتم بأمة ترسل أولادها ، وقلوبهم كالصفحات البيض الى مدارس عدوها الى الفرير والفرنسيسكان واللاييك ... لينقش المعلمون فيها على هذه القلوب لعنَ أمتهم والكفر بها وبأمجادها ؟ .

انها أيام حرب ، فلنعش عيش الحرب .

ولنتقاسم بالله ، وبدماء الضحايا ، على أن نقاطع مدارس الأعداء وبضائع الأعداء ، وليعط كل منا ما يقدر عليه ، فان ما تدفعه قد يحرمك هذا الشهر من الكماليات ، وقد يدخل عليك بعض الضيق ، ولكنه يحيي في الجزائر نفوسا وينقذ من الاستعمار بلدا عربيا ، ويدفع الأذى عنكم أنتم ، فان فرنسا ، وأنتم أعرف بها ، ان فرنسا ان ظفرت لا سمح الله ولا قدر في الجزائر لتعودنّ على مراكش وتونس ، ولترجعنّ اليكم اذا قويت بضعفكم وتخاذلكم . والثواب بعدُ مضمون من الله ، وان الرزاق هو الله ، وما تدفعونه وتنوون به وجه الله ، فان الله يخلفه .

يا أهل الشام ، هذا اسبوع الجزائر ، الجزائر تناديكم .

المجاهد الذي فقد الذخيرة ، وأحاط به الأعداء ، وتلقّفته نيرانهم يسقط وهو يهتف بكم ويناديكم ، المرأة التي أرادوها على الخنا ، وفقدت من حولها النصير ، تفكر فيكم وتناديكم .

الطفل الذي خرج من المأساة وحيدا ، قد نجا بأعجوبة من أعاجيب القدر ، يمشي يتعثر وحيداً جائعا ويمد يده من وراء حجب الصحاري والبيد يناديكم .

تناديكم أمجاد الماضي ، وآمال المستقبل .

العروبة تناديكم ، والاخوة ، والكعبة التي تتوجهون اليها ، والأرض والسماوات ، فاسمعوا النداء ، نداء الأرض الحرة الذي أراد أن يستعبدها الظالمون ، نداء العِرْض المصون الذي يعدو عليه الظالمون ، نداء الدين والفضيلة والشرف والانسانية .

هذا أوان الثأر فاثأروا لميسلون ، اثأروا لضحايا الغوطة والجبل ، اثأروا لدمشق التي ضربها هؤلاء المستعمرون بالمدافع مرتين في ربع قرن ، فدمروا أجمل أحيائها ، وقتلوا زهرة أبنائها .

وبعد أيها السادة :

فلقد افتتحت هذا الحديث بذكر الأمير عز الدين الجزائري ، فدعوني أختمه بذكر الأمير عبد القادر الجزائري ، هذا المجاهد البطل الذي بسط يديه على الجزائر خمس عشرة سنة ، يد تحمل المصحف وتؤسس على التقوى الحكومة الحرة العادلة ، ويد تحمل المسدس وتدفع عن البلاد القوى المعتدية الظالمة ، فلما نخر سوس الخيانة في أساس هذا الصرح ، واضطر الى الهدنة ، أرادوه أن يسلم سيفه ومسدسه .

وكان أبداً يصحب مصحفه لا يفارق خيمته ، وكان أبداً يحمل مسدسه لا ينزل عن عاتقه ، فأبى أن يسلم سلاحه ، وقال : لن أدع المعلمين في فرنسا يقولون لتلاميذهم وهم يزورون المتحف ، انظروا هذا هو مسدس عبد القادر .

وبذلت المتاحف الفرنسية النفائس لتحظى به فلم يصل اليها ٠

ولكن أنا وصلت اليهما ٠

هذا هو مصحف الأمير عبد القادر ، وهذا مسدس الأمير عبد القادر ، هذا الذي كانت تنطلق الرصاصة منه فتفتح من بعدها عشرات الآلاف من البنادق ، في تلك المعارك الطاحنة التي لا يزال التاريخ مشدوها من خبرها ، هذا الذي أبى الأمير أن يسلمه لفرنسا ، يسلمه حفيده لأسبوع الجزائر ٠

لما كلفتني اللجنة فشرفتني بالكلام في هذا الاحتفال فكرت في شيء له قيمة معنوية أفاجيء به الناس ليطرح للمزايدة لا ليانصيب ، اليانصيب حرام قطعا ، فقصدت الأمير سعيد ففتح لي صندوق مخلفات جده الأمير عبد القادر ، وخيَّرني أن أحمل منها ما أشاء فحملت المصحف والمسدس وجئت بهما ٠

ان الأمير سعيد ليس بالرجل الغني ، واني أقول لكم ، اذا كان يسمح ، ان أملاكه مرهونة ، وانه يستطيع أن يبيع هذه المخلّفات الى المتاحف الفرنسية بنصف مليون ليرة ، ولكن الأمير سعيد الذي يتحرق شوقاً الى الذهاب الى الجزائر ليجاهد مع المجاهدين ، وهو ابن ثمانين ، لا يبيع مخلفات جدّه لفرنسا ولو دفعت له فيها عشرة ملايين ، ولو بات على الطوى ٠

انه تبرع بهما لاسبوع الجزائر ٠

ولو كانت هذه الحفلة للتبرع ، لافتتحت المزايدة الآن ، ولكن اللجنة لم تر التبرع فيها ، فأنا أضعها بين يدي اللجنة ، وأرجو أن ينتهي بهما الطريق الى يد أمينة لا يتسربان منها الى بلد أجنبي ، بل الى متحف عربي ، أو الى ابن بلا ، قائد جيش التحرير ، يُهديان اليه ليطلق آخر طلقة وراء الاستعمار الراحل بالمسدس الذي أطلقت منه أول طلقة في وجه الاستعمار الداخل ٠

يا أهل فلسطين

ألقيت في حفلة المؤتمر في القدس وأذيعت سنة ١٩٥٧

ليس هذا الكلام لكم وحـدكم ، بل لكل من يصل اليه صوتي ، لكل عربي في الأردن ، والشام ، ومصر ، والجزيرة ، والعراق ، لتعلموا أنكم لستم في الميدان وحدكم ، وأن لكم اخوانا ، ان لم يحضروا معكم الليلة بأجسادهم ، فهم معكم بأسماعهم ، وهم أبداً معكم بقلوبهم ، وهم معكم في المعركة الحمراء ، يوم يجدُّ الجد ويحمى الوطيس ، ويأذن الله لهذه السيوف أن تنصلت من أغمادها ، ولتعلموا أن كل عربي في الدنيا معكم ، وكل مسلم في الأرض معكم ، وكل منصف من بني الانسـان يقدّس الحق ويحب العدل هو معكم .

يا أيها السادة :

لقد كان من توفيق الله للمؤتمر أن جعل لفلسطين يوما في السنة ، يشتغل فيه المسلمون بقضية فلسطين ويذكرون فيه قضيـة فلسطين ، وكان من تمام هـذا التوفيق أن جعل يوم فلسطين هو يوم الاسراء ، ليذكر المسلمون أنهم انفرّطوا في هذا الحرم ، أو تركوا اليهود يهدمون لا سمح الله ولا قدّر ، قبّة الصخرة وهذا المسجد الأقصى ليقيموا على أرضهما هيكل سليمان ، فقد أضاعوا قبلتهم الأولى ، وحرمهم الثالث ، ومسرى نبيهم ومعراجه ولن يكون ذلك باذن الله أبدا .

وفي هـذه الساعة ، يجتمع المسلمون في كل مدينة وكل بلد وكل قرية مثل اجتماعكم ، يخطبون مثلمـا تخطبون ويشعرون بمثل ما به

تشعرون ، ولقد كنت في مثل هذا اليوم من ثلاث سنين أخطب في (هايد بارك) كراتشي ، في حديقة (آرام باغ) حيث كان يستمع الي" أكثر من مئة ألف . فلم يكن يتذكر الأقصى ، ولم تكن تتذكر فلسطين حتى تفيض القلوب دموعاً من العيون ، وتشتعل الحسرات وتعلو الزفرات ، ومن قبل خطبت في الأموي في دمشق والأزهر في القاهرة ، ومسجد الامام الأعظم في بغداد ، ومن بعد خطبت في المسجد الجامع في دهلي ، وفي ندوة العلماء في لكنو ، وفي ساحة كمبير في جاكرتا ، فما كان يختلف علي" الا الزمان والمكان ، واللون واللسان أما الايمان فهو هو ، وأما العاطفة فهي هي ، وأما الحماسة لفلسطين والحب لهذا الحرم والرغبة في الجهاد في سبيله فلم تكن تختلف أبداً .

ولقد كنا نجد في رحلتنا من يعتب علينا لما صنع بعض قادتنا في حرب فلسطين ، ولما يهمل بعض دعاتنا من ذكر الاسلام وما يقفون عنده من ذكر العرب ، حتى ان فخامة الحاكم العام السابق في باكستان غلام محمد شفاه الله ، واجهني بهذا لما زرته أحد"ثه عن فلسطين ، فقلت له : يا فخامة الحاكم ، هب أن العرب قصروا أو أهملوا أو ارتدوا لا سمح الله ، فهل الأقصى مسجدهم وحدهم ، وهل محمد نبيُّهم وحدهم ، وهل القرآن لهم وحدهم ، فانصروا فلسطين ، وأنقذوا الحرم الثالث ، لا من أجل العرب ، بل لأنه مسرى محمد ولأنه بيت الله ، أتدرون ما كان جوابه ؟

انه لم يستطع الجواب ، لأنه بكى حتى شَرِق بالدمع ، وبذل لنا هو وحكومته أكثر مما نطلب .

ولما كانت الحفلة التي أقامتها الجالية العربية تكريما لجلالة الملك سعود في (فندق بيج) في كراتشي قلت له : قلت له أنا الذي لم يَنظم في عمره الا هذه الأبيات :

يا خادم الحرمين تترك ثالث ال	حرمين يعدو فيه كلب يهود
هو حصن حق غاب عنه حماته	هو قلعة لكن بغير جنود

لا العطر والندُّ المصفَّى طيبه ... لكنَّ ريَّاه شذا البارود
يَصْلى المصلّي النار في جنباته ... والمسلمون بنومة وهجود
أينام من تقرى المدافع سمعه ... صوتاً يزلزل قنَّة الجلمود ؟
أينام من يمشي اللهيب بداره ... يشوي حميم لظاه رمل البيد ؟
قد فرَّ منه الناس الا فتية ... من كل قرم ثابت صنديد
قد أقبلوا يُورون حرباً أدبرت ... عنها أراهط عدة وعديد
ولقوا بلحم الصدر أثقال العدى ... صبروا على نار لهم وحديد
لاحصن يحميهم وان حصونهم ... في كل ثغر جثة لشهيد
أسعود ، باكستان أكبر دولة ... ولأنت أكبر سيِّد وعميد
أيضيع بينكما مصلّى أحمد ... ويعود هيكل معبد ليهود
المرأة الشلاَّء تحمي بيتها ... أنبيح بيت الخالق المعبود ؟

قال الملك : لبيك لبيك دمي ومالي لفلسطين .

وكان في أندونيسيا جماعتان اسلاميتان ، ما شومي ، ومسلم ليك ، وكان بينهما من الاختلاف ما يكون بين الأحزاب السياسية ، وكانت احداهما في الحكومة والثانية في المعارضة ، لكنا لما دعوناهما الى حفلة فلسطين ، حضر زعماء الجماعتين ، فلما ذكر الأقصى ووصفت مأساة فلسطين ، رقّت القلوب ، وفاضت العيون ، فغسل الدمع ما كان من خلاف ، واجتمع في لجنة فلسطين محمد ناصر رئيس ماشومي ، والكيا[1] دحلان رئيس المسلم ليك .

ان أهل فلسطين اخواننا وأشقاؤنا لهم علينا ، على العرب كلهم ، على المسلمين جميعاً حق الشقيق على الشقيق ، وان هذه الأرض الحبيبة ،

---

(١) الكيا معناه الشيخ أو الاستاذ ومنه الفقيه الشافعي المعروف الكيا الهراسي وماشومي وهو مجموعة أحزاب اسلامية يبلغ عدد أتباعه (١١ مليونا) من الحروف الاولى لجملة (مجلس الشورى الاسلامي) ومسلم ليك أي الجماعة الاسلامية .

وتفصيل خبرها في كتابي عن أندونيسيا وهو قيد الطبع الآن .

أرض فلسطين وطننا ، وطن العرب كلهم ، وطن المسلمين جميعاً ، ولها علينا حق الأوطان على أهلها ، وان فيها من ذكريات البطولة والمجد ما يهز القلوب ويثير العزائم ، ولكن القضية أكبر من النسب والاخوة ، وأكبر من الوطن والوطنية ، وأكبر من النخوة والحماسة ، انها قضية دين وعقيدة ، ان كل مسلم يدخل المسجد الأقصى ، ويقوم حيال الصخرة ينسى كل شيء الا أن ههنا موطناً من موطن الروح ، منزلا من منازل القدس ، تسترخص في سبيله الأرواح ، ويبذل في سبيله كل شيء ، انها قضية جهاد في سبيل الله ، والله هو الباقي اذا ذهبت البطولات والأمجاد ، وصحف الحسنات هي الخالدة اذا فنيت صحف التاريخ ، وما كان لله فهو المتّصل .

ثم انها قضية حق ، لا يستطيع منصف في الدنيا الا أن يكون معها ، وهل في الدنيا منصف واحد ، هل فيها رجل يحترم رجولته ، وانسان يقدّر انسانيته يقر منطق الصهيونية وأنصارها ، يا صاحب الدار ، اني أريد أن أسكن في دارك ، فاخرج منها وتنازل لي عنها ، والا ذبحتك وذبحت أولادك .

الحق معنا ، ولكن سنة الله في هذه الدنيا ، ان الحق ان لم تكن معه القوة سطا عليه الباطل حينا ، وللباطل جولة ثم يضمحل ، ونحن لما تركنا سنة الله ، ولم نَحمِ حقّنا بقوتنا كان ما كان في فلسطين .

على أنا لم نغلب في فلسطين . انكم سمعتم هذه الحقيقة مني مرارا من اذاعة دمشق ، وأنقل الكلام الحديث المعاد ، ولكني أعيد الليلة ذكرها ، لأن هذا الكلام يسمعه ناس ما سمعوا خطبي وأحاديثي في اذاعة دمشق ، التي تعاودكم في كل أسبوع من خمس عشرة سنة الى اليوم ، لا ما غُلبنا في فلسطين ، انما غلبت فينا خلائق غريبة عنا ، خلائق قبسها بعض رجالنا من أعدائنا ، خلائق التفرق والتردد وموالاة الأجنبي ، هذه هي خلائق الهزيمة .

ولقد استمرت رحلتي من أجل المؤتمر تسعة أشهر ، وقطعت فيها أكثر من أربعين ألف كيل ، وخطبت فيها أكثر من مئة خطبة ، وعقدت أكثر من أربعين مؤتمراً صحفياً ، كنت أسأل فيها وأجيب ، أفتدرون أني لم أكن أكن أعيا بسؤالي ، الا سؤالاً واحداً ، كنت أعيا بجوابه . وكنت أغصُّ بريقي خجلاً ، وكنت أتمنى لو تنشقُّ لي الأرض لأفرَّ منه فراراً ، هو سؤالهم : لماذا لم يتّحد العرب ؟ ولماذا لم يحاربوا في فلسطين؟ ولماذا رضوا بالهدنة ؟

ولكن رأسي بدأ الآن يرتفع .

لقد سرنا في طريق التاريخ بسرعة الطيارة ، فبلغنا في تسع سنين ، من يوم فلسطين الى اليوم ، ما لم تكن تبلغه الأمم في تسعين سنة .

ولا أضرب لكم الأمثال ، فالأمثال تحت أنظاركم ، ولا أقيم لكم الشواهد ، فالشواهد حيال أعينكم ، فانظروا ما قطعناه في تسع سنين .

لمّا كان المؤتمر يا سادة من ثلاث سنين ، دعا الملك حسين وفود المؤتمر ، وكنت مريضاً فلم أذهب ، فلما رجعوا يحدثونني حديث الوليمة ، قصّوا علي كيف كلمه أخونا الأستاذ الابراهيمي ، فقال له : ان موسى ربّاه فرعون فكان له ولقومه عدوا وحزَنا ، وأنت رُبّيت عند الانكليز، فكن لهم كما كان موسى لفرعون .

فأكبرت الكلمة ، وأعظمت جرأة الشيخ في قولها ، ونبل الملك في استماعها ، ولكني رأيتها ، كما رآها الاخوان كلهم ، خيال شاعر .

الملك حسين يحارب الانكليز ؟ كيف وكلوب في الأردن ؟ هل يستطيع أن يكفَّ من سلطان كلوب ؟

فلم يمر عشرون شهراً حتى سمعت خبراً عجيباً ، لقد طُرد غلوب من الأردن ، وكذبت سمعي ، وفركت عيني لأرى هل أنا في يقظة أم في منام ، فوجدت أني في يقظة ولكنها أعجب من المنام .

ومرت الأحداث مسرعة تزيغ منها الأبصار ، وسبقت الحكومات العربية ، أعني أكثر الحكومات العربية شعوبها ، وصرنا نرى في رؤسائنا زعماء لنا في النضال لا حاكمين يأخذون بخناقنا ، ويغلّون أيدينا لئلا نكافح أو نناضل ، لم يعد فينا حاكم ومحكوم ، ولكن قائد وجنود ، والهدف الساحة الحمراء ، والراية راية الجهاد .

وحينما يدنو يوم المعركة ، لن يجد اليهود ومن هم وراء اليهود سبعة جيوش متفرقة ، بل جيشا موحدا ، ولن يروا قادة ينهون عن القتال ، ويأمرون بالانسحاب ، ولن يجدوا من ورائهم زعماء ، يلبسون في الليل أمام المستعمرين جلد التابع الذليل ، ويلبسون في النهار أمام العرب جلد الزعيم المطاع .

وان كان قد بقي أحد من هؤلاء من عجائز النحس كنوري الشقي غير السعيد ، كان عزرائيل لهم بالمرصاد ، فان لم يحلّ عزرائيل المشكلة حلّها الشعب العربي الأبي الذي يشرب ماء دجلة والفرات[1] .

يا سادة نحن اليوم غير ما كنا بالأمس .

واذا كنت قد قمت يوم المؤتمر على هذا المنبر أتكلم كلام الأديب الذي يثير الهمم ، ويبعث العزائم ، فأنا لا أحتاج اليوم الى حماسة الأديب ، ولا الى خيال الشاعر ، لأن لدي من الوقائع ما يفي عن الخيال .

وهل يبلغ الخيال أن يصل الى ما يقع اليوم في اليمن ، في الجزائر ، وما وقع في بور سعيد .

في اليمن ، يردّ الرجال الدبابات ، ويقابلون بالبنادق المدافع ، وينتصرون .

وفي الجزائر ، يحارب المجاهدون ، نصف مليون جندي ، نصف مليون ، بأيديهم أسلحة حلف الاطلنطي .

(١) وقد كان هذا بعد سنة واحدة من القاء هذه الخطبة .

وفيَ بور سعيد ، لقد ردّ أهل بور سعيد جيوش فرنسا وانكلترا معا ، فمن كان يتصور هذا ، من كان يتصور أن يكون ؟

فيارب لك الحمد ، الحمد لله .

ولكن لا تحسبوا أننا انتهينا ، هيهات هيهات ، ان دون النهاية طريقا طويلا ، ومشقات وأهوالا .

واذا نسيتم فانظروا حولكم ، انظروا الى هذا السفح المطلّ عليكم من عل ، المطل على الحرم ، يتصيّد من فيه من المصلين في الحرم والعاكفين فيه ، انهم هناك ، انهم هنا وراء باب العمود ، ولولا هذا السور الذي أقامه المؤتمر ، لوصلت الينا هنا نارهم ، انظروا الى تلك الرابية حيث تقوم القدس الجديدة ، حيث تقوم منازل العرب تردّ اليهود .

يا مستمعيّ في الشام ، اسمحوا لي أن أعيد أسطراً مما كنت قلت لكم الجمعة الماضية ، لأن هذه الخطبة تذيعها الاذاعات الثلاث المصرية والأردنية والسورية . ولا عليّ اذا أعدت تلك الأسطر لمن لم يسمع حديثي الماضي .

يا أيها السامعون لكلامي هذا وأنتم في منازلكم ، على ضفاف النيل ، وضفاف بردى وشطوط الرافدين ، تعالوا انظروا ماحال المسجد الأقصى ، انه لم يعد المسجد الأقصى مثابة الأمن وحرم الأرض المقدسة ، ولم تعد قبّة الصخرة نقطة الدائرة العربية المسلمة التي تطيف بها من كل جانب تمتد رحيبة فسيحة حتى تصل من هنا الى أواسط فرنسا ومن هناك الى حدود الصين ، كما كانت على عهد الخلفاء من أبناء عبد الملك ، اذ كان كل ما يدور عليه محيطها لنا ، لنا وحدنا ، ترفرف عليه رايتنا ، وتحكم فيه شريعتنا ، ويمرح من فيه أحراراً في حمى عدالتنا ، سعداء في فيء حضارتنا ، قد فتحناه بسيوفنا ، وسقينا أرضه بالماء الأحمر الدافيء

الدافق من عروقنا ، وغرسنا فيها الأغراس الطاهرة الغالية من أجساد شهدائنا ، وغذيناها بذوب عقولنا ، وعصير أرواحنا ، فأنبتت هذه الحضارة الخيِّرة حضارتنا ، وهذا المجد الضخم مجدنا .

لقد كنت أحب أن أظل سادراً في مسارب الماضي ، أمرُّ على رياض الذكريات أجمع لكم طاقة زهر لكل زهرة فيها لون ، وفي كل زهرة أريج ، قد تنوعت فيها الألوان ، وتنوعت فيها العطور ، ولكن الحاضر يردني اليه ردا عنيفا فلا أجد الا زهرة واحدة أقدمها لكم ، زهرة برية وحشية قد نبتت على قبر طري ، فلها لون الدم ، ولها رائحة الفناء ، ومن موحياتها الحزن والأسى ، ليس من موحياتها البهجة والانشراح .

لقد تبدّلت الأرض غير الأرض ، فلم أعد أقدر أن أجلو لكم يا أيها السامعون اليّ من بعيد صورة القدس الحرم الوادع الذي يستشعر القائم فيه أمن الحرم ، ولذة العبادة ، ونشوة الخشوع ، لا ولا القدس مثار الذكريات الماجدة الكريمة ، ذكريات النصر والعزة والعلاء . ذكريات عمر وعبد الملك وصلاح الدين . لا ولا القدس التي عرفتها لما جئتها أول مرة من ثلاثين سنة ، فوجدتها تميس بالراحة الدائمة والعيش الناعم ، لقد حالت الحال وانقضت أيام النعيم ، ولم يبق من القدس الا ما يبقى في الميدان اثر المعركة ، وحشة الموت ، وآثار الدماء ، وبقايا الضحايا .

فتعالوا شاهدوا القدس ، وأنتم يا من جئتم اذهبوا غدا لتشاهدوا القرى الأمامية . وتروا كيف يصبر أهلها على ما لم تصبر على مثله شمُّ الرواسي ، يحملون ما لا تحمله مَرَدَة الجن ، يقيمون على الصخرات التي شيّدت عليها دورهم ، والبساتين التي هي تحت القرية ، في السهل ، بساتينهم هم صارت لعدوهم ، لليهود ، يرون كل هذا فتنقطع نفوسهم حسرات ، ومع هذا الألم الذي يقطع النفس، ومع الجوع الذي

يقطع الامعاء ومع الفقر والحاجة وأنه لا مورد لهم وهم في رؤوس الجبال، لا بيع ولا شراء ، ومع قلة السلاح ، ونقص العتاد ، فانهم ثابتون ، يتحملون هجمات لصوص اليهود كل ليلة ، كل ليلة لا كل أسبوع ولا كل شهر • يرابطون ليحموا هذه الارض المقدسة عند المسلمين ، والمقدسة عند النصارى ، ليحموها ويحموكم وأنتم هنا في الشام ويحموا من في لبنان والعراق من غدر اسرائيل ، ولا يطلبون طعاما ولا كسوة بل لقد ثاروا في وجوهنا لما عرضنا ذلك عليهم وقالوا : اننا نريد سلاحا •

تصوروا يا أيها السامعون ، يا من يفتح الرادّ (الراديو) وهو في بيته أمام مائدته بجنب مدفأته ، وحوله أهله وأولاده ، تصوروا لو أنكم لا سمح الله فقدتم ما أنتم فيه من نعمة وأمن ، وصرتم مثلهم هل يبقى عندكم من الايمان ماتقولون معه نريد السلاح لنقاتل أم تلقون بأنفسكم على أقرب مائدة ، أما أنا فلقد سألت نفسي هذا السؤال ، ولا أكذبكم القول ، لقد شككت في نفسي •

ان هؤلاء الناس ، قد يصبرون يوما ويومين وشهرا وشهرين ، ولكنهم لا يصبرون الى الأبد انها ان صبرت قلوبهم التي امتلأت بالايمان، فهل تصبر قلوبهم التي خَلَتْ من الطعام • وان صبرت بطونهم فهل تصبر بطون أطفالهم الذين يهتفون : (بابا جوعانين) ، لقد طالما دفعت هذه الكلمة آباء الى الاجرام ، كلمة (بابا ، جوعانين) •

لقد وقفنا نحن أعضاء المؤتمر ، نحن السبعين رجلا الذين قَدِموا من أطراف دنيا الاسلام من فاس الى الصين الى أندونيسيا ، اي والله منها جميعا ، وقفنا على هذه القرى ، وقمنا في أطلال قِبْية وبكينا واستبكينا بكينا والله حتى سالت الدموع ، وحتى نشجت الصدور ، حين رأينا أنقاض مدرسة قبية التي أسقطها ذئاب اليهود على رؤوس من

كان فيها من الأطفال البرآء فما صرخ منهم أحـد ، وبكينا حين رأينـا صفوف الأطفال في كل قرية تقف متسلسلة في برد الصبـاح ، وشمس الهـاجرة وظلمة العشيّة لتأخذ غَرْفة من حِساء لا يسمن ولا يغني من جـوع •

بكينا حين رأينـا الحارس في قرية أدنة يدع أهله ويهجر فراشـه ويحمل بندقيته وجسده شبه عار وبطنه شبه خـاو وأولاده في الدار بلا عشاء • ثم يردُّ بهذه البندقية العتيقة أحدث سلاح جاء به اللصوص من وراء المحيط وبكينا حين رأينا أهل قلقيلة لما حرمت عليهم بساتينهم وبقي لهم الصخر ، قد حولوا هذا الصخر من جديد الى بساتين ، وبكينا ، بكينا دماً حين قيل لنا أن هذه الجنان انما سلمتها قوى العرب لليهود •

ولكننا بكينا بكاء الانسان لا بكاء النساء ، بكينا لا لنغسل بالدمع جثة أمجادنا بل لنسقي بالدمع تربة نفوسنـا فتثمر بطولات وأمجاداً ، بكينا وعملنا ، أقمنا الحصون في هذه القرى ، وفي القدس ، وجعلنـا فيها رجالا لا يهابون الموت ، ولا تنقصهم خبرة ولا فن ولا استعداد •

وألّفنا اللجان لفلسطين في كل مكان ، وهذا وفد لجنة أندونيسيا يزور الآن دمشق ليرى من قريب ، ويشارك في العمل •

فاسألوا قوم بلفور كم من حق في فلسطين سلب ، سلوا قوم بلفور كم من دم أريق ، سلوهم كم من نفوس أزهقت ، كم من أرواح ذهبت ، كم من ولد أصيب وهو على يد أمه • وكم من أم أصيبت وفم صبيّها على ثديها ، فرضع منها مكان اللبن دما •

سلوا أدعيـاء الديمقراطية ، أكانت فلسطين ملك بلفور ، بالسجل العقـاري قد شَرَاها بماله ، أو ورثها عن أبيه حتـى يتصرّف فيهـا هِبَةً ووعدا •

ولكن لا ، لاتسألوهم ولا تكلموهم ، بل اعتمدوا على ربكم ثم على أنفسكم •

ان أبطال الرياضة يا سادة اذا لم يتدربوا ، قبل أن يدخلوا المباريات المتعبة تذهب قوتهم ، ونحن المسلمين أبطال البشر ، وكلما بعد عهدنا بالتدريب كتب الله علينا دورة تدريبية جديدة ، وكلما انقضت مباراة جاءت مباراة أشد منها .

وهذه احدى المباريات .

ولقد رأينا مصائب أشد ، فان كنتم لا تعرفون التاريخ فاسألوا هذا المنبر الذي أخطبكم من فوقه ، واقرؤوا ما كتب عليه .

لما صنع هذا المنبر كانت القدس في أيدي الصليبيين المستعمرين ، كانت في أيديهم لا من شهر ولا شهرين ، ولا من سنة ولا سنتين ، بل لقد بقيت في أيديهم نحواً من مئة سنة .

مئة سنة لو مرت على غير المسلمين ليئسوا منها ولكن المسلم لا يعرف اليأس ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

في تلك الفترة يا سادة ، وكان البلاء على أشده ، وكانت البلاد على شر حال من الانقسام ، وكان للمسلمين وللصليبيين في سورية احدى عشرة حكومة ، كان السلطان العظيم العادل نور الدين زنكي يفكر في استعادة القدس وكان واثقاً بنصر الله حتى انه صنع لها هذا المنبر في حلب .

ومات قبل أن يضعه في مكانه في الأقصى .

وجاء السلطان العظيم صلاح الدين ، ففتح حلب ، وقام القاضي ابن الزكي يهنئه ويقول :

وفتحكم حلباً بالسيف في رجب   يبشر بفتح القدس في رجب

وكان من تقدير الله يا سادة أن كانت حطين ، وفتحت القدس ، في مثل هذا اليوم يوم سبع وعشرين رجب من سنة ٥٨٣ ونصب المنبر في المسجد الاقصى وخطب عليه ابن الزكي .

فلا تشكّوا في النصر ، فان النصر لكم ان كنتم مع الله ، وان أقمتم دينه ، وان حكّمتم شرعه .

واصنعوا من الآن المنابر ، منبراً للمسجد الكبير الذي سرقه الفرنسيون في مدينة الجزائر ، وعلّقوا في مئذنته الناقوس ، ولمسجد يافا وحيفا ، وللمسجد الذي سيقام في تل أبيب .

أعدّوها من الآن ، فان الله الذي نصر نور الدين وصلاح الدين سينصركم ، ويشد أزركم ، ان الله ينصر من ينصره ، وما النصر الا من عند الله .

في ليلة الاسراء

هذي ليلة الاسراء يا أيهـا السامعون ولكني لا أحدثكم حـديث التـاريخ فانكم تعرفونه ، ومن لم يكن يعـرفه يستطيع أن يفتح كتب السيرة الصحيحة ويقرأه ، انكم جميعا تعرفون قصة الاسراء ، ولكنكم لا تعرفون أن المسجد الأقصى الذي كان مسرى محمد صلى الله عليـه وسلم ، وكان منه معراجه ، لم يعد الحرم الآمن ، ولم يعـد يجد القائم فيه طمأنينة المتعبد وسكون الخاشع ، ولكنه غدا ساحة حرب ، مدافع اليهود مسلطة عليه من فوق الجبل .فكيف يا أيها السامعون والسامعات يستطيع المسلمون أن يحتفلوا بالاسراء ، ومسرى نبيهم وقبلتهم الأولى تُصلى بنار الأعداء ؟

كيف يهدؤون ويهنؤون وصخرة الأقصى قد اشتعلت من حولهـا النار ، كيف يرضى نصارى العرب أن تكون القيـامة ، وبيت لحم التي ولد فيهـا عيسى بن مريم روح الله وكلمته وعبده على مرمى مـدافع اليهود ؟ .

ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون يوما ، تريدون أن تحتفلوا فيه بالاسراء ، فتتلفتون الى المسجد الاقصى ، فترونه قد ذهـب وقام فيه هيـكل سليمان ؟

لا يا سادة ، أنا لا أخشى قوة اليهود ولكن أخشى تخاذل المسلمين، ان اليهود ما أخذوا الذي أخذوه بقوتهم ولكن باهمالنـا ، ان اهمال القوي هو الذي يقوي الضعيف .

وما أخذوا الذي أخذوه بأيديهم ولكن بأيدي من يدفعهم ويحميهم، بأيدي الدول الكبرى التي تتركهم يضربوننا غدرا ومكرا ، فاذا أردنا أن نمدّ أيدينا لرد الضربة أمسكوا بأيدينا كالولد المدلل الذي يمشي وراءه الخادم المسلح ، يضرب الشاب القوي الذي يستطيع أن يخنقه بيد واحدة ، فاذا أراد الشاب أن يدفع عن نفسه لوّح له الخادم ببندقيته .

ونحن ما غُلبنا في فلسطين ، هذه حقيقة أكررها وأعيدها دائما ، ما غلبنا ، أتدرون لماذا ؟ لأننا ما حاربنا ، ما تركونا نحارب ...

ولكن الخادم المسلح لا يبقى دائما واقفا يحمي الولد ، ولا بد أن يأتي يوم نستطيع فيه أن نقوم في الميدان نحن واليهود وجهاً لوجه ، وسيرى الناس يومئذ ماذا يكون ؟

ان هذه الدولة لا يمكن أن تدوم لا يمكن أن يعيش مليون يهودي في أرض مقتطعة من بلاد فيها خمسمئة مليون ، ان مسلمي الأرض قد بلغوا الآن بالاحصاء خمسمئة مليون ، كل واحد منهم يرى من الواجب عليه لربه ولدينه ولأمته أن يعمل شيئاً لطرد اليهود من فلسطين ، والمجنون وحده هو الذي لا يبالي بعداوة خمسمئة مليون ، لأنه لو كان مكانهم خمسمئة مليون قط ، خمسمئة مليون نعجة لاستطاعت أن تكتسح في طريقها دولة اسرائيل ولن تترك هذه الدولة تستريح أبدا ، وسنلقن أولادنا من المهد بغضها والعمل على دفع شرها ، حتى يصير ذلك عقيدة راسخة في كل نفس ، وحقيقة مسلّمة في كل ذهن، فكلما مرت الأيام ، وطال الأمر ، عظم الغضب وكبر الثأر ، وكثر المطالبون ، فلا تحسبوا أن الزمن يحل المشكلة ، كلا بل هو يشدها ويحكمها ، وهي اليوم بذرة في النفوس ، تسقيها عزة المسلم وكرامة العربي وغضبة المظلوم ، ثم تصير نبتة ، ثم تصبح شجرة ، ثم تمسي دوحة ممتدة الجذور باسقة الأغصان ، لا تقوى على اقتلاعها العواصف .

ولن يكون صلح أبداً ، أبدا ، واللســان الذي يتحدث في الصلح يقطع ، واليد التي تمتد للصلح تبتر ، لا صلح أو يعود الحق الى نصابه والوطن الى أصحابه .

ان قضية يؤمن بها ويدافع عنها ألف شخص لا تموت ، فهل تموت قضية فلسطين وقلوب خمسمئة مليون انسان تخفق بذكرها من العرب المسلمين والمسلمين غير العرب والعرب غير المسلمين ، من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، من الصين والملايا الى الجاليات الاسلامية في باريز ولندن ونيويورك وبونس آيرس ؟

ويلقنون قضيتها أبناءهم ، يرضعونها مع لبن الأمهات ويتلقونها مع خبز الآباء ، وألف باء المعلمين .

لقد سُحْتُ في أقطار آسيا كلها ، وألّفت فروعا للمؤتمر الاسلامي في كل بلد فيها . ورأيت كيف كانت تسيل من الحزن الدموع ، وكيف كان يعصف الغضب بالقلوب كلما حدّثتهم حديث فلسطين ، ووصفت لهم حالة المسجد الأقصى ، وهم حين يجدون الجماعة التي يثقون بأمانتها يقدمون أموالهم وما يملكون ، ويقدمون ان دعا داعي الجهاد أرواحهم في سبيل فلسطين ، فهل تشكّون بعد هذا بأن فلسطين ستعود الينا ؟

ستعود حتماً ، فان كنا نحن أهلا لشرف النصر كانت عودتها على أيدينا ، والا أخرج الله من أصلابنا ، من أبنائنا وحفدتنا من هم خير منا فأعادها على أيديهم هم .

يا أيها السامعون والسامعات .

ان روح البطولة لا تذهب من نفوس المسلمين الا اذا ذهبت أرواحهم ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد جعل كل واحد من أمته بطلا على رغم أنفه ، ولقد كنت كلما قلت لكم هــذا الكلام ، عجبتم من حماستي ، فأرتكم الأيام صدق هذا الكلام .

لقد رأيتموه في الأردن ، أفما سمعتم خبر الأردن ؟

لو كان يمكن لشعب عربي مسلم أن يستمريء حياة الدَعَة والأمن والربح في ظل الأجنبي لكان شعب الأردن ، لا لشيء ، بل لأن الانكليز هم أقاموا البلد وهم ربّوا حاكميه . وهم سخروا أقدر رجالهم (من هو أقدر من لورنس) ليسخّر لهم جيشه واستمر ذلك أكثر من ثلث قرن ، وحسبوا أنه قد صفا لهم هذا البلد .

فماذا كانت النتيجة ؟

وثب شعب الأردن وثبته ، عمل فيها ما لم يعمله قطر عربي ، لقد شارك موظفوه المضربين واستقالوا من وظائفهم ، وهذا شيء جديد في تاريخ الوثبات العربية .

ثم صنع هذا الصنيع الذي شدِهَ له الشرق والغرب ، وصفق له كل عربي ، وكل مسلم ، على اختلاف النزعات والأهواء : لقد طرد كلوب .

هذا الصنيع الذي أجدني عاجزا عن التعليق عليه التعليق الذي يستحقه ، لأنه أكبر في الحقيقة من كل تعليق .

وللملك الآخر محمد بن يوسف ، لمن آثر العظمة الحقيقية عظمة الجهاد على عظمة الملك ، وآثر تقدير الشعوب على متَع السلطان .

ولهؤلاء الزعماء الشعبيين الذين هم اليوم الرؤساء الرسميون .

انها لنعمة أن يكون على رأس الدولة الرجل الذي كان على رأس المجاهدين أيام الجهاد للاستقلال .

نعمة لا يعرف قدرها الا من عاش أيام الانتداب ، ورأى على سدّة الحكم رجالا لا هم منا ولا نحن منهم ، ولا يجمعنا فكر ولا مبدأ ، ولم تضمنا يوما ساحة نضال .

يا أيها الناس استعدوا وأعدوا للعدو ما استطعتم من قوة ، وكونوا

أبدا على حذر ، ولكن لا تيأسوا ولا تتشاءموا ، فاننا ماشون الى الأمام .

تعالوا راجعوا اليوم حسابكم كما يراجع التاجر حسابه ، تروا ما كسبناه في هذه السنوات العشر الأواخر لقد قامت للاسلام دولتان في كل واحدة ثمانون مليوناً : باكستان وأندونيسيا ، واستقلت سورية وأخرج الله العدو منها ، وقد كان يملك كل شيء فيها ، واستيقظت الأردن ، وثارت مصر على فاروق ، وبدا فجر الاستقلال في المغرب ، واستقلت ليبيا والسودان ، وبدأت الدول العربية تكسر قيود السياسة وتعمل حرة ، تأخذ ما تريد من الشرق ومن الغرب .

وهذا كله من أسرار الاسلام .

الاسلام الذي لا يموت أبدا ، وكلما حسبوا أنهم قتلوه بسموم الدسائس والبدع والمذاهب الباطلة ، أو حطّموه بفؤوس القوة والسلطان ، نظروا فاذا هو قد انتفض فعاد أقوى مما كان .

هذه تركيا ، لا يزال شعبها بعد ثلث قرن ، من حياة في الكفر والالحاد ، أرادوها له وربّوا عليها أبناءه ، لا يزال الشعب المسلم المتمسك ، وهذه الجزائر بعد قرن وثلث في الاستعمار لم يدّخروا فيها جهدا ، ولا ضنّوا بمال ، لتكون قطرا افرنسيا ، انها لا تزال البلد المسلم المتليء بالبطولات والمكارم .

ان هذه البلاد الاسلامية كلها ، تنسى اذا ذكرت فلسطين قضاياها لأن قضية فلسطين هي القضية الأولى لكل قطر مسلم .

انها قضية القبلة الاسلامية الأولى ، والحرم الاسلامي الثالث ، ومسرى محمد .

فيا أيها السامعون .

اقسموا ، اقسموا الليلة ، ليلة اسـراء محمد ، وأيديكم مغموسة بدماء الشهداء الذين سقطوا صرعى الدفاع عن المسجد الأقصى ، والأطفال الذين ذبحهم اليهود ظلما وغدرا في دير ياسين ، والحوامل اللواتي بقروا بطونهن في قبية ونحالين ، وتاريخ الأمجاد المسلمة ، وذكرى المعارك التي خاضها الأجداد ، اقسموا وأيديكم على القرآن ، انكم ستعملون أبدا لاسترداد فلسطين ، وأنكم لن تنسـوا أبدا قضية فلسطين ، وأنكم لن تصالحوا ولن تَدَعوا أحدا أبدا يصالح الغاصبين في فلسطين .



لاتنسوا فلسطين

سامحوني اذا أنا لم أفِ اليــوم بوعدي ، وأتمم كلامي عن رحلة المشرق فان الكلام عنها للعلمِ والمتعة والاطلاع . وما جئت أحدثكم به اليوم للدين والقومية والشرف والحياة ، فهو حديث جدّ لاحديث هزل .

لقد سمعت كمــا سمعتم نبأ ما صنع اليهود في سيناء ورفح ، خبر الخمسمئة الذين صرعهم اليهود ولم يدرِ أحــد ما خبرهم حتى وجدوا جثثهم ممدّدة على ثرى الوطن الذي استلبه اليهــود بحراب الانكليز والفرنسيين ، خمسمئة جثة هامدة تنطق لو كان لها لسان ، تستصرخ في نفوس العرب نخوة العرب ، وتبعث في نفوس المسلمين عزة المسلمين ، وتستثير في قلوب البشر عاطفة البشر ، خمسمئة جثة هامدة كانت بالأمس ممتلئة حياة وعزماً وأملا فصارت كومة من اللحم والعظم ، خمسمئة جثة كم خلّفت وراءها من أمهــات ثاكلات ، ومن زوجات مفجوعات ، ومن صبية وبنــات ، كم تركت من قلوب مصدّعات ، ودموع مسفوحات ، وبيوت مخرّبات ، وما أودى بها اليهود ، وما كان اليهود ليقدروا على هذا الجرم ولا كان اليهود ليستطيعوا ارتكاب شيء مما ارتكبوا من قبل ، لولا من ساعدهم وأيدهم وأعطاهم السلاح ، وسلّطهم علينــا حتى اذا سلبونا أرضنا ، وذبحوا رجالنا ، وَعَدوا على نسائنا وفعلوا بنا خلسة وغدرا الأفاعيل ، وأردنا أن ندفع عن أنفسنا الدفاع المشروع ، أن نمنع القتل عنا وعن أهلينا ، أن نردّ بالمثل ، قالوا : قفوا لا تصنعوا شيئاً .

والا فمتى كان اليهودي يطمع أن يعتــدي على العربي ؟ هــذا هو التاريخ من ألفي سنة الى اليوم ، فانظروا هل التقى عربي ويهودي الا

كانت العزة للعربي والذل والمسكنة لليهودي ، وهل كان من العرب لهم الا النبل والشرف والوفاء ، وهل كان من اليهود الا الغدر والنذالة واللؤم، فهل تغيرت طبائع اليهود ؟ وهل استبدلوا بجلودهم جلوداً جديدة ، وبقلوبهم قلوباً أخرى ؟ فصاروا في آخر الزمان أهل الشجاعة والاقدام ؟ وصار لهم النصر علينا ؟ لا ولكنها انكلترا وفرنسا وأمريكا ، وهاتيك الدول .

اننا لم نُغلب في فلسطين ، انما غلبت فينا خلائق الثقة بالأعداء ، والاصغاء لهم ، والاسترشاد برأيهم حتى منعونا أو منعوا جيوشاً من جيوشنا العربية من أن تقاتل ، ثم دفعونا دفعاً الى هذه الهدنة ، على أيدي رجال هم منا ولكنهم شرٌ علينا من المستعمر ، لأن المستعمر عدو سافر وهؤلاء أعداء مقنّعون . على أيدي رجال شبّوا وشابوا على الولاء للمستعمر ، يوالونه أكثر مما يوالي المؤمن ربه ، ويُخلصون له أكثر من اخلاص المصلّي لمولاه ، يكونون نعاجاً بين يديه ، فاذا خرجوا على شعوبهم لبسوا فوق النعجة جلدة الأسد ، رجال من أمثال نوري السعيد لا أكثر الله فينا من أمثاله ، هؤلاء هم الذين جعلونا نُغلب في فلسطين ، وما غَلَبَنا اليهود ، يجب أن يفهم كل عربي يسمع حديثي أن الذين غلبونا ليسوا اليهود بل الانكليز والاميركان ، وما غلبونا في ساحة المعركة المكشوفة ، بل بالدسّ والكيد واستغلال رجال هم خائنون لنا ، ونحن مع ذلك نوليهم علينا ، ونُحكمهم فينا ، هذه حقيقة يجب أن يفهمها كل رجل وكل امرأة وكل طفل ، وأن يعلّمها المعلمون تلاميذهم في دروس التاريخ ، وأن يعلموهم معها أننا نستطيع أن نطرد اليهود في كل وقت ، اذا تركتنا هذه الدول نعمل ، اذا تركونا نستعمل حقنا المشروع في الدفاع عن أنفسنا ، اننا نستطيع اذا صَدَقنا العزم أن نطردهم على رغم هؤلاء الكبار بل نستطيع أن نحارب الدول الكبار نفسها ، وهذا

دليلي قائماً ، هذا الدليل المشهود في بور سعيد ، أما ردّت هذه البلدة الواحدة الصغيرة انكلترا وفرنسا تنبح معهما كلاب الأرض اليهود ؟

أتعرفون لِمَ ظفرت بور سعيد ؟

لأنها طبّقت الحكم الشرعي الذي كان معطّلا تطبيقه من قرون ، فهل تعرفون ما هذا الحكم ؟

هو أنه اذا احتلّ العدو بلداً من بلاد المسلمين صار القتال فرض عين ، كفرض الصلاة على الرجل والمرأة والكبير والصغير ، فالمقاومة الشعبية التي تحسبون أنها جديدة ، هي حكم الاسلام من نحو أربعة عشر قرنا .

أما قلت لكم أن الاسلام فيه كل شيء ؟

* * *

لا لم يغلبنا اليهود ، ولا يمكن أن يغلبنا اليهود ، وليس معنى هذا أن ننام ونترك الأبواب مفتّحة . لا . يجب أن نبقى ساهرين مستعدين ، ولكن على ألاّ نبالغ في تقدير قوة اليهود ، ان الذي يتهاون بعدوه ويحتقره فلا يتهيأ له يُغلب ، والذي يبالغ في الحذر والهيبة والخوف ينقطع قلبه فيُغلب ، وأنا أعرف اليهود وقوة اليهود ، ولدي وثائق وأرقام تؤكد أن ما يشيعونه عن استعدادهم وسلاحهم ثلاثة أرباعه مبالغات وأوهام ولكن خصمنا الحقيقي هؤلاء الذين يَغُلّون أيدينا ، ويمسكون بنا حتى تتلقى ضربات اليهود ولا ندافع عن أنفسنا .

هؤلاء الذين أقاموا القيامة من سنين ونادوا بالويل والثبور ، ونشروا الصور بالمجلات والسينمات ليُروا العالم كيف انتهكت حرمات الانسانية في كوريا ، وكيف ذبح (كما قالوا) الأبرياء والنساء ، ومن قبل زلزلوا الأرض شفقة على اليهود الذين أصابهم كما زعموا بلاء النازيين ، فما بالهم قد خرسوا فلا ينطقون ؟ ما بال تلك العيون التي بكت في كوريا وفي المانيا من قبل بدموع التماسيح لا تبصر ما يجري

اليوم في غزة والعريش وسيناء ، ولا تبصر ما يصنع الفرنسيون في الجزائر ، وما يأتي الانكليز في اليمن وعمان والبريمي والبحرين ؟

لماذا يصير الحق باطلاً ان كان في يدنا ؟

لماذا تصير الجريمة مَكرُمة وعدلاً ان كانت علينا ؟

لماذا تصير السيئات حسنات ان كانت السيئة الينا ؟

أين حقوق الانسان التي أعلنوها ؟ أين الوعود التي كانوا قطعوها على أنفسهم في الحرب العامة الماضية ، لما كانوا يقيمون الحجج الواهية على (هتلر) و (موسوليني) لعنة الله على موسوليني ؟ أين ميثاق الاطلنطي ؟ أم هم قد كتبوه على ماء الاطلنطي فلما ماج البحر محا ما كتبوا ؟

ماذا يريد منا هؤلاء ؟ والى متى يظنون أننا نستطيع أن نصبر ؟ الى متى نصبر ونحن نرى بلادنا في أيدي عدونا ؟ ونرى رجالنا مصرعين على أرضنا ، ونرى معابدنا قد غَدَتْ مثابة الفجور ؟ ومقابر أجدادنا أضحت ملاعب الخيل ؟

الى متى نصبر ؟

يا أيها العرب ، لا أمل لنا في أحد ، الا في أنفسنا ، يا أيها العرب ، ان الحق ما قال فارس الخوري ان مشكلة فلسطين لا تحلُّ في أروقة مجلس الامن ، ولكن على ثرى فلسطين .

يا أيها السامعون : أمامي الآن عدد من جريدة ألف باء منذ نحو ربع قرن ، فيه مقالة لي ، أنبه فيها وأوقظ وأسأل العرب كيف يستمرئون لذيذ الطعام ، وكيف يستسيغون عَذْب الشراب وكيف ينامون على لين الفراش ، وفلسطين على فم البركان ، وفلسطين على شفير الضياع .

وهأنذا اليوم أعود فأسأل العرب .

يا أيها العرب ، اني لا أخشى شيئا كما أخشى أن تنسوا قضية فلسطين ، ولن تنسوها ان شاء الله .

أخاف أن يطول الأمد وتتعودوا احتمال الواقع لذلك أرجو أن يكون من برنامج كل أسرة تقدر على السفر أن تشدّ الرحال أسبوعا في السنة الى فلسطين ، الى القدس الى القرى الأمامية .

هذا شهر رجب قد اقترب ، وهو شهر الاسراء ، فاذهبوا الى القدس ، اذهبوا الى القدس لتروا كيف سلبتنا هذه الدول القوية منازلنا في القدس الجديدة لتعطيها اليهود ، لتروا كيف لم يبق لنا الا القدس القديمة التي لا تمشي في أسواقها السيارة ، لتروا كيف نعيش الى جنب اليهود لا يفصل بيننا وبينهم الا عرض الشارع ، لتروا كيف أبقوا لهم مركزين في وسط البقعة العربية ، وكيف كانت جنود العرب على عهد كلوب ، تحرس اليهود ليأتوا بالزاد ليتقووا به علينا والعتاد ليضربونا به ، لتروا كيف يقوم المصلّون في ساحة الحرم ، وهم تحت رحمة اليهود المسلّطة نيرانهم عليهم من الجبل .

اذهبوا الى القدس فان الوصف لا يداني الحقيقة ، وليس الخبر كالعيان ، ولقد استحلفت الأحزاب الأندونيسية لما كنت هناك أن تبعث من يزور القدس ، فبعثت وفداً قطع في الذهاب والاياب أكثر من خمسة وعشرين ألف كيلومتر حتى زارها ، أفلا تزورونها وهي الى جنبكم .

أستحلفكم بالله أن تزوروا القدس .

وأن تذهبوا الى القرى الأمامية ، لتروا ما تتفطّر منه قلوب الحجر وما تقطر منه عيون الجلاميد .

اذهبوا الى قلقيلية لتروا كيف بقيت القرية على الصخر ، وأعطيت بساتينها لليهود .

ومع ذلك فقد حوّلوا الصخر الباقي لهم الى حدائق وبساتين .

واذهبوا الى قِبْية لتروا المدرسة التي ضربها اليهود بقنابل الانكليز والاميركان فأسقطوها على من فيها فقضى التلاميذ ومعلمهم ، ولا تزال

آثار دمائهم على أنقاض الجدران ، ولا تزال قلوب آبائهم وأمهاتهم تشققها الأحزان .

اذهبوا لتروا بأعينكم فليس الوصف كالعيان .

ولكن لا تيأسوا ، لا تيأسوا برغم هذا كله ، فان المستقبل لنا وسنسترد فلسطين، سنستردها، والله الذي لا اله الا هو ، كمااستردناها من قبل ، ممن كانوا أقوى وكانوا أغنى ، وكانوا أكثر ، من الصليبيين ، استرددنا القدس بعدما بقيت في أيديهم نحواً من مئة سنة .

ونحن اليوم خير منا يوم كانت معركة فلسطين ونحن غداً خير منا اليوم ان شاء الله ، والعاقبة باذن الله لنا بشرط أن تذكروا دائما قضية فلسطين ، وأن تصغوا دائما الى نداء المسجد الأقصى الحرم الثالث في الاسلام ، والذي كان مسرى محمد ، وكان منه معراجه ، ونداء دير ياسين وقِبْيَة ، ونداء الأيامى واليتامى والثاكلات ، ونداء الخمسمئة الذين صرعوا بالأمس غدراً ولؤماً على أرض سيناء ، ونداء الشهداء واللاجئين المشرّدين ، الى نداء العروبة الى نداء الاسلام الى نداء الشرف ، الى نداء الانسانية التي تهتف بكم في الأصباح والأماسي ، وفي الضَحَوات والأصائل ، وفي كل ساعة وكل لحظة ، أن أنقذوا فلسطين .

اسبوع التسلح وفلسطين

أذيعت سنة ١٩٥٥

الحديث اليوم عن أسبوع التسلح ، ولست أحدثكم فيه استرضاء للجنة العليا القائمة ولا لأن الموجّه له المعنى به فخامه الرئيس ، بل لأني معتقد بأن العمل له ، والمشاركة فيه ، واجب شرعي وعقلي ووطني ، يدعو الديّن الى ذلك دينه ، والعاقل عقله ، والوطني وطنيته ، ولولا ذلك ما قلت فيه كلمة ، وأنتم تعرفونني ، وتسمعون لي من خمس عشرة سنة ، وتقرؤون لي من ثلاثين سنة ، فهل وجدتموني بعت قلمي يوماً لأحد أو دفعتني منفعة أرجوها ، أو مضرة أخشاها ، الى أن أقول بلساني ما لا يؤمن به قلبي ؟

ولست أقول هذا تمدُّحاً وفخراً ، بل لأحملكم على تصديق ما أقول لكم اليوم .

وماذا أقول لكم ؟

وهل ترونني احتاج أن أوضح الواضحات ، وأقنعكم بوجود الشمس في رابعة النهار ، وأثبت لكم أن العمل على التسلح ضروري لازم ؟

وهل في هذا البلد كله ، هل في بلاد العرب ، هل في ديار المسلمين جميعاً رجل واحد يشكُّ في هذه الحقيقة الظاهرة التي يراها كل من في وجهه عينان ، وهي أن سلاح الخطب والتصريحات والبيانات والشكاوى لم يعد يفيد ولا يجدي ، وان اللغة الوحيدة التي تفهم بها اسرائيل ، هي لغة المدفع وأننا عرفنا الآن كيف نكلم اسرائيل بهذا اللسان .

وان هذا هو أول قرار تتخذه الحكومة ، فيقول لها الشعب صدقتِ ، ونحن معك ، هذا هو القرار الذي يترجم عن أفكار الناس جميعاً ، ويعبر عن آرائهم جميعاً ، من رجل السوق الى موظف الديوان الى تلميذ المدرسة ، الى عامل المعمل وفلاح الحقل ...

لقد استطعت الآن أن أرفع رأسي ، الذي طالما أحناه الخجل ، في هذه السنين السبع الماضيات ، الخجل من ديننا الذي يأمرنا أن نُعدَّ للعدو ما نستطيع من القوة ، من الحديد والبارود والطيارات والدبابات ، فأعددنا كلاماً حرّكنا به المنابر وزلزلنا به الصحف وهززنا به أسلاك البرق ، الخجل من سلائق العروبة ، أن تدنسها بالعار أخلاق الهزيمة ، الخجل من الله أن يرانا نبتعد نحن عن قتال كلاب يهود ، بعدما قاتل أجدادنا الامبراطوريتين اللتين ورثتا العالم كله : فارس والروم ، لا نقاتلهم في قلب بلادنا مدافعين عنها وقد قاتل أجدادنا فاتحين في أقصى الارض ؟ قصّرنا وأهملنا فكانت النتيجة هي التي ترونها في القدس والقرى الأمامية ، هل تدرون ما حديث القرى الأمامية ؟

لقد وقفتُ في قلقيلية ، فاذا البلد على صخرة مُقفرة ، وبساتينها أمامها يضحك فيها النبْت ، وترقص الأشجار ، وتغنّي السواقي ، أما البلد فبقيت للعرب ، أما البساتين فأعطيت لليهود .

ولقد كان أهل قلقيلية يقفون معنا ، لما كنا في المؤتمر وذهبنا نزورها ، ويشيرون بأيديهم الى الشجرة ، أترون هذه الشجرة ، لقد زرعتُها بيدي في أرضي ، وتعهّدتها وسقيتها فلما كبرت وأثمرت ، أكل ثمرها اليهود .

أترون هذه الساقية لقد شققتها وأجريتها فلما سال ماؤها عذباً سائغاً شربه اليهود .

وبيوتنا التي عمّرناها بأيدينا ، أقام فيها اليهود وفُرشنا التي فرشها

لنا نساؤنا ، نام عليها اليهود .

وفي كل شبر من فلسطين بقعة حمراء من أثر الدم الزكي دم الشهداء الذين سقطوا صرعى دفاعاً عن بيوتهم وقريتهم ، وعن شرفهم وعن دينهم، ودم النساء والأطفال الذين ذبحهم اليهود .

لقد وقفنا في (قبيَة) على أنقاض المدرسة التي ضربها اليهود بالقنابل ، من سنتين ، فمات المعلم والتلاميذ ، ونبشنا الأنقاض ، ورأينا هيكل طفل صغير ، يشير بيد من عظم ، يفتش في الأرض عن عربي ، من الثمانين مليوناً ، عن مسلم من الخمسمئة مليون ، ينقذه من هذه الحفنة من شذاذ الآفاق فلم يجد ..

لم يوجد يومئذ ولكنه وجد الآن ، الآن وجد من سينتقم لتلميذ مدرسة قبيَة ، من سيثأر للحبالى اللائي بقر بطونهن اليهود ، للنساء اللائي قطع أثداءهن اليهود ، للأطفال اللائي ذبحهن اليهود على أعين أمهاتهن ، لقبية ودير ياسين ، للمسجد الأقصى الذي ضربه اليهود بالبارود والنار ، وأراقوا على ثراه دم الأبرياء من المصلين ، للكرامة العربية ، ولعزة الاسلام .

فهل في السامعين من يشك ، أو يتردد ، أو يحتاج الى أن أرغّبه في البذل لأسبوع التسلح ، هل فيهم من يحتاج الى أن أثير في نفسه الحماسة، أو أوقظ فيها الايمان ، هل فيهم من يحتاج أن ابين له أن ما يدفعه الآن هو الذي يبقى له يوم القيامة ؟

وأنه بهذا العطاء سيكون من المجاهدين ، لان الجهاد درجات ، جهاد باللسان وجهاد بالمال ، وجهاد بالنفس .

هل أحتاج أن أقول لكم أن الأمة التي تكون مثلنا مهددة بالعدو الغادر ، الجاثم على أبوابها ، ولا تبذل من مالها القليل للتسلح، والاستعداد تذهب بذلك القليل والكثير ، فأعطوا من أرباحكم ، قبل أن يذهب الربح

ورأس المال ، أعطوا من أجور أملاككم قبل أن تخرج من أيديكم هذه الأملاك ، أعطوا من ثمرات أرضكم ، قبل أن تخسروا الأرض والثمرات، أعطوا من رواتبكم قبل أن تبقوا بلا رواتب ، أعطوا من وفر ما تتخلّون عنه من الكماليّات ، فان من لا يستغني عن الكماليات في مثل هذا المقام يضطر أن يستغني يوما عن الضروريات ، من كان عنده عرس فليدفع ثمن علب السكاكر ِ للجان التسلح ويعلن ذلك للمدعوين ، يشكره الناس ويكن قدوة لهم في الخير ، ومن كان لديه مأتم فليترك الآس والحنّاء وحفلات الثلاثة الأيام والأربعين ، وهاتيك البدع التي لا يرضاها الشرع وليدفع تكاليف ذلك للجان التسلح وليعلن ذلك للناس ، ومن كان يريد أن يشتري ثوباً أو تحفة أو صورة ، فليدعها وليدفع ذلك للجنة التسلح، وليجعل لـ(الوصل) اطاراً ويعلقه في غرفة الاستقبال مكان الصورة أو التحفة وليثق أنه يكون أجمل من كل صورة فنية ، ومن كان يذهب الى السينما ثلاث مرات في الاسبوع فليذهب مرتين وليدفع اجرة الثالثة الى لجان التسلح ، وكل ما يمكن الاستغناء عنه فلنستغن عنه لنجعل ثمنه سلاحا ندافع به عن بلادنا ونسترجع به أرضنا من عدونا .

ويستمر ذلك دائما لا أسبوعاً واحداً لأن الكماليات لا مكان لها في بلد مهدّد بالعدو الجاثم على الأبواب .

ان من حق الرجل أن يستريح في بيته ، ويستمتع بعد انتهاء عمله ويستلقي ويأخذ جريدته ودخينته وقهوته ، ولكن ان شبّت النار في الدار لا يبقى للمتعة والراحة مجال ، كلا ، ولا للطعام ولا للمنام ، ان الطعام والماء من الضروريات ولكن في حالة الخطر تترك الضروريات فكيف بالكماليات، ان أهل فلسطين اضطروا الى الدفاع عن أنفسهم ، كلٌ يدافع بسلاحه عن بيته وحريمه وأولاده ، فاحمدوا الله أنتم ، على أنّ لكم جيشاً يدافع عنكم ، ولا يدع العدوّ يصل الى أبواب بيوتكم ، حتى

يدافع كلٌ عن نفسه ، أو يهرب تاركاً ماله وأثاثه ، ولا يريد منكم هذا الجيش الا قليلا من المال ، قليلاً لا يزعجكم ولا يبقيكم دفعه بلا طعام ، فاذا شحَّت نفوسكم ، وغلب عليكم حب المال ، وحب المال فطرة في النفوس ، فاذكروا الآن اخوانكم أهل فلسطين ، من كان أكثر مالا ، فخرج على وجهه لا يملك شيئاً ، أفليس خيراً لكم أن تعطوا القليل ، ليبقى لكم الكثير ، من أن لا تعطوا شيئاً ولا يبقى لكم شيء ، وانووا عند العطاء رضا الله ، لا التفاخر والظهور ، ولا رضا الحكام وثناء الناس ، قولوا : هذا ندفعه يارب ابتغاء وجهك فاخلُفه علينا واكتبنا به مع المجاهدين بأموالهم في سبيلك .

يا أيها السامعون والسامعات من أهل الشام ، ان أرواح الشهداء تناديكم من كل بقعة في فلسطين ، والدماء تصرخ بكم ، وصخرة الأقصى ، وأمجاد الماضي ، والعروبة والاسلام ، والقرآن يهتف بكم :

(ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

صدق الله العظيم



في افتتاح اسبوع التسلح

يا سيدي صاحب الفخامة . يا أيها السادة والسيدات :

أنا أمتطي صهوات هذه المنابر ، وأقارع الفرسان في حلبات البيان ، من ثلاثين سنة الى الآن ، فلم تَحرن عليّ هذه الأعواد ، ولم تتعسَّر عليّ الخطب الا هذه العشيَّة ، لا لأن الأحاديث الأربعة التي ألقيتها في (التسلح) قد استنفدت كل ما لديّ من صور وأفكار ، بل لأن سلاح الخطيب الحماسة التي يهزّ بها أوتار القلوب ، والعاطفة التي يستدرّ بها دموع العيون ، وأنا أنزل الليلة الى الميدان بلا سلاح ، والخطيب يُسكر السامعين بخمرة البلاغة ، ويجيئهم وقد أذهب السكر قواهم فيُدعون فيلبُّون ، وأنا أواجه الليلة سامعين صاحين لم تلعب بألبابهم نشوة البيان ، ومالي وللخيال ؟ ومالي وللشعر ؟ وعندي من الحقائق الواقعة مايغني عن حَوك الاساطير .

ذهبت سنة ست وأربعين الى مصر ، وكان الطريق على فلسطين ، فأقمت فيها عشرة أيام ، وكان لي فيها أصدقاء من الوطنيين العاملين ، فلمتهم على قعودهم وقيام اليهود ، على قعودهم واهمالهم جمع المال وشراء السلاح ، فقالوا ان الأيدي منقبضة والنفوس شحيحة ، قلت : لا ، بل أنتم المقصّرون ، قالوا هذا تاجر من أغنى التجار ، فهلمّ بنا اليه تنظر ماذا نأخذ منه .

وذهبت معهم اليه في مخزن كبير حافل بالشارين ، وحوله ولدان له شابّان يتفجران صحة ورجولة وجمالا . وكلّمناه . وحشدت كل ماأقدر عليه من شواهد الدين ، وأدلة المنطق ، ومثيرات الشعور ، فاذا كل

ما قلت كنفخة وانية على صخرة راسية ، ما أحسَّت بها فضلاً عن أن ترتجّ منها .

وقال : أنا لا أقصر ، أعرف واجبي ، وأدفع كل مرة الذي أقدرعليه.

قلت : وهل أعطيت مثل الذي يعطي تجار اليهود ؟

قال : وهل تمثلني باليهود ؟

قلت : وهل أعطيت مالك كله ؟

فشدِهَ وفتح عينيه ، وظنّ أن الذي يخاطبه مجنون ، وقال : مالي كله ؟ ولماذا أعطي مالي كله ؟

قلت : ان أبا بكر لما سئل التبرع للتسلح أعطى ماله كله .

قال : ذاك أبو بكر ، وأنا مثل أبي بكر ؟

قلت : عمر أعطى نصف ماله ، وعثمان جهز ألف ...

قال : يا أخي ، أولئك صحابة رسول الله ، الله يرضى عنهم ، أين نحن منهم ؟

قلت : ألا ترى أن البلاد في خطر ، وأننا اذا لم نعط القليل ذهب القليل والكثير .

قال : يا ابني الله يرضى عليك ، اتركني بحالي ، أنا رجل بيّاع شرّاء لا أفهم في السياسة وليس لي بها علاقة ، وهذا مالي حصّلته بعرق جبيني، وكدّ يميني ما سرقته سرقة ، فهل تريد أن أدفعه وأبقى أنا وأولادي وأحفادي بلا شيء ؟

قلت : ما نطلب مالك كله ، ولكن نطلب عُشره

قال : دفعت ما عليّ ، ما قصّرت .

يا سادة ، هذه حادثة أرويها لكم كما وقعت ، ولو كان يجوز لي لعيّنت البلد والتاجر ، ولولا أن قرأت في جريدة من الجرائد اشارة الى قصة مثلها ما عرضت لها .

ومرّت سبع سنوات

وذهبت من سنتين الى المؤتمر الاسلامي في القدس ، ومررنـا في الطريق بمخيم للاجئين ، وأقبل الناس يسلّمون علينا ، واذا أنـا بشيخ أبيض اللحية ، محنيّ الظهر ، غائر الصدغين ، رثّ الثياب ، أحسست لما التقت العينان ، كأن قد برقت عيناه برقة خاطفة، وكاد يفتح فمه بالتحية، ثم تماسك وأغضى، وارتبك كأنه يريد الفرار، فلما انتهى السلام راغ مني ودخل في غمار الناس ، ولبثت أفكر فيه من هو ، وأين قابلته ، فما لبثت أن ذكرت وتكشّف لي المنسي فجأة كأني كنت في غرفة مظلمة سطـع فيها النور .

انه هو ، هو يا سادة .

وكلّمته فتجاهلني ، فلما ألححت عليه اعترف ، ولم أشمت بـه ، ومعاذ الله ، أن يراني انحدرت الى هذا الدرك ، ولم أزعجه بلوم أو عتاب، ولكن كان في نظرتي ما يوحي بالكلام ، لذلك استبقني فقال :

ــ لا تقل شيئاً ، هذا هو المقدر ، ولو كان لله ارادة لألهمني ، وألهم اخواني التجار النزول عن نصف ما كنا نملك .

ــ قلت : أو لم يبق لك شيء ؟

فابتسم ابتسامة يقطر من حواشيها الدمع ، وقال :

ــ بلى ، بقي الكثير ، بقيت الصحة والثقة بالله ، وبقي هؤلاء وأشار الى امرأة عجوز وطفل صغير .

ــ قلت : لا تيأس من رحمة الله .

ــ قال : الحمد لله أن جعلنا عبرة ، ولكن أرجو أن يكون اخواننـا في الشام ومصر والأردن قد اعتبروا بنا .

وأرفعت النظر الى الطفل، فقالت له العجوز :

ــ رُح قبّل يده .

فجاء ، وجسده المحمر من البرد ، يبدو من شقوق الثوب ، كزر من الورد ، أخـذت تتفتح عنه الأكمام ، كان بثوب رقيق ممزّق ، وأنا في المعطف الثقيل والعباءة من فوقـه ، وأحسُّ البرد يقرص عظامي ... وأحسست بقلبي يتمزق كتمزق هذه الأسمال ، ولم يكن معي ما أساعده به ، كانت العين بصيرة واليد قصيرة ، فقلت ، فليسعد النطق ان لم تسعد الحال ، ورحت أكلمه ، فلم أجد الا أن قلت له : أتحب بابا ؟ أحسب أن الشيخ أبوه .

قالت العجوز : قل له (بابا في الجنة)

قال : (بابا في الجنة) ، أعاد لهجتها كأنه ببّغاء ليس يدري ما يقول، فسكتُّ حائراً ملتاعاً .

قال : عمّو . ذبحوه لبابا ، نزّلوا له الدم ، ليش ما بحبوه لبابا ، أنا بحبو شو عمل لهم بابا ؟

يقول : ذبحوا بابا ، وأنزلوا له الدم ، لماذا لا يحبون بابا ؟ أنا أحب بابا .

قال : أنا أوفر ، لأشتري سكينَ أذبح اليهود اللي ذبحوا بابا .

وسكت اللسان ونطقت العيون ، لقد بكيت وبكى الحاضرون جميعا، ومشيت وأنا لا أبصر من الدموع طريقي .

وبقيت سنتين وأنا أفكر في ذلك الشيخ ، وفي ذلك الغلام وأسائل نفسي هل اعتبر التجار والأغنياء حقيقة ؟

ان الطفل قد هدَتْه فطرته الى التفكير في توفير الفلوس القليلة التي قد تقع في يده ، ليشتري سكينا ينتقم به[1] لأبيه . فهل هدَتنا عقولنا الى شراء السلاح ، لنثأر بـه للوطن المسلوب ، والعِرْض المستباح ، والدم المهراق ؟

لقد كنت أرانا نتلقّى بوجوهنا ضربـات اليهود ، فلا نملك الا أن

---

(١) (السكين مذكّر ومؤنث) .

نذهب الى مجلس الأمن ، كما يذهب الولد المدلل الرقيق ، الى المعلم ، ليقـــول :

ـ أستاذ ، هذا ضربني ...

ويكون المعلم مشغولاً عنه ، فيصرفه بحركة من يده ، ويقول :

ـ اذهب ، أنا سأضربه .

نحن العرب ، نحن المسلمين ، نحن أبناء من فتحوا الدنيـا ، نحن سلائل الأبطال الأماجيد ، نمشي الى مجلس الأمن .

يا مجلس الأمن ، ان اليهود اعتدوا علينا ، وأطلقوا النار علينـا ، ويبحث مجلس الأمن ، ويناقش ، ثم اذا أدرنا ظهورنا وانصرفنا ، مدّوا ألسنتهم لنا .

فأحني رأسي حياء ، وأفتش عن قبر أواري فيه وجهي ، ثم أرتدحياء من رُفات الجدود ، أن تطلع عليّ من جوانب القبر . وكنت أتحرّق ، وأقول ، متى نذكر رجولتنا ، متى نستعد للمعركة الحمراء ، بالحديـد والنار ، متى نثبت للدنيا أننا لا نزال أبناء المعامع ، وفرسان الحروب .

متى نقف على أرجلنا ، ونعتمد بعد الله على أنفسنا ، ونعلـم أنـه لا ينفعنا الا السلاح ، وكنت أخاف أن أموت قبل أن أرى ذلك اليوم ، فرأيت هذا اليوم ، هذا اليوم السعيد ، هذا العيد المجيد ، عيد يقظـة العرب .

اليوم استيقظ العرب حقاً ، وفارقت عيونهم آخر بقيـة للنعاس ، اليوم كتبنا السطر الاول ، في تاريخ امجادنا الحديث .

اليوم استبشر الكبير والصغير ، والغني والفقير ، والمالك والأجير ، وأجمعت الأمة كلها برجالها ونسائها على تأييد أسبوع التسلح .

ان في المصائب ماهو أكبر من مصيبتنا في فلسطين ، هل تعرفون ماهو؟ هو أن تجهلوا أقداركم ، وتحقروا نفوسكم ، وتجهلوا مكانكم تحت الشمس .

ان لكل أمة يوم عز ، تستفرغ فيه قوتها ، وتستنفد طاقتها ، ثم تعود الى خمولها ، لقد حكمت اسبانيا أوربا كلها يوماً من الأيام ثم نامت ، وبسطت البرتغال سلطانها على أقاصي البحار ثم غفلت ، وركزت فرنسا رايتها على عهد نابليون على كل راية في القارة ، وسارت اليونان يوماً تحت راية الاسكندر الى حدود الصين ، واجتاح المغول الأرض يقودهم جنكيز ثم تيمور .

لكل أمة يوم واحد ثم تنام الا هذه الأمة ، أمة محمد .

انها يا سادة بِدْعٌ في الأمم .

ما فقدت قطُّ رجولتها ولا نبلها من أيام الجاهلية الأولى ، يوم كان ينام العربي ورمحه أمام الدار وفرسه مرتبط في الفناء ، فاذا سمع النذير يقول واصباحاه نهض من بين شُعَبِ أهله ليستقبل الموت .

الى أيام الوثبة الكبرى ، يوم هزَّ محمد هذه القرية النائمة وراء رمال البيد ، لم تسمع بها روما ولم تَدْرِ بها القسطنطينية ولم تبال لها المدائن ، فخرجت تنكس رايات رب المدائن وسيد القسطنطينية . الى أيام صلاح الدين حين كان في سورية (من التفرقة والاختلاف) احدى عشرة حكومة ، وكان في القدس حكومة أجنبية عاشت نحواً من مئة سنة تحميها أوربة كلها ، فدفنها صلاح الدين في حطين ، الى أيام الرمثية والغوطة والجبل ، وسوح الجهاد في المغرب ، لقد بذلت هذه الأمة ولا تزال مستعدة للبذل بذل المال وبذل الروح ، أتشكون في بطولاتكم ، وفي ارثكم من ماضيكم ؟

ان شككتم فالدليل في أنفسكم ، تصوروا لو أن واحداً كان رائحاً الظهر الى بيته تعبان جوعان ، يجرُّ نفسه جرا ، لايستطيع أن يمشي ، فرأى فتاة يحاول الأشرار العدوان عليها وهي تصيح تفتِش عن المنقذ . أمايحسُّ أن قد مشت النار في أعصابه ، وأنْ قد صبَّت القوة

في عضلاته ، وأن قد طار تعبه وكلاله ، وأن قد اندفع من حيث لايفكر لانقاذها .

أما يكون الواحد منكم يحسب أمواله ، يحصي ما لديه ويفكر فيما عليه ، ويضع لنفسه ميزان نفقاته ، فتهتز أريحيته ، ويتحرك بالمكرمات قلبه ، فاذا هو يجود بنصف ما لديه .

هذه هي بطولة العربي ، وهذا هو كرمه ، لا . ان هذه هي عزة الايمان ، وهذا شيء لاتجدونه عند اليهود .

لقد أكثر الخطباء الاستشهاد بأخبار ماصنع المسلمون الأولون ، يوم أعطى منهم من أعطى ربع ماله أو نصفه ، أو أعطاه كله وترك لعياله الله ورسوله ، وكنت أستطيع أن أسمعكم في هذا الباب العجائب .

ولكن لماذا أذهب بعيدا والشواهد أمامي ، لماذا أمضي أنقب في التاريخ وفي مكارم الحاضر العجب العجاب .

لما كانوا يبنون مسجد نافذ في المهاجرين ، جاءت امرأة لايعرفها أحد بصرة فيها خمسون ليرة ذهبية وولت مسرعة ، قالوا : أخبرينا باسمك لنكتب لك الوصل ، قالت هو يعرف اسمي ، ولا أحتاج منه الى وصل .

ويوم كانوا يجمعون لجامع مضايا جاء مجلخ سكاكين بصندوق نقوده كله الذي لايملك غيره فأفرغه .

وما لي أعدد بذل الفقراء ، ان في الشام طبقة من التجار والموسرين لو أعلنت حوادث بذلها لعاشت مثلاً مضروباً في صحائف التاريخ .

كلمت يوم عدنا من المؤتمر نفراً من التجار ، أسألهم كيف نبدأ الجمع لهؤلاء المرابطين في القرى الأمامية فقال رجل من المجلس أنا أبدأ بدفعة متواضعة على الحساب وأمسكت قلبي بيدي ماذا يدفع .

فدفع ، عشرة آلاف ليرة .

ودفع الثاني مثلها ، ودفع الثالث نصفها .

وكلّمت أصحاب معمل كبير جداً للمنسوجات في الشام ، فما احتاجوا لكلمة ثانية حتى بعثوا عشرة آلاف متر من أجود أنواع القماش.

أي بما يصل بين دمشق ودوما .

وما لي أذكر حوادث الأمس ، هذا هو واحد من التجار لايستطيع أن ينتظر ابتداء الأسبوع ، فيبدأه قبل ابتدائه بدفعة قدرها مئة ألف ليرة ، وفوقها ثلاثون غرفة يؤثثها في المستشفى .

وهذا موظف من الموظفين ، لايكفيه أن أعطى معاش يوم ، فتبرع برواتب ستة أشهر ، يدفعها سلفاً وهو نقيب الاشراف .

يا أيها الاخوان ان كنتم جميعاً ستمشون على هذا الطريق فأنا عاتب عليكم .

لقد فضحتموني ، وجعلتموني الليلة أخيَبَ الخطباء .

لم تبقوا لكلامي معنى لأنكم بفعلكم قد سبقتم كلامي .

لذلك أنسحب لأنه لم يبق لي مكان .

أنسحب بعد أن أقول لكم كلمة واحدة فقط ، هي أن الجهاد بالمال أخو الجهاد بالنفس ، فانووا بما تعطون وجه الله ، قولوا يارب هذا ندفعه لأجلك وفي سبيل رضائك ولاعلاء كلمتك .

يا أيها العرب

نشرت سنة ١٩٤٩

يا أيها العرب جميعاً .. هل تدرون ما هو أعظم خطب يمكن أن ينزل بنا ، وما هي أدهى مصيبة يُخشى أن تصيبنا ؟ لا ، ليست الاستعمار الأجنبي ، فسنجاهد حتى لا يبقى في ديار العروبة ، ومنازل الاسلام غاصب أجنبي ، وليست مشكلة اسرائيل ، فسنحارب حتى نسلم (اسرائيل) الى عزرائيل ، ولكن المصيبة أن نكفر بأنفسنا ، وأن نجهل أقدارنا ، وأن لا نعرف فوق الأرض مكاننا ، وأن نحسب أننا خلقنا لنكون أبداً أضعف من الغربيين ، وأجهل منهم ، وأن ننسى أن أجدادنا لما خرجوا يفتحون الدنيا ، ما كانوا أقوى منا على عدونا ، وأنهم أقدموا بسيوف ملفوفة بالخرق على عدو كان أكثر عَدداً وأقوى عُدداً وأضخم عمراناً ، وأكثر علماً ومالاً ، فظفروا به ، وانتصروا عليه ، وأن الأيام دول ، والدهر دولاب ، يهبط العالي ، ويعلو الذي هبط ، ويذلُّ العزيز ، ويعزُّ الذي ذلَّ ، وان دار علينا الدهر حيناً ، فافترقنا وتباعدنا ، ولفّنا بعد اشراق النهار ليلٌ مظلم ، أغمضنا فيه عيوننا ، وأغمدنا فيه سيوفنا ، فلم نبصر اللص يدخل علينا ، ولم نَنْهَدْ اليه لنرده عنا ، وحسبنا لطول الليل أن لا صباح له ، فقد طلع الآن الصباح ، وانقضى الليل ، وهبَّ النائمون يمشون الى الأمام ...

الى الأمام ! والا فما هذه الثورات ، وما هذه الوثبات ؟ وما هذه

الوحدة في العواطف ، حتى لتهتزّ الشام لكل حادث في العراق ، وتغضب مصر لكل عدوان على الشام ، ويثور المشرق لنصرة المغرب ، وتقوم مراكش لتأييد أندونيسيا ، وتهب الباكستان للدفاع عن فلسطين ؟

الى الأمام ! والا فما لمصر ، غمرتها الفكرة العربية وكانت من قبل تعيش عامّتها في ظلام العزلة ، ويحيا (بعض) خاصّتها في ضلال الفرعونية ؟

الى الأمام ! والا فهل كانت تظن فرنسا ويظن عبيدها أن سيقطع الله دابرها من سورية ومن لبنان ، ومن لبنان يا أيها السادة ! وهل كان يظنّ الانكليز أنهم سيضطرون الى الخروج من وادي مصر ، وأن العراق سيقطع اليد التي تحاول أن توقع معاهدة ليس فيها خير للعراق ، وهل كان يظنّ أحد أن الهند ، الهند ستتحرر وأنها ستكون في الدنيا دولة اسلامية فيها ثمانون مليوناً .

ان هذه المظاهرات ، وهذه الثورات ، حركات السائل الناري في باطن الأرض ، انها الهزّة ، ثم تكون الرجفة ، ثم يكون الزلزال ، ثم ينفجر البركان بالحمم ، وتفتح أبواب جهنّم ، فلا يقف أمامها شيطان من الشياطين ، ولو كان له مال (حاييم) ودهاء (جون بول) ، وقوة (الدب) واقدام (العم سام) .

لسنا اليوم كما كنا من خمسين سنة ، كنا نخاف أوربة لأننا نجهل ما عندها ، وكنا نخشاها لأننا ما عرفناها ، أما اليوم فقد هُتك الستار ، وكُشفت الاسرار ، وعرفنا أن هذه المدينة مدينة الظفر والناب وأنها حضارة الذئاب .

فيا أيها العرب ، فوق كل أرض ، وتحت كل سماء ، لقد جئت الليلة ، ليلة هجرة محمد ، أستحلفكم بقبر محمد ، وبالمسجد الأقصى ، وبمهد عيسى ، وبأمجاد الماضي ، وبآمال الآتي ، أن تتقوا ربكم ، وأن لا تعتمدوا

الا على نفوسكم ، وأن تعلموا أن النازلات امتحان للهمم ، وتمحيص للأمم ، وأن لا تكفروا بالبطولة التي صبّها في دمائكم يا أيها العرب ، سيد العرب محمد ، وأن تأخذوا من سيرة محمد الذي اجتمعتم الليلة للاحتفال بذكراه دروس البطولة والعزم والنضال .

وأن تذكروا موقف محمد يوم كانت المدينة على حافة الخطر ، وكانت معرّضة لأقوى هجوم يمكن أن تقوم به جزيرة العرب ، وكان على الطريق اليها ثلاثة جيوش فيها عشرة آلاف مقاتل ، والمسلمون كل المسلمين يومئذ ثلاثة آلاف ، وأن المدينة قد (تسقط) بين ساعة وساعة ، ويُقضى على الاسلام ، فماذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماذا صنع المسلمون ؟

هل تحيّروا حتى لا يدرون ماذا يصنعون ، فجعلوا يرتجلون الخطط ، ويبتدعون الآراء ؟ هل كفّوا أيديهم عن العدو وأطلقوا ألسنتهم عليه ، فرموه بالخطب والتصريحات ؟ هل أضاعوا الفرصة وأمضوا الأيام في الاجتماعات والمؤتمرات ؟ هل اختلفوا وتنازعوا ؟ وهل فكر الأغنياء في أن يستأجروا بيوتاً في الأرياف ليفرّوا اليها ، اذا نزلت الملمّات وكانت (الغارات) ؟

لا يا سادة ... لم يفكر في الفرار الا (المنافقون والذين في قلوبهم مرض) . أما المسلمون فكانوا يعلمون أن المسلم الذي يفرّ من بلده اذا دهمه العدو لا يكون مسلماً ، وأن الاسلام يفرض القتال عند ذلك على الرجال والنساء فرض عين كفرض الصلاة .

لا ، ولم يعتكف رسول الله في مسجده ، ليدعو عليهم ، ولو دعا لاستجاب الله دعاءه ، ولكنه أراد أن يأتي البيوت من أبوابها ، ويجرّ النتائج بأسبابها ، ويعلّم هذه الأمة كيف تصنع اذا دهمتها المخاوف ، وحاقت بها الأخطار ، وشرع يحفر الخندق والخندق هو (الملجأ الفني)

من (غارات) تلك الأيام ، ولم يكن العرب يعرفون الخنادق بل هي من طرائق العجم في قتالها .

وكذلك كان محمد يعدُّ لعدوه أحدث المخترعات الحربية ، ويفاجئه بـ (أسلحة جديدة) لم يسمع بها ، لم يأمر بحفر الخندق وهو مقيم في داره ، هادئ هانئ مستريح ، بل عمل معهم ، يده قبل أيديهم ، حمل التراب حتى غطّى بطنه التراب ، وجاعوا فجاع معهم ، وربط على وسطه من الجوع الحجر ، وكان أقواهم يداً ، وأثبتهم قلباً ، عرضت صخرة لم تعمل فيها المعاول ، ولم تؤثّر فيها سواعد الرجال ، فلجأوا الى محمد ، فلم يستطع أن يكسرها الا ساعد محمد ، وهو يعمل بلا قميص شأن الرياضي القوي ، لا شأن هؤلاء (المشايخ) الذين يمشون ورؤوسهم منحنية ، وأطرافهم متخاذلة ... كأنْ قد هدَّهم المرض !

أعدَّ الخندق لـ (الدفاع السلبي) ، ثم خرج ومعه المسلمون لـ (الدفاع الايجابي) ، وولّى على المدينة ابن أم مكتوم ما اختاره لعصبية أسرة ، ولا لجامعة حزب ، ولا لصلة قرابة ، بل لأنه أحقّ بالولاية وأولى بها ، ولم ينازعه أحد ولايته لأن الأمة التي تشتغل بالحزبيات ، وتتنازع على الكراسي ، والعدو على الأبواب لا تستحق الحياة .

وأحاط العدو بالمدينة ، واشتدَّ الخطبُ وعظم البلاء ، وقلّت الأقوات ، وجاءت في خلال ذلك قاصمة الظهر بأن الحلفاء من يهود قريظة ، خانوا العهد ، وأخلفوا الوعد ، وغلبت عليهم نجاسة طباعهم ، ونذالة أخلاقهم ، صفة اليهود أبداً ، أينما كانوا وحيثما وُجدوا . فلم يفارق محمداً ثباته وعزمه ، وبعث يتحقّق الخبر ، وأمر رسوله أن يعلن ان وجده كذباً لتقوى العزائم ، وتشتد الهمم ، وان وجده صدقاً لحَن له به ، ولم يخبر به الناس ، لئلا تكون الأسرار العسكرية حديث المجالس ، وأسمار السمّار .

وأحسّ بالأمر المنافقون ، وما تخلو أمة من (منافقين ...) ومن دعاة الشر وبغاة الهزيمة ، فأعلنوا ما كان مضمراً ، و (زاغت الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ، وتظنونَ بالله الظنونَ ، هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً . واذْ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ : ما وعدَنا اللهُ ورسوله الا غروراً . واذْ قالتْ طائفةٌ منهمْ يا أهلَ يثرب لا مُقام لكُم فارجِعوا ، ويستأذنُ فريقٌ منهمُ النبيَّ يقولونَ انَّ بُيوتنا عوْرةٌ ، وما هي بعوْرة ، انْ يُريدُون الا فِراراً) . واجتمع على المسلمين العدوُّ القوي والبرد والجوع وخيانة الحليف وتثبيط المنافق ، فقضى رسول الله على (الانقسام الداخلي) ، وصبر على الحصار ، ثم صمد للهجوم ، واستعمل كل سلاح ، فحفر الخندق ، وحارب بالسيف وحارب بالحيلة ، فكان الظافر في الحرب الدفاعية ، وفي الحرب الهجومية ، وفي حرب السياسة ، وفي حرب الأعصاب ، وكان له النصر المؤزَّر .

واذكروا بعد ذلك كم جُزنا من امتحان ، وكم نجونا من خطوب ، يوم كرَّ علينا الشرق كله بهمجيته وكثرته وقسوته بجيوش التتر يقودها الكلب الكلِب : هولاكو . فمرت كالسيل الحاطم ، فاجتاحت دول الاسلام (وما كان ينبغي أن يكون للاسلام الا دولة واحدة) ، حتى اذا عبثت بالخلافة ، وداست بغداد ، وفعلت في دنيا المسلمين الأفاعيل ، ولم تبق منها الا ولايات متباعدات ضعيفات ، وقف لها شيخ واحد ، شيخٌ لم يتخذ الدين سُلَّماً للدنيا ، ولا الصلاح شبكة للمال ، ولم يكن همَّه مشيخة يزهى بها ، ولا ضِيَاع يقتنيها ، ولا سيارة يركبها ، ولا وظيفة يحظى بها ، لم يكن يمدُّ يده للناس يقول قبلوها واملأوها مالاً ، ولا يقول تصدَّقوا بأموالكم ليأخذ هو الصدقات ، قد احتقر الدنيا في جنب ما عرف من نعيم الآخرة ، وهان عليه أهلها ملوكهم وسوقتهم

لما وقر في نفسه من عظمة الله شيخ اسمه العزّ بن عبد السلام[1] .

أثار هذا الشيخ مصر ، حتى انتصر جيش مصر الضعيف على جيوش التتر القوية ، وحفظ اللهُ به في عين جالوت الدين والدنيا ، وأنقذ به الاسلام والحضارة ، وما انتصر جيش مصر الا بالايمان الذي أثاره في النفوس هذا الشيخ .

واذكروا يوم كرّ علينا الغرب كله ، يقذفنا بالجنود من كل لون ، ويرمينا بالأسلحة من كل نوع ، وكنا دويلات وامارات متخاذلات متقاتلات ، فنصرنا الله على الغرب كله برجلين اثنين وما انتصرا الا بالايمان والاخلاص ، نور الدين وصلاح الدين الأيوبي بطلي الدنيا .

* * *

يا أيها المستمعون جميعاً ، سألتكم بالله : انسوا لحظة واحدة جاهكم ومطامعكم ، وحبّكم وبغضكم ، ومشاغل بيوتكم وأسواقكم وفكروا في نفوسكم ، فيما كان عليه أجدادكم ، وما انتهت اليه حالكم ، هل صنعتم مثلما صنع النبي يوم الخندق ، هل عندكم اليوم مثل الملك صلاح الدين ، هل لديكم مثل الشيخ عز الدين ، هل أعددتم لليوم العبوس عدته ، هل أحسستم الى هذه الساعة أنكم في حرب ؟

يا ناس !

هل تعيش أمة في الحرب مثلما كانت تعيش في السّلم ، لا تنقص شيئاً من لهوها وتبذيرها وغفلتها ، واضاعتها أموال العامة وأموال الخاصة فيما لا ضرورة له ، ولا جدوى منه ، وانفاقها في (الكماليات) التي يذهب ثمنها الى عدوها ، فيرجع اليها رصاصاً وقنابل تنزل على دورها وصدورها ، هل تختلف أمة على الصغائر ، وتتنازع على المناصب ، والعدو قد غشيها في أرضها ؟ هل يُنفق في الأمم الحية المحاربة قرش واحد الا في شراء النصر ؟

---

(١) اقرأ خبره في كتابي (رجال من التاريخ) .

يا ناس !

اني أكون خائناً لديني ولأدبي اذا أنا غششتكم في يوم هجرة نبيكم ، أو كتمت الحق عنكم ، انكم طالما تنكرّتم لدينكم ونسيتم أقداركم ، واحتقرتم نفوسكم ، وأضعتم سلائقكم الخيِّرة ، وخلائقكم النبيلة ، في تقليد الأوربيين في التافه من شئونهم ، وفي اعظام الأوربيين والرعب منهم ، ولا سبيل لكم الى النصر الا بأن تعودوا فتتخلّقوا بأخلاق النضال التي خلق بها أجدادكم نبيّكم ، أجّلوا كل اختلاف بينكم الى نهاية هذه الحرب ، وأرجئوا كل نفقة لا ضرورة لها ، وكل لهو لا داعي اليه ، وواجهوا العدو صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، قد وقفتم على الظفر قواكم كلها وأموالكم ، واعلموا أنه لن ينفعكم والله منصب ولا مال ، ان تركتم عدوكم يقوى بضعفكم ، ويشتد بتخاذلكم ، ويزيد بنقصكم .

ان الدنيا مقبلة على غمرات سود ، ومرتقبة أحداثاً جساماً ، وستكون معركة لا يخرج منها الا البطل ، فيا أيها العرب : تيقّظوا وتنبهوا وثقوا بربكم وعودوا الى خلائقكم ، واعرفوا أقداركم ، واعتمدوا على نفوسكم ، وأيقنوا (ان فعلتم) أنكم منصورون منصورون منصورون ...

يستحيل أن تغلبكم كلاب يهود !

الى الشعب المصري

نشرت سنة ١٩٥٢

يا أهل مصر ، اثبتوا على جهادكم ، فانا جميعاً معكم ، قضيتكم قضيتنا ، وعدوكم عدونا ، ما ضرنا أن تفرق بيننا الحدود على الأرض ، والألوان على المصور ، ما دام يجمعنا القرآن ، وتوحد بيننا الضاد ، وتربطنا الآلام والآمال ، وذِكرُ الماضي ، وأماني المستقبل ، فنحن الاخوة تعددت بيننا المنازل ، ولكن الدم يلمّ الاخوة جميعاً ، والحب والمنشأ والمصير ، ومصر أختنا الكبرى ، فلئن خذلنا مصر ، انا اذن لشرُّ اخوة في الدنيا .

وما نسينا ، والله يا أهل مصر ، موقفكم منا يوم عدَا العادون من بني السين ، دعاة الحرية ... وأحفاد من نادوا بحقوق الانسان .. على جمهوريتنا وبرلماننا ، وحريتنا في أوطاننا ، أفتروننا نقعد عن نصرتكم وقد عدَا عليكم العادون من أبناء التايمس ، أدعياء الديمقراطية ، وأبناء من (ابتدعوا) البرلمان !

فأين اذن ، حقوق الأخوة ، وأين واجبات الوفاء ؟

أننام على فرش الأمن ، وننعم بالدعة والخفض ، ونشرب العذب من بردى ، ونؤمّ الضاحي من سفوح قاسيون ، نلهو ونتمتع ، واخواننا على حفافي النيل ، وجوانب القناة ، يخوضون اللهب ، ويقحمون الحديد ؟ واخواننا هناك تهدّ بيوتهم ، ويصرع فتيانهم ، ويعتدى عليهم في أوطانهم .

لا والله ، ولكن نألم ان ألِمـّوا ، ونجزع ان جزعوا ، ونخوضهـا حمراء عابسة الوجه ، يرقص فيها الموت ، ان دعتنا الى خوضها الأخوة ، ونادانا الجذم والدين واللسان ، ولا منّة لنا ولا فضل .

ولن نعيد مأساة فلسطين !

لن نعيدها . حلفنا وأيدينا مغموسة بدماء شهدائنا الذين أردَتْهم المعركة مع اليهود ، ونسائنا اللائي بَقرت بطونهن أكفّ يهود ، وأطفالنا الذين ذبحتهم أيدي يهود !

حلفنا لنثأرنّ لهم ، ولن ندع مأساة كمأساة فلسطين تمثل في ديارنا ، بتخاذلنا وانقسامنا ، واستسلامنا لخدع أعـدائنا : الانكليز وأحلاف الانكليز .

نهضنا لنصرِ مصر على قدم واحدة ، اجتمعنا على ذلك على اختلاف الأحزاب والمذاهب والآراء ، وتعالوا انظروا ، تروا الشباب في الطرق ، والشيوخ في الأسواق ، والطلاب في المـدارس ، والنساء في البيوت ، وحول كل راد[1] ، وأمام كل بائع جريدة ، على ألسنتهم جميعاً حديث مصر ، وفي قلوبهم جميعاً حب مصـر ، وفي عروقهم تغلي الدماء حماسة لمصر ، وشوقاً الى السفر لمصر ، للجهاد مع أهل مصر .

الشعب هنا كله معكم ، والحكومة معكم ، كلهم مع الحق الذي هو معكم ، وعلى الباطل الذي هو مع عدوكم .

وسيكون الظفر والله لكم .

ان هذه المصائب امتحان للشعوب ، لصبرها ولرجولتها ، وان هذا الشعب العربي قد جاز آلاف المحن ، وخرج منها فائزا مُجليًا .

أي أرض فوق الأرض ، وأي مكان تحت النجم ، لم يوارِ فيه هذا

---

(١) المذياع : محطة الاذاعة ، والراد : الراديو لأنه يردّ علينـا الصوت المنتشر في الفضاء .

الشعب شهيداً من شهدائه ، ولم يبلغه رائد من رواده ، ولم يرفع عامه يوماً عليه ، ولم يشهد ظفرا له ، ولم يسمع نشيده العسكري ، يهتف به الجندي المسلم ، فيرتجّ منه كل واد ، ويرتجف كل جبل، وتميد كل فلاة : (الله أكبر) .

(الله أكبر) هذا هو هتافنـا في حربنا ،ونداؤنا لصلاتنا ، ودعاؤنا بين يدي ربنا . فكونوا مع الله ، ولا تخشوا الانكليز ، لأن (الله أكبر) من انكلترا ، ومن يشد أزرهـا ، (الله أكبر) من مـدافع الانكليز ، ودباباتهم ، وطياراتهم ، وأسطولهم .

فلا تخافوا سلاحهم فان أجـدادنا ما حاربوا الأبيض والأسود ، ولا فتحوا الشرق والغرب ، ولا ملكوا ثلثي العالم المتمدن في ثلث قرن ، لأن سلاحهم أمضى ، أو لأن عددهم أكثر ، ما انتصروا الا بالايمان .

الايمان مكّن للفئة القليلة منهم أن تغلب الجيش الكبير من أعدائهم ، الايمان جعل السيوف الملفوفة بالخرق ، أمضى في أيديهم من المهنّدات المذهبـات في أيدي خصومهم ، الايمان أظفر الأمة البدوية الجـاهلة المتفرقة ، بدولتي الأرض ، وامبراطوريتي الـزمان : فارس والـروم ، ففتحت بلادهما ، وورثت أرضهما ، ثم أنشأت حضارة خيراً من حضارتهما ومدنية أزهى وأنفع من مدنيتهما .

الايمان بالله ، والايمان بالظفر ، والايمان بأن الحق معهم .

فاذا كنتم مؤمنين بأنكم تدافعون عن حقكم ، فلن يغلبكم أحـد ، لا الانكليز ولا حلفاء الانكليز .

ولقد حاربت جماعات من أهل الشام فرنسا ، يوم كانت فرنسا أقوى دول أوربة في البر ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى وما كان لهم سلاح الا الذي يأخذونه من جنود فرنسا ، ومع ذلك فقد وقفت فرنسا بدباباتها

ومدافعها سنتين أمام مئات من الثوار ، يقودهم خفير عـامي من دمشق اسمه حسن الخراط .

فكيف ومصر الدولة العـربية الكبرى ، وفي مصر العـدد والعُدد والمال ، ومع مصر كلّ قطر عربي ، وكل بلد مسلم ؟

* * *

انه ليس على ظهر الأرض شعب كهذا الشعب الـذي صبّ محمد البطولة في أعصابه ، حتى لا يكون المـرء عربياً ولا يكون مسلماً حتى يكون بطلا .

أما ترون العربي اذا دعي باسم العِرْض ، أو دعي باسـم الأرض ، أو دعي باسـم الدين ، كيف تغلي دماؤه في عروقه فيحسّ حرّهـا في قحف رأسه ؟ وكيف تشتد أعصابه ، وتفور عزيمته ، حتى ليقحم النار ، ويركب الأخطار ؟

أما ضـرب هـذا الشعب ، على بطولته ونخوته آلاف الأمثلة في الماضيَ وفي هذه الأيام ؟

أما حارب عبد القادر فرنسا سبع عشرة سنة ؟ أما نازل عبد الكريم فرنسا واسبانيا معاً ؟ أما قاتل العراقيون الانكليز في الرميثة ؟ أما فعـل الفلسطينيون سنة ١٩٣٦ الأفاعيل ؟

أما كان لمصر سنة ١٩١٩ الأيام الغرّ المحجلات في مواكب الزمان ؟

فان مضى سعد ، فكلكم يا أهل مصر سعد تسعد به مصر .

فالى السلاح جميعاً ، الى الحرب ، وان فقدتم السـلاح فحاربوا

بالعصي ، وحاربوا بأيديكم ، واطلبوا الموت يعجزوا عنكم ، لأنهم لا يستطيعون أن يقتلوا عشرين مليونا تريد الموت .

وقبل حرب الميدان ، حاربوهم بالعلم ، وبالأخلاق ، وبالدستور الاقتصادي الصحيح ، وأعدّوا لهم كل أنواع القوى : قوة الجسم وقوة العقل وقوة القلب وقوة المال وقوة الجيش .

ونحن جميعاً معكم :

هذي يدي عن بني (الشام) تصافحكم   فصافحوها تصافح نفسها العرب

الى السلاح ياعرب

(١)

يا أيها القراء ! اني ما جئت أصبُّ في أعصابكم قوة ليست فيها ، ولكن جئت أثير القوة التي نامت في أعصابكم .

وما جئت لأجعلكم خيراً مما أنتم عليه ، ولكن جئت لأفهمكم أنكم خير مما أنتم عليه ، جئت أضرم جمرة الحماسة التي غطّاها في نفوسكم رمادُ الكسل . فأعينوني على نفوسكم باستعادة الثقة بها ، وبسلائق العروبة التي ورثتها ، وبعزّة الاسلام التي كانت لها ، واعلموا أنكم ان فقدتم عزتكم ، واضعتم سلائقكم ، لم تكونوا جديرين بمحمد ، ولم يكن لكم الحق في الاحتفال بمولد محمد !

يا سادة ! ان الأمم كالأفراد : ألا يكون الرجل منكم رائحاً من عمله ، خائر الجسم ، واني العزم ، كل أمانيه أن يصل الى الدار فيلقي بنفسه على أول مقعد يلقاه ، قبل أن يستنفد الجهد قواه ، فيجد في الدار بشارة بأنه رفِّع درجة ، أو نال جائزة ، أو هبط عليه ارْث ضخم ، من قريب منسي ، فيحسُّ بأنه انتفض كما ينتفض العصفور بلَّله القطر ، وانتعش كما ينتعش النبات أرواه الماء ، ونشط كما ينشط الجمل أطلق من عقال ؟

ألا يكون أحدكم مرخيّ الأعصاب ، خامل الجسد ، قد خدّره النعاس حتى ما يقدر أن يفتح عينيه ، فيعدو عليه عادٍ ، أو يطرقه لص ، أو يحقره انسان ، فيشعل الغضب في دمه ناراً ، ويشدّ من أعصابه أوتارا ، فيثب يريد أن يقتحم الجدار ، أو يخوض النار ؟

ألا يكون أحدكم تعبان كسلان ، يجرُّ قدميه من الوني جرا ، يظن

أنه سيسقط من كلاله على الأرض ، فيلحقه عدو فاجر ، أو يطارده وحش كاسر ، فاذا هو ينطلق انطلاق القذيفة من فم المدفع ، ويعدو عَدْوَ الغزال المروّع ؟

هذه أيها الناس القوة المدّخرة في أعصاب الانسان ، يظهرها الأمل ، ويبديها الغضب ، ويبعثها الخوف . وفي الأمم قوة كهذه القوة ، وما الأمة الا الأفراد ، الأمة أنا وأنت ، وهم وهن ، أفلا تحسّ ان غضبت أو فرحت أو جزعت أن نبضك يسرع ، وقلبك يخفق ، ووجهك يصفرّ أو يحمر ، وجسدك كله يتبدل ويتغير ؟ فكذلك الأمم ، تكون الأمة نائمة آمنة ، قد غلب عليها الخمول ، وشملها الارتخاء ، فما هي الا أن يبعث الله لها القائد العبقري ، يصرخ فيها ينذرها خطراً ، أو يحذرها عدواً ، أو يَعِدُها نصراً مؤزّرا ، حتى تَثِبَ كما يثب الجندي المستريح الى سلاحه ، فتعمل العجائب ، وتصنع المعجزات ، وتدع التاريخ حائراً من فعلها مشدوها .

وهذه هي الأمثلة تملأ العصور ، وتترع صفحات التاريخ ، الأمثلة من الشرق والغرب ، من القديم والحديث ، حيثما تلفتّم وجدتم مثالا .

هذه مصر ! كانت على عهد المماليك ، بلد الجهل والافتراق والضعف والتخاذل ، فما هي الا أن بعث الله لها محمداً عليّا ، حتى نهضت نهضة الأسد ، فكانت لها المدارس والصحف والصروح والمصانع ومعامل السلاح ، وكان لها الجيش الذي فتح الشام ، وقهر الأتراك سادة الجحافل ، وأبطال الميادين ، وكاد (لولا مكر انكلترا وغدرها) يهدّ عرش آل عثمان ، وكان لها الأسطول الضخم الذي كاد (لولا تلك الجريمة التي لم يُحاسب عليها بعدُ مجرموها) يعيد البحر المتوسط ، بحر العرب ، كما كان أيام عز العرب .

وهذه جماعة الأتراك من آل عثمان ! كانت قبيلة بدوية تسكن القفار ،

وترعى الأبقار ، ليست في عير ولا نفير ، فلما بعث الله لها عثمان وشرّفه بالاسلام ، صارت به وبخلفائه الأولين ، مراد والفاتح وسليم وسليمان ، صاحبة القسطنطينية ، ومالكة ما بين خراسان وأسوار فيينا ، وصار البحر المتوسط بحيرة في أملاكها .

وهذه فرنسا ! ماذا كانت فرنسا في أعقاب ثورتها ؟ أمة الفوضى والانحلال ، والحيرة والضلال ، والتبدل من حال الى حال ، فما هي الا أن جاءها نابليون حتى ملكت تحت لوائه أوربة كلها ، وصارت أمة الأمم .

وهذه روسيا ! كانت بلاداً أدنى الى الهمجية والجهالة ، فما هي الا أن جاءها بطرس حتى غـدَتْ به بلداً أوربياً من بلاد المدنية والعمران .

بل هـذا هو المثل الاغرّ المحجّل ، الذي لا تدانيه الأمثلة ، ولا تضارعه في سموه النهضات .

هـذه القرية التي كانت متمدّدة وراء الرمال ، نائمة في ظلمات من الجهل والفقر والجدْب فوق ظلمات ، لا تدري بها المدن الكبار ، ولم يسمع بها التاريخ ، هزّها بيمينه سيّد العبقريين ، وأعظم العظماء ، من كان في الأرض سفير السماء ، وكان امام الرسل وأفضل الأنبياء : محمد .

هزّها ، فاذا هذه الرمال المحرقة التي لا تعيش فيها الحياة ، تُنبت السهول الخصاب ، والرياض والجنّات ! واذا هذه القرية الضائعة تَلِد المدن العظام : الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والقيروان ! واذا هذه القبائل المتفرقة تُخرج الجيش الذي فتح الشرق والغرب ، وملك ثلثي العالم المتمدن في ثلث قرن ! واذا هذه الأمة الجاهلية تُنجب الأساتذة الذين علّموا الدنيا ، وأرشدوا أهلها ، وأقاموا أعظم حضارة عرفها البشر ، حضارة خير وحق وجمال ، ليست حضارة قتل وتدمير ، ومصائب وانكليز ، ويهود وبارود ، وقنبلة ذرية ...

وأمامكم من هذه الأمثلة مئات .
بل اننا نستطيع اليوم في كل قطر عربي أن نضرب من أنفسنا الأمثال.

انه لا ينقصنا لنعزّ ونسود ، ونسير على سنَنِ الجدود ، الا حرب تنبه ، أو زعيم عبقري يقود . اننـا لا نريد الا أن يتحمس العرب ، أو يغضب العرب ، أو يخاف العرب ، فتوقظهم الحماسة ، أو يثيرهم الغضب ، أو يحرّكهم الخوف ، فيرجعوا الى مكان الصدارة بين الأمم .

ان سوريا الصغيرة تستطيع أن تكون من الدول الأوائل على وجه الأرض حضارة وعلما وقوة ومالا .

لا تقولوا : نحن قليـل ، فان أرقى دول أوربة رقيًا ، وأفضلهـا

لا . لا تقولوا نحن قليل ، فاليهود أقلّ منا .
حضارة ، هي أقلهـا ناسا ، وأضيقها رقعة : سويسرا وهولنـدا ودول الشمال ، ونحن أحسن من بعضهـا موقعاً من الأرض ، وبلادنا أوسع ، وخيراتها أكثر ، ونحن أسرع سيراً في طريق النجاح .

ألا ترون ما صنعنا من (يوم الجلاء) الى اليوم ؟
أما عملنا في خمس سنين ما لم نعمل مثله في خمسين سنة ؟

أما صار لنـا جيش ؟ أما غـدَت لنـا جامعة ؟ أما أقيمت في بلدنا (معامل الشركة الخماسية) التي شهد كل من رآهـا بأن الحضارة لم توجد اليوم أعظم منها ؟ أما استبدلنا بالمحاريث التي كانت تجرها البقر أضخم الآلات فزادت زراعتنا أضعافا ؟

هل لأمة مثل ما لنا من الحزم والعزم ، وركوب الفلوات ، واقتحام اللجج ، والضرب في الأرض ؟ هل على ظهر هـذه الكرة بلد ليس فيه رجال منا ، نزلوه فقراء فصاروا فيه من كبار الأغنياء ؟ أليس في الأمريكتين وفي أوربة كلها وفي السنغال وفي الكونغو وفي الكاب وفي شنغهاي وفي

اليابان رجال من الشام يجاهدون للمال ، ويعملون للغنى ، ويُدهشون أهل كل بلد نزلوه ، بتلك الهمم وهاتيك العزائم ؟

هل نزل اليهود بلداً فلم يكونوا أرباب المال فيه ، الا الشام ، فما كان اليهودي في الشام الا متّجرا بعتيق الثياب ، يدور بها على الأبواب ، أو منظّفاً لمجاري الكُنُفِ تحت الأرض ؟ ذلك لأن أهل الشام أبصر بالعمل ، وأعرف بطرق جمعَ المال من اليهود .

وهذا والله فخر لهم ، وان عدّه ناس طعناً عليهم .

أفَيُعْيينا (معشر العرب) ولنا هذي السجايا ، أن تتقلّد السلاح ، ونُرجع أمجاد الأجداد ؟ أتعجزنا حرب اسرائيل ؟

أهؤلاء الزعانف أوْشَاب الأمم ، أم دول أوربا لما رمتنا عن قوس واحدة أيام الصليبيين ؟

أهؤلاء أم سيول التتر ، لما قادهم الينا هولاكو فحطّوا علينا حطّ الجراد ؟

أهـذه (الدويلة ..) بنت ثلاث سنين .. أم دول الصليبيين التي شاخت في أرضنا اذ عاشت فيها أكثر من مئة سنة ؟

أهـذه الدويلة ... ونحن بالجيش والسلاح ، ولنـا الاستقلال ، ومعنا المـال ، أم فرنسا ذات الحول والطول ، لمـا حاربهـا رجال منا بأيديهم ، لا يملكون الا السلاح الذي أخذوه من جنود فرنسا ؟ فوقفت فرنسا بدباباتها ومدافعها عند جسر تورا سنتين لا تستطيع أن تجتازه ، وما عرض النهر الا خمسة أمتار ، وما يحميه الا عشرات من الثوار .

أما نصرنا الله في أيام أشدّ من هذه الأيام ؟

أضاعت ثقتنا بالله ثم بأنفسنا وبماضينا وبأمجادنا ؟

ألا ترونها تتلظّى في العروق الدماء ، وتتفجّر في الرؤوس الحماسة ؟

أما ترون شباب مصر ، طلاب الجامعة ، وتلاميذ المدارس ، وعمال المصانع يزلزلون الأرض ، لايطلبون الا أن يُفتح لهم الطريق ، ليمشوا الى حرب انكلترا ؟

انهم لايحفلون جندها ، ولا يبالون سلاحها ، ولا يخشون حديدها ونارها ، ولو فتح الطريق لنساء مصر ، لمشت الى حرب انكلترا نساء مصر !

ان ها هنا شعباً يريد أن يموت ليحيا وطنه ، فهل تستطيع انكلترا أن تبيد الشعب كله ؟

فيا أيها الحاكمون في بلاد العرب، لاتطفئوا هذه الحماسة، لاتزهقوا هذه الروح .

ياأيها الحاكمون ، اجعلوا كل ميدان في البلد ساحة تدريب ، وكل قادر على الحركة جنديا ، دربوهم وخلّوا طريقهم ، فانكم لاتدرون متى تحتاجون اليهم ، (جندوا) كل يافع وكل كهل وكل عجوز ، لا أقول ألبسوهم جميعاً بزّة القتال ، وسوقوهم الى المعركة ، لا ، فليس الجيش هو الذي يحارب فقط ، ولكن أقول سوقوهم الى الأسواق والى المصانع والى الحقول ، حتى لايبقى في البلاد كلها عاطل ولا خامل ولا سائل ، ولا يبقى في البلاد كلها شبر واحد مُقفر أو خال ، أقلّوا عدد الموظفين ، وزهدوا التلاميذ في (الوظائف) ، وربوهم على حب العمل ، وكراهية الكسل ، وأقيموا النهضة على أساس شامل كامل واجعلوا للبلاد دستوراً اقتصادياً مبنياً على أساس العلم ودواعي الحاجة وعدلوا أسلوب الموازنة ، وقوانين الضرائب ، فانه لايجوز في شرعة الاسلام أن يدفع تسعة أعشار الضرائب الفقراء ، ويفلت منها كبار الأغنياء، واستفيدوا من خيرات الأرض وبركات الوطن ، فان هذا البترول العربي لو أنفق ثمنه في أسباب القوة ، وفي سبيل الاصلاح ، ولم ينفق على الاثم والفسوق ومعصية الرسول ، لكانت به كل مدينة عربية ، مدينة

أميركية !

ثم استنهضوا همم الرجال ، واستثيروا بذل الأغنياء ، وحرموا اتفاق المال في وجوه السرف ، وألوان الترف ، وأنفقوا كل ماجتمع لكم من مال في السلاح والعتاد ، دربوا الناس على القتال ، واجعلوا من الشباب جنوداً مستعدين ليوم الكريهة ، وانشروا في الشعب علم النجاة من الغارات والهجمات ، وسخروا الصحف والاذاعات لبث القوة والرجولة في صدور الرجال .

الى السلاح ـ ياعرب
الى السلاح ـ فنحن في حرب ما بقي في فلسطين يهودي واحد .
الى السلاح ـ فنحن في حرب ما بقي في القناة انكليزي واحد .
الى السلاح ـ فنحن في حرب ما بقي في تونس أو مراكش أو أي قطر عربي أجنبي واحد .
الى السلاح ـ ياعرب .

الى السلاح ياعرب

(٢)

هل تذكرون ، يوم ناديتكم من هـذا المذياع ، وهتفت بكم ، الى السلاح ، ياعرب ؟

لقد نَقَدَ كلامي يومئذ أقوام ، بأنه جاء في غير أوانه ، فكان صرخة في واد مُقفر ، وكان الحق مع هؤلاء الناقدين .

كان الحق معهم لأني يوم ناديت هذا النداء ، وكان ذلك من ثلاث سنوات ، لم يكن قد طلع هذا الفجر ولم يكن قد أشرق الافق بالنور ، وكنا لانزال في بقية من سواد الليل ، فلم نعرف أين هو طريقنا ، اما الآن ، فقد طلع النهار ، وأبصرنا الطريق ، ورأينا أننا كنا نتخبّط على غير هدى ، ونمشي على غير السبيل كنا نظن أن الطريق ، الى المجد والظفر ، وغسل الهزيمة ، هو طريق مجلس الأمن ، وهيئة الامم ، ذلك الطريق الطويل الملتوي ، الذي يكمن في جنباتـه قطّاع الطرق من اليهود .

وقد عصينا الشيخ دريدا لما نصحنا بمنعرج اللوى :

أمرتهمو أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح الاضحى الغد

كان دريد العصر هو (فارس الخوري) ، الذي رأى الجادّة حين ضلّ عنها السارون فقال لنا :

ان قضية فلسطين لاتحلّ في أروقة هيئة الأمم ، ولكن تحلّ على سفوح

الكرمل ، وشواطيء يافا ، وهضاب القدس ، ولا تحل بالخطب والأشعار ولكن بالحديد والنار •

كلمة حق ، من الحق أن اسجلها له هنا ، وأن أقرر أنه كان أول من عرف الطريق ، الطريق الذي رأيناه الآن جميعا •

الطريق الذي يوصل وحده ، الى استعادة الحق المسلوب ، والنصر الضائع ، طريق المعركة الحمراء ، التي لا يظفر فيها الا من حمل سلاحين ، سلاح الايمان في قلبه ، وسلاح البارود في يده •

لذلك أعود اليوم ، لأنادي مرة ثانية الى السلاح يا عرب ، أنادي أمة ، لم تعد تحتاج الى ندائي ، لأنه لم يبق فيها نائم فأوقظه ، ولا ذاهل فأنبهه ، ولا ناس فأذكره ، ولا شحيح يضن بالقليل من ماله على وطنه وأمته وشرفه ودينه ، حتى أسخيه وأرغبه في البذل والعطاء •

أنادي شعبا ، دعاه ربه وهتف به قلبه ، فلبى قبل أن يسمع ندائي ، فعلام اذن أعود ، فأصيح الى السلاح يا عرب ؟

وهل تروني أعيد ما كنت قلته ، وأنا أعلم أن أبرد الكلام الحديث المعاد ؟ لا • ما جئت لأكرر كلاماً سمعتموه من قبل ، ولكن جئت لأخبركم بشيء جديد لم تسمعوه ، بل طالما سمعتم نقيضه •

سمعتم أن اليهود أقوياء ، وأن لديهم ما لا يحصى من السلاح ، وأن كل من في اسرائيل من رجل وفتى وامرأة وفتاة جندي تحت السلاح ، ولكن ذلك يا سادة غير صحيح •

ولدينا (في مكتب المؤتمر الاسلامي) الحجج والبينات على أن ذلك غير صحيح ، ان تسعة أعشار ما تسمعونه من هذا الكلام كذب •

وأنا لا أريد أن تحقروا عدوكم ، فان من يحقر عدوه ، ولا يبالي به ، لا يستعد له ، وهذا ما لا يرضاه لنفسه شعب ، ولكن لا أريد كذلك أن تبالغوا في تقدير قوة العدو ، حتى تهابوه وتخافوه ، فينال ذلك من حماستكم ، ويكون دعاية لعدوكم •

ان اليهود لديهم سلاح ، ولكن ليس كما يشيع هؤلاء المرجفون ، واليهود يتدربون على القتـال كل يوم ، ولكن قلوبهم هي قلوب من عرفتم في حارة اليهود في الشام ، وفي (الشورجة) في بغداد ، وهـذي أيام فلسطين ، فاقرؤوا أخبارها ، وتذكروا أحداثهـا ، وسلوا من كان فيها ، سلوهم هل تقـابل اليهود والعرب مرة وجهاً لوجه في معـركة مكشوفة الا كان الظفر للعرب .

ان اليهودي يقاتل حينمـا يكون في قلعة حصينة ، أو دبابة متينة ، يستر جُبنَه بالحجارة وبالحديد ، ولقـد نبَّهني الى هـذه الظاهرة (التي رآها كل من شهد معـارك فلسطين) قائد كبير ، وأفاض فيهـا وافتخر بأنه أول من انتبه لها ، هو (طه الهاشمي) ، وكان الحديث في فندق شطّ العرب بالبصرة .

فقلت له : لقد سجّلت هـذه الظاهرة من قديم ، من ألف وثلاثمئة سنة ، حين أنزل الله في كتـابه ، في وصف طبيعة هـذا الشعب قوله : (لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرىً محصنة أو من وراء جُدُر ، بأسهم بينهم شديد) .

فدهش ، وقال : آمنت بأن القرآن من عند الله .

ولو كان يتّسع الوقت ، أو لو كان يجوز لي الكلام ، لعرضت عليكم من وقائع الحوادث ما تمتلئون منه عجبا ، مما يجـري في هـذه الأيام لا في أيام الحرب ، ولكني مع الأسف لا أستطيع ، ومع ذلك سأغامـر وأروي لكم حادثة واحـدة ، رأيناها في القرى الأمامية ، رأينـا عربياً محبوساً في مخفر عنـد ضابط انكليزي فسألناه ، ماشـأنه ؟ قال : انه شوهد يجرّ بقرة عند الحدود ، فسألوه من أين جاء بها ، فتردد وتلعثم ، ثم تبين أنه جاء بها من الجزء الذي تحتله اسرائيل من فلسطين ، فعجبوا منه ، وقال له الضابط الانكليزي : هل تستطيع أن تأتي بغيرها ، قال :

نعم . وان أعطيتني هذا المسدس جئت بالحارس اليهودي ، فأعطاه المسدس ، وغاب الرجل ساعات وحسبوه قد فرّ به ، واذا هو يطلع وأمامه بقرتان ، والحارس مكتوفا .

يا أيها السامعون ، يجب أن تعرفوا وتؤمنوا أنه لم يغلبنا اليهود على فلسطين ، ومتى كان اليهود يغلبون العرب ، ولكن غلبتنا الدول القوية التي تحمي اليهود ، الدول التي أكرهتنا على الهدنة ، ولم ننهزم نحن ، وهل حاربنا حتى ننهزم ، انما انهزمت فينا الأخلاق التي استوردناها من بلاد غيرنا ، وتركنا لأجلها سلائق عروبتنا ، وأخلاق ديننا ، ولولا الهدنة لقذفنا باسرائيل الى البحر .

ونحن الى الآن قادرون على ذلك ، قادرون ان جدّدنا وأردنا ، وتسلّحنا ، فالى السلاح يا عرب .

الى السلاح فانّ كل استقلال لا يحميه السلاح قلعة مبنيّة على تل من الملح في مجرى السيل ،

الى السلاح فان كل حق لا يؤيده فمُ المدفع حق معرّض للاغتصاب ،

الى السلاح لتحموا به أوطانكم وايمانكم ، وتدافعوا به عن أرضكم وعن عِرْضكم ، ولتذودوا به عن أجداث أجدادكم وآثار أمجادكم .

لقد كنا من عشرين سنة ، اذا دعونا الى السلاح ، ألقت بنا الحكومة في السجن ، وكان في الشام حكومات يتنزّل عليها الوحي من قصر الصنوبر في بيروت ، وكان في كل وزارة مستشار ، والمستشار هو الوزير والوزير كاتب عند المستشار ، وعلى كل رابية قلعة فيها جنود من السنغال ، أعدّوا بنادقهم لصدور من يهتف بالاستقلال ، وفي كل قلعة مدافع موجهة الى هذا البلد ترقّب همسته بالحرية لترمي البلد بصواعق من بارود .

فاحمدوا الله على أن فينا اليوم حكومات منا ولنا ، اذا نادت وجدت

في الشعب المُصْغي ، وان نادى الشعب وجد منهـا الاستجابة ، وان هذه القلاع صارت لنا بعد ما كانت علينـا ، وان الرجل الذي كان قائد الشعب في معركة الاستقلال في الشوارع والسـاحات وفي المضـايق والأودية أيام الثورة هو رئيس جمهوريتنا اليوم .

فكيف كان هذا كله ؟

كيف ذهبت فرنسا من هذه الديار وما كانت تظنّ أنهـا ستذهب ، كيف جاءنا هذا الاستقلال .

كلا ، لم يكن هديّة جادت بهـا انكلترا ، ولكن نحن زرعناه ، في روابي ميسلون ، وفي جنّات الغوطة ، وفي شعاب الجبل ، وفي سهول حمـاة ، وعلى ضفاف الفرات ، وفي سوح حلب ، زرعنـاه بأيدينـا ، وسقيناه بالمـاء الأحمر من دمائنا ، وغذّيناه بمهج اخوانـنـا وأحبائنا ، وأجساد الآلاف من شهدائنا .

والا فهـل تظنّونه جاء سهلاً سائغـاً بلا كد ولا تعب ، فأين اذن ثوراتنـا ؟ وأين صبرنا عن الكسب والعمل ، واضرابنـا ستين يوماً متتاليات ؟ وأين تلك البطولات في شوارع الشام ؟

أنسيتم مقالتي (أطفـال دمشق) التي تناقلتهـا سنة ١٩٣٦ أربع وعشرون جريدة[1] ، وترجمت الى الفرنسية والانكليزية فعجب مما فيها الانكليز والفرنسيون ، المقـالة التي لم أبدع فيهـا ولم أتخيَّل ولكن وصفت مشهداً من بطولة أطفـال دمشق ؟ مشهد الطفل الـذي هجم بالمسطرة على الدبّابة وتسلّقها وهي تطلق النار ، المشهد الذي بلغ من روعته أن الوحش البـاريزي الذي كان في الدبابة تأثّر به حتى اضطر أن يذكر انسانيته التي نسيها ، ويفتح بُرْجه ويقبّل الصبي ويقـدم له قطعة شكلاطة ؟

---

(١) تجدونها في كتابي (دمشق) وقد نشر من قريب .

فهل تظنّون أن امة ، هؤلاء أطفالهـا تعجز عن أن تنال استقلالهـا بأيديها ؟ أو تظنون أنها بعد ما نالت استقلالها من فرنسا تعجز عن قتال هذه الحفنة من كلاب الأرض : اليهود ؟

أنعجز عنهم وقد حاربنا فرنسا ، لما كانت أقوى دولة بريّة في العالم ، ولم تستطع فرنسا أن تجتاز النهر الذي كان عرضه أربعة أمتار الا بعد ثمانية عشر شهرا ؟

لقد غلبنا فرنسا في معـارك استمرت سنتين ، فهل نجزع من حرب يهود ، وكانت صورة المجاهد منا ترعب الضباط الفرنسيين ، فهل ترعبنا صور المقاتلات من بنات اليهود ؟

لا يا أيهـا السامعون ، لا اننـا لم تنهزم أمام اليهود في فلسطين ، ولكن انهزمت أخلاقنا المستعارة لا أخلاقنا الأصيلة أمام ضغط الأقوياء ، من حماة اليهود ، ولن نعيد أبداً تلك الرواية المخزية .

لقـد طلع الفجر وأبصرنا الطريق ولم نرجع الى ظلام الليل ، لقـد عرفنا أنه لا يُحترم الا حقٌ القوي ، فالى القوة .

الى السلاح يا عرب ، الى السلاح ابذلوا في سبيله الغالي والرخيص ، الى السـلاح بيعوا الصحن والكرسي واشتروا السـلاح ، امنعوا عن أفواهكم وابذلوا للسلاح ، فانه ان كان معكم السلاح استرجعتم كل ما بذلتم ، وان لم يكن معكم سـلاح لم ينفعكم كل ما ادّخـرتموه .

الى السلاح اشتروه من الشـرق ومن الغرب ، واطلبوه من الانس ومن الجن .

الى السلاح يا عرب .

سلاح الحديد في أيديكم ، وسـلاح الايمان في قلوبكم ، وسلاح الأخلاق والعلم والمـال والله معكم ان تنصروا الله بأموالكم وأنفسكم ينصركم ويثبِّت أقدامكم .

حوادث مصر

أذيعت خلال أيام العدوان على مصر

أكتب هذا الحديث قبيل فجر يوم الخميس وأنا لا أستطيع السهر وليس السهر من عاداتي ولا أحب (الرادّ) وليس الاستماع اليه من صفاتي ، ولكني بتُّ الليلة أعانق الرادّ في الدار أتنقل من محطة الى محطة ، أتسقّط الأخبار عن مصر ، حتى شربت ثمالتها ورافقت البرامج كلها حتى بلغت نهايتها ثم لم أستطع المنام ، ولا أظن أنْ قد استطاعه نصف أهل الشام ، وكيف أنام على ناعم الفراش ، واخوتي في مصر يبيتون مُسهّدين مستعدين ، قد تأبّطوا بنادقهم ، ورابطوا يدفعون عن أرضهم وعِرضهم ، عن بناتهم وأولادهم العدوان المثلّث اللّعنات الذي نزلت به عليهم ؟ دول الشرّ الثلاثة : اسرائيل وبريطانيا وفرنسا .

كيف أهنأ بالسلامة والدّعة والأمن ، ومصر ما لها قرار من لذع النار ، وكيد الاستعمار ؟

كيف أشرب العذب من ماء الفيجة ، وأنشق الناعش من نسيم الوادي ، وأصغي الى أناشيد السكون في صفاء الليل ، وقومي هناك يتجرّعون الصاب ، وينشقون رائحة البارود ، ويستمعون الى دوي القنابل ؟

أأملأ عينيّ بلذيذ المنام ، واستمتع بشهي الأحلام وأهلي في مصر

يعـانون الغصص ويقاسون الآلام كلا ، ولست (ان فعلت) بالعـربي ولست بالمسلم ولست بالانسان .

وكيف والأصل من مصـر وتجمعني بمصر جوامع الدين واللسان ، والآلام والآمال ، والاخوة التي لا انفصام لها ، فأنا من مصر ومصر مني، وكل شدّة تنزل بمصر تنزل على ضلوعي ، وكل ألم يصيب مصر أحسّ به في شغاف قلبي ، والدم الذي يُراق على ثَرى مصر دمي ، والأرض التي يريد أن يستغلهـا العدو أرضي ، ان هتف المقطّم لبّاه قاسيون ، وان أنّ النيل أرق له بردى وان جُرح جندي من جنود مصر وجع له كل قلب في الشام .

اذا ألمَّت بوادي النيـل نازلـة	باتت لها راسيات الشام تضطرب
وان شكا في ذُرا الأهرام ذو ألم	أجـابه في رباع الشـام مُنتحب

مضى العهد الذي كان فيه سـوري ومصري ، ولبنـاني وعراقي ، وقوّض المسرح وهتـك الستار ، وعطّلت الرواية التي طالمـا مثّلها الاستعمار ، ولم تعد تستطيع خشبات" تُنصب على الطـريق أن تفرّق بين أبناء الوطن الواحد ، فيا أهل مصر لا تراعوا فكلنا معكم والله معنـا ومعكم .

لا تراعوا ان واجهتم عدوّين ، وحاربتم في جبهتين ، فلقد مرّ بمصر أيام كانت أشد وأقسى ، ونجت مصر بحمد الله من هول تلك الأيام .

واذا كنتم قد نسيتم أيام مصـر ، فدعوني أذكّركم بيوم منهـا ، بيوم أغرّ محجل ، وقفتم فيه موقفا ، لم ينقضِ بعدُ عجبُ التاريخ من عظمة ذلك الموقف ، يوم خرج هولاكو حفيد جنكيز بجيوش كالجراد فمرّ على البلاد كلها مرور العاصفة المدمِّرة ، لا تصدم شيئا الا تركته هشيما ، وجعلت الحكومات تسّاقط تحت قدميه والجيوش تتمـزّق بين يديه ، حتى أوصلته خيانة الوزير ابن العلقمي الى بغداد ، ففعل فيها ما لم تشهد مثله مدينة في الأرض .

وكان في بغداد أكثر من مليونين من الناس ، فاستمر القتل العام فيهم بضعة وثلاثين يوماً حتى قتل منهم أكثر من مليون ونصف مليون ، وانهتكت أعراض ، وارتكبت فظائع ، ومزقت مصاحف وديست ، وصيرّت المساجد مواخير وخمارات ، وأحرقت ثمرات العقول ونتاج الأفكار ، ومرّ جيش الموت على الشام حتى بلغ غزة ولم يبق الا مصر ، وظنّ ضعفاء النفوس أنه قضي على الاسلام فلا تقوم له قائمة أبدا ، وكانت مصر على عهد المماليك يحكمها غلام هو ابن أيبك ، وطار الجزع بألباب المصريين وكادوا يستسلمون لولا أن قيّض الله لهم شيخاً من دمشق هو عز الدين بن عبد السلام ، لجأوا اليه والتفّوا حواليه ، يلتمسون منه الهداية في هذه الظلمة المدلهمّة ، وكان عنده ما يطلبون ، عنده المصباح الذي يبدّد كل ظلمة ، ويهدي كل ضال ، القرآن ، فحملهم عليه ، ودعاهم اليه ، وشرع ينفّذ فيهم أحكام القرآن ، فألزمهم بترك الخلاف الحزبي ، ونبذ الترف والسرف واخراج الأموال المدّخرة ، أموال الامراء قبل أموال الشعب ، وانتخب الناس بالاجماع أميراً جديداً قوياً قادراً هو (قطز) ، ومشت مصر الى المعركة تحت راية القرآن التي رفعها هذا الشيخ .

كان التتار يا أيها السامعون في غـزة ، والصليبيون في السواحل وفي أرجاء الشام ، وكانت مصر بين عدوين هما الشرق كله والغرب كله ، وكانت مصر ضعيفة ، فاسدة الحكم ، واهِيَةَ القوى ، ومع ذلك فقد استطاعت مصر ، لما أثار ذلك الشيخ الايمان في صدور أبنائها ، وهاجَ النخوة في رؤوسهم أن تواجه التتار في عين جالوت ، وأن تنتصر عليهم ، وأن تنقذ الاسلام والحضارة ثم استطاعت بعـد سنين أن تحارب تحت راية الملك الظاهر بيبرس ، ثلاثة أعـداء معا ، أتدرون من هم ؟ التتار والصليبيون والبزنطيون وأن يكون لها الظفر بهم جميعا . هذه وقائع من التاريخ ليست خطبة حماسية .

فأي الفريقين أشد وأقوى ، التتر والصليبيون ، أم اليهود وفرنسا وانكلترا ؟

هذا ومصر اليوم غير مصر في تلك الأيام ، والشعور الاسلامي والعربي ليس كالشعور في تلك الأيام ، نحن الآن أفضل وأنبه بلا شك.

فلا تجزعوا من تلك المصائب المتتالية ، فما هي الا تدريب لنا ، نحن كالبطل الرياضي ، الذي كان المصارع الملاكم (السابق) ثم تكاسل ونام حتى فترت حماسته ، ووَنَتْ قوته ، ماذا يصنع هذا البطل اذا جاءت المباراة الجديدة ؟ ألا يكلف أنواع التمرينات الشاقّة ليعود اليه نشاطه ، ويرتدّ اليه جلده ؟ كذلك يصنع الله بنا .

لقد كنا أمة نزال وصدام ، وكنا أبطال المعارك وفرسان الميادين ، ولقد فتحنا الشرق والغرب وملكنا ما بين الصين وفرنسا ثم هجعنا طويلا ، وتوالت علينا أيام الخمول ، حتى لقد شككنا في أنفسنا ، وها نحن أولاء ندعى مرة ثانية لقيادة العالم ، اي والله لقيادة العالم ، ولا بد لذلك من تمرينات شاقة ، وهذه هي التمرينات ، وقد يموت منا رجال ، وتخرب لنا دور ، ويصيبنا الأذى ولكن ذلك كله يهون في جنب الغاية التي يريدها الله لنا ، لقد خبّرني من شهد أواخر أيام الحرب في ألمانيا أنها كانت تغِير على برلين خمسة آلاف طيارة ـ خمسة آلاف ، هل تسمعون ؟ تضربها ضرباً يزلزل الأرض ، ويرجّ الجبال ، حتى لكأن القيامة قد قامت ، وجهنم قد فتحت ، فاذا أفرغت أحمالها ، وصبّت رزاياها ، وانصرفت ، سكتت المدافع وخرج الناس من الملاجيء ودارت سيّارات الحكومة تقرع الاجراس معها صفائح كبيرة من الأخشاب ، والورق المقوّى ، ومسامير ، فكل من سقط جداره ، أو هدمت داره ، أخذ من هذه الصفائح ، فجعل منها جداراً مكان الجدار الذي انهدّ ، وبيتا بدل البيت الذي سقط فلا يكاد ينتهي الاصلاح ، حتى تعود

الغارة ، ويتكرر ذلك كل يوم وهم صابرون ، فلماذا نخاف ان القيت علينا بضع قنابل ؟ ولِمَ نهرب واحتمال الخطر في المكان الذي تهرب اليه ، كاحتماله في المكان الذي تهرب منه ، وما الفرق بيننا وبين الألمان ؟ أنحن مخلوقون من الطين ، وهم مصبوبون صبّ الحديد ؟ لا ، ولكنها العادة والمِرَان ، ومكابدة الأهوال ، وممارسة الخطوب ، وأنا لا أكره أن تتوالى علينا الغارات ، وأن نذوق لذْع الحرب ، ونكوى بنارها ، لنتخلّق بمثل تلك الأخلاق .

انا سنجزع عند الغارة الأولى ، وهذه طبيعة الانسان ، عند الغارة الأولى فقط ، والألمان جزعوا كذلك ، لما رأوا الغارة أول مرة ، ثم تتعوّدها كما تعودوها ، ان الألمان ليسوا أصفى منا جوهراً ، ولا أطيب أصلا ، ولا أقوى أعصاباً ، ولكن حياة الدعة والخمول ، والقعود عن الحرب ، كادت تفقد العرب أجمل سلائقهم ، وأحسن سجاياهم ، وهي الصبر والجلد ، واحتمال الشدائد ، ومقارعة الأعداء ، فجاءت هذه الشدائد لتردنا الى سلائقنا وسجايانا ، فيا أهل مصر لا تَرُعْكم الأحداث ، فالظفر لكم .

لن يعود يوم نابليون ، ولا يوم عرابي ، لقد كنا يومئذ نجهل الغربيين فنخافهم ، ونقابل بارودهم ونارهم بالسيف والرمح ، فعرفناهم الآن وأعددنا لهم مثل سلاحهم ، عرفنا أن دهاء الانكليزي وشجاعة الفرنسي خرافة من الخرافات ، وهؤلاء الفرنسيون يعجز نصف مليون منهم عن عشرة آلاف تجابههم في الجزائر ، وهؤلاء هم الانكليز ، قد فقدوا ذلك الدهاء وتلك البرودة ، وصاروا (يوم بور سعيد) في الطيش والحماقة مثل الفرنسيين .

ولقد وقفنا يوماً في وجه فرنسا ، يوم كانت فرنسا في أعقاب الحرب العالمية الأولى أقوى دول الأرض على البر ، وحاربناها سنتين وكنا

وحدنا ما معنا أحـد ، وما معنا من السلاح الا ما بقي بأيدينـا من أيام الأتراك ، أفتعجز مصر اليوم ومعها نصف دول الأرض ولديها السلاح ، ولديها الايمان ؟

فلا تخافوهم ، فما هذه الانذارات وما هذه التهديدات الا سلاح العاجز ، ولو كانوا يستطيعون النزول في أرض مصر لنزلوا ولكن ثقوا أنهم لا يستطيعون ، ولو استطاعوا أن ينزلوا فلن يستطيعوا البقـاء ، أو ما كانوا في القناة ، وكان لهم فيها قاعدة حربية لا نظير لها ، ولهم فيها ثمانون ألف جندي ، ثم أنزل بهم الهزائم وحمّلهم الخسائر بضعة آلاف من المجاهدين قبل بضع سنين ، أنسيتم حديثي عنهم[1] ؟

فاذا عجزوا عن بضعة آلاف من المجاهدين أفلا يعجزون عن جيش كامل ومن ورائه أمة بقضّها وقضيضها ، ومن وراء هـذه الأمة العرب والمسلمون وكل محب للسلام كاره للحرب ؟

لا لن يكون انشاء الله الا الخير ، ولكنه امتحان لصبركم وايمانكم ، فاصبروا فيا أهل مصر ، اصبروا واثبتوا ، واذكروا أنها قد مرّت بكم أيام أشد هولاً وأقسى وطأً وقد أعانكم الله عليها ، وستنجلي هذه الغمّة عنا وعنكم ونحن كلنـا معكم ويكون النصر لكم ما كنتم مع الله وما عملتم لاعلاء كلمة الله ، وما نشرتم راية القرآن وحاربتم بقلوب ملؤها الايمان والسلام عليكم ورحمة الله .

---

(١) انظر فصل (بطولاتنا في القناة) من هذا الكتاب .

في حوادث مصر أيضاً

اذيعت ايام العدوان

يا أصدقائي السامعين السلام عليكم ورحمة الله •

لقد قطعت صفّارات الانذار حديثي الماضي ، وكنت أخاطب فيه أهل مصر ، وأضرب لهم الأمثال بما كان ينصبّ على برلين في أواخر الحرب الماضية من ألوان البلاء ، من طيّارات الأعداء ، حتى اذا زلزلوا بها الأرض ورجّوا من حولها الدنيا ، وحسبوها قد سقطت الى الأبد ، اذا هي تقوم على رجلها حتى كأن لم يصبها شيء •

كنت أقول هذا الجمعة الماضية ، وما كان يقال الجمعة الماضية ، فيكون وثبة من وثبات الخيال وقبساً متّقداً من نار الحماسة ، يهزّ النفوس ويسمو بها عن الواقع ، صار الآن كلاماً خامدا ، مملولاً متخلفا عن الواقع ، صار كلاماً فارغا ، لأن الحوادث تسبق في هذه الأيام خيال الأديب •

ان العرب الذين ناموا قروناً حتى سبقتهم أمم الغرب مراحل في طريق الحياة قد وثبوا الآن يسعون سعياً ليعوّضوا ما فات ، انهم يقطعون في أسبوع واحد من الطريق ما كانت قطعته هذه الأمم في ربع قرن •

واذا كنت قبل أسبوع أضرب لمصر الأمثال على الصبر والاحتمال ، فأنا اليوم أضرب بمصر الأمثال للعالم •

لقد قاسينا نحن في الشام ، وقع المدافع ، ورأينا الحريق والدمار من

الفرنسيين المجانين ، وكنا معهم في نضال مستمر خمساً وعشرين سنة بلا انقطاع فتمرّسنا بالحرب وتعودنا مسّ الهول ، وكنت أخاف أن ترتاع مصر المسالمة ، أو تفزع اذا أحسّت نار العدو، واذا بمصر تُدهش لشجاعتها واحتمالها الدنيا ، واذا بمصر تغدو مثلاً أعلى في البطولة والاباء تتحدث عنه الأرض كلها واذا بمصر تقف موقفاً ، لو جاءت كل أمة بمواقفها المشرفة ، التي تكون أول ما تعقد عليه خناصرها اذا هي عدّت مفاخرها لم تجد فيها الا القليل النادر من أمثال الموقف الذي تقفه الآن مصر ، لقد بطلت خرافة بريطانيا العظمى ، بريطانيا التي لا تغيب عن أملاكها الشمس ، بريطانيا التي لا تغلب وأنها مثل الأسد الذي اتخذته شعاراً لها فهي تضرب دائماً ضربة الأسد وتنال دائماً حصّة الأسد .

لقد مزّقت مصر جلدة الأسد البريطاني ، فكشفت الخدعة الكبرى ، ظهر أن الأسد البريطاني ليس أسداً حقيقياً ولكنه ذئب هَرِمٌ عجوز قد لبس جلد الأسد ، انه أسد مسرحي .

انه كان يمرح في الأجمة ويهدّد بأظفار مستعارة .

ان فرنسا وانكلترا يا أيها السامعون كانتا تقاتلان بسيوفِ غيرهما ، انَ كل نصر نالوه خلال القرن الماضي انما نالوه بسيوفنا نحن ، بسيوف الهنود ، الذين كانوا يبنون صروح النصر لبريطانيا من جماجمهم ، وسيوف المغاربة الذين كانوا يغسلون عار الهزيمة عن فرنسا في كل معركة بدمائهم ، وانظروا كم مات من المغاربة ومن الهنود ، لتنتصر هاتان الدولتان اللئيمتان الجاحدتان الناكرتان للمعروف ؟ كم تيتّم من طفل ؟ وكم ترمّل من امرأة ؟ وكم ثكل من أم ؟ ليعلق وسام الانتصار على صدر جوفر في معركة المارن في الحرب الأولى وعلى صدر مونتغمري في معركة العلمين في الحرب الثانية ؟

بسيوفنا نالت فرنسا وانكلترا كل ما نالت من نصر ، أم حسبتم أن

الانكليز هم طاردوا رومل أسد الصحراء وعبقري الحرب ، انما طارده حتى تركه ما يقرّ له قرار فرسان المغاربة الذين تكافئهم فرنسا على ذلك بهذه الحرب الوحشية الدنيئة في الجزائر .

وها نحن أولاء نجيء اليوم لنكفّر عن هذه المواقف أمام الله وأمام التاريخ .

ان السيوف التي طالما كانت مع المستعمرين بالباطل جرّدت الآن لتكون عليهم بالحق .

لقد بدت بوادر الظفر .

لقد ظهرت تباشير النهار ولا يزال ظلام الليل ممتدا ولكن الأفق الشرقي قد بان فيه النور .

انهم لا يزالون أقوى ، ولكنهم في مثل ضياء الأصيل فيه بقايا النهار وأمامه الليل . ونحن في مثل غبش الفجر فيه بقايا الليل وأمامه النهار الطويل .

لقد رأينا أوائل الظفر ، كما رآها العرب يوماً في ذي قار . أرأيتم كيف كانت فارس والروم تقتسمان الأرض ، فلما انتصر العرب على الحملة الفارسية في ذي قار ، كان هذا النصر مقدمة للقادسية ونهاوند اللتين قضتا على الامبراطورية الظالمة العجوز ، امبراطورية كسرى ، لتقوم مقامها الجمهورية العادلة الفتية جمهورية محمد .

ان التاريخ يعيد نفسه ، وان ذي قار صار اسمها بور سعيد ان سيادة العالم لا تزال دُولة بين الشرق والغرب تنتقل دائماً من ههنا الى ههنا .

وها هي ذي اليوم تعود كرة أخرى الى المشرق ، وليرين من يكتب له العيش الى ما بعد أربعين سنة . اننا قد عدنا الى مكان الصدارة في الأرض .

وليس هذا خيال شاعر ، ولا كلام خطيب ، ولكنه المنطق الذي يسبقه دليله الى الأذهان .

لقد كنا نحن أقوى من أوربا وكنا أعلم منها ، وكنا الأساتذة لها ، وكنا الفاتحين لبلادها ، ولقد دخلناها مرة من الغرب حتى ركزنا رايتنا ونشرنا حضارتنا في قلب فرنسا ، ودخلناها مرة من الشرق حتى نصبنا أعلامنا وأذعنا علومنا ، حول أسوار ڤيينا ، فلما كان البعث الأوربي (الرونسس) وظهرت علوم لم تكن ، وأسلحة لم تعرف ، كان يتولى أمرنا العثمانيون ، فقعدوا مع الأسف ، أشد الأسف ، عن حمل هذه الأسلحة ، وتعلّم هذه العلوم فسبقنا القوم ، فالنقص ما جاءنا الا من فقد السلاح الجديد ، وجهل العلوم الجديدة ، ومن أننا أضعنا حماسة الايمان نتيجة لذلك ، وفقدنا الثقة بنفوسنا ، فاجتمعت علينا الدواهي الثلاث .

وها نحن أولاء قد تعلّمنا تلك العلوم ، وحملنا ذلك السلاح ، وشيء آخر هو أن حياة الغرب بأيدينا نحن بالبترول الذي ينبع من أرضنا .

ولم يبق الا أن نستعيد أيامنا لنعود كما كنا .

فلا تشكّوا بالنصر ، فان الشك في النصر شك في نفوسكم ، وشك في الله .

ها هو ذا السلاح في أيديكم فاستكملوا ايمانكم ، واستعينوا بربكم ، فانكم غالبون .

أنتم الغالبون ما كنتم مع الله ، والنصر لكم ما نصرتم الله ، وحاربتم لاعلاء كلمة الله .

وسيصاب منا رجال ورجال ، وستخرب لنا دور ودور ، وسيأخذ العدوّ مناطق من أرضنا ومناطق ، هذه هي الحرب ولكن هذا كله لا يفتّ في أعضادنا ، ولا يُدخل الضعف على قلوبنا .

ولقد مُحيت بولونيا من خريطة أوربا مرات ثم أعادتها عزائم أبنائها ، ولقد اكتُسحت روسيا مرتين ، مرة على عهد نابليون ومرة على عهد هتلر

ثم حررت روسيا نفسها ، وكل أمة في الدنيا تنال ويُنال منهـا ولكنها لا تموت ، واذا أصيبت مصر بأبنائهـا وديارهـا فقد أصيب الانكليز والفرنسيون أكثر ، (ان يمسسكم قرح" فقـد مس" القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين النـاس وليعلم الله الذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) .

واذا كان الانكليز يجعلون الانسحاب من دنكرك من بطولاتهم فان بطولة المصريين في الانسحاب من غزة وسيناء كانت أكبر لأنها قضاء على هذه المؤامرة الوسخة التي أرادوا فيها اقصاء الجيش عن مكان المعركة ليدخلوا مصر . على أن الذين قاتلوا في سيناء ليسوا اليهود ، ويَلي على اليهود ! متى كان اليهودي فتى الصدام وفارس المعارك ؟ لا ، ولكنهم أعـداؤنا في كل زمان وفي كل مكان : الانكليز والفرنسيون ، هم الذين لبسوا ملابس اليهود ، وقاتلوا في سيناء تحت راية اليهود .

ومع ذلك كله لم يستطيعوا أن يملكوا القناة ، ولا أن يقتحموا هذه القلعة المنيعة التي يحميها آساد مصر .

لقـد استطاعت مصر أن تقف في وجه انكلترا وفرنسا ، فمن كان يصدّق ذلك ؟

مصـر استطاعت أن تقف في وجـه انكلترا وفرنسا ، وأن تتلقّى غاراتهم الجنونية المجرمة بأعصاب الرجال الصابرين وأن تسقط طياراتهم وتغرق مدمّراتهم ؟

مـا كنت آمل أن أعيش حتى أرى هـذا ، فيارب لك الحمد . الحمد لله . الحمد لله .

اللهم ثبّت أقدامنا ، وأتمّ نعمك علينا .

وهبْوهُم عادوا لا سمح الله فملكوا القنـاة ، أما كانوا يملكون مصر ، أما كان لهم في القنـاة قاعدة حربية فيها ثمانون ألف جنـدي ؟

أما طيّر أحلامهم فيها وروّعهم وحرّم النوم على أجفانهم بضعة آلاف من الشبّان المتطوعين ؟ الشبان الذين حدثتكم حديثهم من وراء هـذا المذياع ؟ فكيف يؤمّلون الاستقرار في مصر الآن وأمامهم جيش مصر كله وشعب مصر كله ؟

ان أمل الانكليز بالعودة الى مصر كأمل امامهم ابليس بالـرجوع الى الجنّة ٠

لقد دالت دولة فرنسا وانكلترا ٠

لقد هتك الستار وظهرت الأسرار ، فافتضح الفرنسيون في سورية ثم في الهند الصينية ثم في الجزائر ٠ وافتضح الانكليز في الهند ، ثم في مصر ، وظهر أن قوّتهم ادّعـاء ليس وراءه الا الضعف ، وان مدنيتهم غِشاء ليس تحته الا الوحشية ٠

ان الانكليزي أو الفرنسي ، لا يتأخر عن شكرك ان ناولته المملحة على المائدة ، ولا يقصر في الاعتذار اليـك ان داس على رجلك خطأ في الطريق ، وان رأى كلباً مريضاً تألم عليه وحمله الى الطبيب ، وهو أنيق نظيف مهذّب اللفظ لا يستهين بذرّة من هذه الآداب ، ولكنه لا يجد مانعاً يمنع رئيس وزرائه أن يأمر فيصبّ النار الحامية على البلد الآمن ، فيقتل الشيوخ والنساء والأطفال، ويدمّر ويخرب ويذبح الأبرياء، ويفعل ما لا تفعله الذئاب ذوات الظفر والناب ، ويدّعي أنه هو المتمدن ؟!

أهـذه هي المدنية ؟ ان كانت هـذه المدنية وهؤلاء هم المتمدنين فلعنة الله على المدنية وعلى آهلها ٠

وانه لخير منها ألف مرة حياة النَوَرِ تحت بيوت الشعر ، ان أحطّ النَوَرِ (أقسم بالله) ليترفّع عن أن يفعل ما فعله ايدن ومواليه ٠

فاكفروا بالغرب وعودوا بوجوهكم الى الشرق ، عودوا الى سلائق العرب ، ففي العرب الوفاء والفضيلة والنجدة والاباء والشرف ، عودوا

الى آداب الاسلام ففي الاسلام الخير والعدل والحق والنصر والمجد ، وانصروا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه لينصركم الله ، واعلموا أن أجدادكم ما فتحوا الدنيا ولا حازوا الأرض بكثرة عددهم ولا بمضاء سلاحهم ، فأعداؤهم كانوا أكثر عددا ، وأمضى سلاحا ، بل لأنهم كانوا مع الله فكان الله معهم .

يا أيها الناس دعوا اللهو والترف ودعوا الخلاف والنزاع ، وكونوا جميعاً جنود الله في المعركة الحمراء ، فهذي بشائر النصر قد بَدَتْ لكم ، وهذي طبول الظفر قد دقّت أمامكم ، وهذا هو فجر يومكم الجديد قد انبلج من بور سعيد . فاصبروا فالنصر لكم .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

من بطولاتنا في القناة

اذيعت سنة ١٩٥٦

أسلاك البرق ، وأمواج الأثير ، والبرقيّات والاذاعات والصحف ، جعلت الأرض كلها كالدار الواحدة وجعلت أهلها جميعاً كالأسرة ، يتكلم رجل من أمريكا فيسمعه وهو يتكلم من في الصين ، وتقع حادثة في مصر فيهتمّ بها من في الهند وأوستراليا على السواء .

وصارت هناك موضوعات تشغل الناس جميعا ، ويتحدثون بها في وقت معا ، من ذلك موضوع القناة الذي يشغل اليوم كلّ ذهن ، ويتحدّث به كلّ لسان لذلك جعلت حكايتي اليوم عن القناة[1] .

وهي حكاية ، بل حكايات من التاريخ ، من صميم التاريخ القريب ، حوادث حقيقية وقعت من خمس سنين ، أرويها بلا زيادة ولا زخرف ، ليعلم الانكليز أن القلوب التي أبغضناهم بها لا تزال في صدورنا ، والسيوف التي حاربناهم بها لا تزال على عواتقنا ، وأنهم ان تقدموا للحرب شبراً تقدّمنا لها ذراعا ، ولا نقول هذا حماسة ، وادعاء ، فانا لنعلم اننا لسنا أقوى من انكلترا عدّة ولا عددا ، ولكن ان كانت الحرب ، لم تنفع انكلترا ذات العَدد ولا العُدد ، كما أنها لم تنفع فرنسا ، ذلك لأنه لا تغلب أمة في أرضها أبدا ، وليعلم السامعون من العرب ، ممن يحب مصر ، ويخاف على مصر ، ماذا فعلت مصر في القناة سنة ١٩٥١ ، لما كانت منطقة القناة كلها بيد الانكليز ، وكان لهم فيها قاعدة حربية أعدّت لتصمد لجيوش الألمان ، فلم تصمد لهجمات الفئة القليلة من شباب

(١) كنت أذيع برنامج (حكايات من التاريخ) .

الاخوان ، وكان لهم فيهـا ثمانون ألف جنـدي ، بطياراتهم ودباباتهم ومدافعهم وكل ما يلزم جيشاً فيه ثمانون ألف جندي . فحاربهم بضعة آلاف من شباب المصريين ، كلّهم من الطلاب والمدرّسين ، الذين تدربوا على الحرب لمّا كانوا متطوعين في حرب فلسطين .

ولست أروي الحوادث كلها ، ولا تتّسع لذلك عشرون من أمثال هذه الأحاديث ، ولكن أروي قليلاً منها ، على سبيل المثال عليها ، أرويه بلسان المحدّث بايجاز واختصار ، ولو أعملت فيه قلم الأديب لجعلت من القصة الواحدة ملحمة من أروع الملاحم .

وقد ترون هذه الأخبار ، أخبـار مجانين ، يتقدمون على الموت الأكيد ، وهي كذلك حقا ، والجنون في الدفاع عن الحق ، واقتحام الموت في سبيله احـدى المكرمات ، ومثل هؤلاء المجـانين يبنون للبـلاد استقلالها على أساس متين من قبور المستعمرين .

وهذه حادثة من الحوادث .

علمت قيادة المجـاهدين في منطقة القنطرة الشـرقية ، بأن باخرة انكليزية أفرغت في بور سعيد أسلحة وذخائر ، وان قطاراً سيحملها الى المستودعات البريطانيـة في الاسماعيلية ، ليصبّها على أبنـاء مصـر ، والمدافعين عنها ، فقرروا نسف هذا القطار .

وكان في القطار حرسٌ مسلّح متربّص لكل حـادث ، وكان على جانبي السكة طريقان للسيارات ، تمشي فيهما السيارات المصفحة تحمي القطار من كل خطر ، وكانت القطارات تمشي ببطء وحـذر ، وأمامها كشّافون يتوثقون من سلامة الطريق فلم يكن بدٌّ من خطة انتحارية ، ووضعت الخطة ، فتسلّل المجاهدون ليلا ، واختاروا المكان الصالح ، وزرعوا فيه الألغام ، تحت السكة ، ولم يبق الا أن يتقدم أحد الشباب لتفجيرها عندما يأتي القطار ومعنى ذلك موته الأكيد .

وتزاحم الشباب على ذلك ، تزاحموا على الموت في سبيل الله ، وكاد يؤدي بهم الأمر الى التنازع ، فاختاروا واحداً منهم بالقرعة ، وكان الذي اختير بالقرعة هو عبد الرحمن البنّان الطالب يومئـذ في كلية الحقوق ، فذهب واغتسل وصلّى ركعتين وودّع اخوانه ووصّاهم بأهله واستعدّ للقاء ربه ، فلما جاءت الاشارة من بور سعيد بتحرّك القطار ، لبس ملابس عامل بالسكة ، وذهب فاختبأ وسط الأشجار القريبة من الخط ، فلما ظهر القطار أشعل الفتيل ، فكان انفجار مروع ، زلزلت منه الأرض زلزالا ، وتطايرت العربات ، فنزل بعضها في القنـاة وبعضها في الترعة الحلوة (أي الأنهر) المتفرعة من النيل .

أما هو فقد شاهده بعض الحرس قبل أن يتمّ الانفجار ، فوجّهوا اليه الرشاشات ، وألقت عليه المصفحات نارها ، قال محدثنا ، فاعتقدنا أنه مات ، وترحّمنا عليه ، وكيف ينجو والأرض منبسطة ما فيهـا حفرة ولا أكمَة ولا بناء ، وقد ألقيت عليه آلاف الطلقات ، فلما انجلى الغبار ، اذا به قد أقبل يمشي ، ما أصابه والله خَمْش وخسر الانكليز الذخيرة كلها ، وأربعين قتيلا ، وعطّلت السكة أكثر من شهرين .

وهذه حادثة أخرى :

علم المجاهدون أن الانكليز يخزنون ذخائرهم في مستودعات كبيرة سرّية ، في منطقة أبو سلطان بجوار الاسماعيلية ، فقرروا نسف هـذه المخـازن .

وكان نسفها بل الاقتراب منها يشبه المستحيل ، لأن حولها خطوطاً من الأسلاك الشائكة المكهربة ، وحقول ألغام ، ومراكز حراسة متلاصقة ، تطوف بهـا دائماً دوريات مسلّحة ، وتحرسها كلاب بوليسية مدرّبة ، كان نسفهـا كالمستحيل ، ولكن هؤلاء الشباب ، قد باعوا حيـاتهم في سبيل الله ، واطّرحوا الحذر جانبـاً وأقبلوا يريدون الموت ويتمنونه ،

ومن يريد أن يمـوت ويحبّ الموت ، لا تستطيع انكلترا أن تخـوفه بالموت .

فاتخبوا سبعةً من طلاب الاسكندرية ، فلبسوا ملابس الرعـاة ، وأخذوا معهم أغناما ، ولبثوا أسبوعاً وهم يرعون حول منطقة المخازن ، ويتقرّبون من الحراس ، ويبيعونهم من اللبن ، حتى ألفوهم وألِفَتْهم الكلاب ، وهم يدرسون الموقف ، ويعيّنون مواقع الألغام ، ثم وضعوا خطة التسلل الى المخازن ، فجاؤوا في وسط ليلة شاتية ممطرة ، فغافلوا أحد الحرّاس وقتلوه بضربة واحـدة على رأسه ، وقصّوا الأسـلاك المكهربة بمقصّات خشبيّة ونزعوا من الألغام ما يجعل لهم طريقاً يمرّون منه ، حتى وصـلوا الى المخزن الرئيسي فوضعوا فيه ألغـاماً زمنية ، وانسلّوا ، فتفجّرت المخـازن ، وكانت نكبة عـلى الانكليز ، اعترف البلاغ الرسمي بأن الخسائر فيها قدّرت بمليوني جنيه أي عشرين مليون ليرة ، وخمسة وعشرين جندياً ولم يصب أحد من المجاهدين بأذى .

ومن أكبر المعارك التي خاضهـا هؤلاء الشباب ، من المـدرّسين والطلاب ، معركة التلّ الكبير ، في أول يوم من سنة ١٩٥٢

وكان في بلدة التـل قوّة منهم ، علمت أن قطاراً انكليزياً قادماً من الاسماعيلية محمّلا بالذخائر فوضعت الألغـام فانفجر ، فجاء الانكليز بالمهندسين تحميهم السيارات المصفحة لاصلاحه فتربّص لهـا الاخوان وردّوها بعد أن قتلوا عدداً من أفرادها ، فصمّم الانكليز على احتلال البلدة وأرسلوا قوى من مشاة الهاي لاندرز بقيادة البريكادير (الزعيم) ستيل ، ومعها كتيبة مظليّة .

وكان المجاهدون يستطيعون الانسحاب ، ولكنهم آثروا الدفاع ، فنصبوا المتاريس في الشوارع ، وسلّحوا القرويين ، وكان أمر القيادة ألاّ يدخلوا مع الانكليز في معركة مكشوفة ، ولكنهم تجاهلوا الأمر .

ووصلت قوى الانكليز وكانت معـركة دامت ثمـاني سـاعات ، واستعـان الانكليز بالدبابات الثقيلة ، وكان هجوم" وصفته الصحف الانكليزية بأنه أكبر عمليّة حربية بعد الحرب الثانية ، وقتل من الفريقين عدد" كبير ، وقتل القائد الانكليزي، واحتلوا البلدة ، ولكنّ المجاهدين نظّموا معارك متّصلة من حـرب العصابات ، تدمّر مراكز الانكليز ، وتصطاد رجالهم ، حتى اضطروا الى اخلائها .

وهذا حادث أعجب .

كان في الرباح في منطقة القنطرة ، مجموعة من المجاهدين ، مهمّتها ضرب السكة الحديدية وأنابيب المياه وأسلاك الهاتف باستمرار ومنع اصلاحهـا ، فسيّر الانكليز دوريّات مصفحة من الـدبابات الخفيفة لحمايتها ، فقرر المجاهدون ضرب هذه الدبابات .

وكُلّف بذلك المدرّس عبد الحليم ، واثنا عشر من الشباب فخرجوا ليلاً مسلحين بالقنابل اليدوية والرشاشات ومشوا على الاقدام مسافة طويلة حتى وصلوا الى بيت مهجور بجوار الطـريق ، فاختبؤوا فيه ، وجعلوا يرتادون المنطقة ليلاً ويدرسونها ، ثم اختاروا بقعة فيها أنهـار وسواق وأشجار عاليـة ، فنصبوا فيها كميناً ، وانتظروا طول الليـل ، والليل بارد والدنيا في الشتاء ، فلمـا اقترب الفجر جاءت ثلاث دبابات تمشي على مَهَل وكانت الخطة لضربها ، خطة جنونية لا يقدم عليها الا من باع نفسه في سبيل الله ، هي أن يتربّص أحـد الشباب في الشجرة فاذا وصلت الدبابات وثب اليها ورمى القنبلة على برجها ، وأطلق رشاشه على من فيها ، وكانت الدبابات تمشي آمنة في هـذا الليل الساكن ، قد اعتصم من فيها بالحديد ، وما دروا أن من الهمم ما يخرق الحديـد ، فما راعهم الا الرصاص ينزل عليهم ، وتفجّرت الدبابة الأولى من القنبلة ، وهوجمت الثانية وكانت على مسافة منها وسط المفاجأة بالقنابل اليدوية

وزجاجات مولوتوف ، التي تشتعل عند ملامسة الهواء ، فأُخذت قبل أن تطلق طلقة واحدة ، أما الثالثة فقاومت وبعثت تستغيث باللاسلكي ، وبرغم أن النجدات وصلت من البلاح وبور سعيد ومعها طائرات الاستكشاف خلال خمس وعشرين دقيقة لكثرة القوى الانكليزية المنتشرة في تلك المنطقة ، وتنظيم الحركات ، فان المعركة انتهت قبل ذلك ، وقُضي على الثالثة قبل وصول النجدة ، ورجع الشباب سالمين بعد أن أخذوا معهم أسلحة المنهزمين .

وفتّشوا المنطقة فلم يجدوا أحداً ، ووصف البلاغ الحربي الانكليزي هذه الوقعة بأنها آية في النظام وانها تدل على أن الذين قادوها من العسكريين الأجانب ، ورجّحت أنهم من الألمان .

وبعدُ فلما جاء لويس التاسع ملك فرنسا يقود الحملة الصليبية الأخيرة ، هُزم جيشه وأسر وحُبس في دار ابن لقمان في المنصورة فلما فكّر بالهجوم على مصر مرة ثانية ، قال له الشاعر :

قل للفرنسيس اذا ما جئته	مقالةً من ناصح بر فصيح
دار ابن لقمان على حلها	والقيد باق والطواشي صبيح

ونحن نقول للانكليز :

لقد كان لكم سنة ١٩٥١ ثمانون ألف جندي في القناة ، وكانت لكم فيها قاعدة عسكرية ، وفعل بكم هذا كله أفراد من الشباب في خمسة أشهر منعوا فيها المؤن من دخول المعسكرات حتى وقعت المجاعة ، وأجبروا ٦٠٠ ألف عامل على ترك العمل ونسفوا السكك وقتلوا الضبّاط والقوّاد ودمّروا الذخائر ، فكيف بكم الآن ، وليس لكم في القناة جندي ، ومصر كلها بجيشها وبنيها تنتظركم ؟

لقد جرّبتمونا وجرّبناكم ، فان شئتم فتفضّلوا .

اعلان حرب

نشرت سنة ١٩٤٧

كانت بُرهة ما بين الحربين ، امتحاناً لنا ، معشر العرب ، واختباراً لعزائمنا ، وقد خرجنا من هذه المحنة ناجحين مظفَّرين وأثبتنا أننا لم نُضِع ارثَ الجدود ، ولم نفقد عزّة الاسلام ، وأنه لا يزال في عروقنا دم الأجداد ، ولا تزال في قلوبنا عزائمهم وأرَينا الدنيا كلها أن استماتة المحقّ تغلب قوّة المُبْطِل ، حين حاربنا ونحن شعوب عُزْل جيوش الدول التي انتصرت في الحرب الأولى وسكرت بخمرة الظفر ، وحسبت أنها شاركت الله في ملكه ، وزاحمته على سلطانه ، فقابلتها شراذم منا ، ما لها سلاح الا سلاح الحق وما تنتزعه من أيدي عدوّها ، وثبتت لها وأرهقتها عُسْراً من أمرها ، حتى لانَتْ لها ، أو نزلت على مطالبها : حاربنا الانكليز في شوارع مصر ، وفي سهول العراق ، وفي ربوع فلسطين ، وحاربنا الفرنسيين في جِنان دمشق ، ورحاب حماة ، وشعاف الجبل وحاربنا فرنسا واسبانيا معاً في سفوح الريف الأقصى ، وحاربنا الطليان في طرابلس ، وثُرْنا على الغاصب في كل بقعة من أرض العرب ، وما خلّيناه ليلة من ازعاج ، ولا أرَحْناه ساعة واحدة ، ولكن كنا نحاربها شعوباً لا حكومات ، أما حكوماتنا فكانت علينا مع عدوها وعدوّنا ، حتى استقر في أفهام الشعب أن حكومته خصم له ، وحتى صرنا في الشام اذا أثَرْنا ثورة أو سيَّرنا مظاهرة ، أعملنا سلاحنا في اخواننا من رجال الشرطة ، كما نعمله في خصومنا من الفرنسيين ومن

كان يناصرهم علينا وقت الثورة من المغاربة والشراكسة والأرمن والسنغاليين ، وحتى كدنا نفقد على طول المدى ، توقير الأنظمة ، وتقديس القوانين ، لأنها من عمل الأجنبي وعمل عبيده ، لا يضعونها الا لمصالحهم ، وضمان منافعهم الى أن كان حادث مايو سنة ١٩٤٥ وجُنّ الفرنسيون الجنة الكبرى فأبوا الا أن يظهروا ديمقراطيتهم ، وعدالتهم ، ومبادىء ثورتهم ، دفعة واحدة ، فضربوا المدينة الآمنة بقنابل الطيارات ، وقذائف المدافع ، من القِلاع المنصوبات على الجبال ورموا بالنار ، الأطفال في المدارس ، والمرضى في المشافي ، والمحبوسين في السجون ، وأحرقوا البيوت وهدّوها على أهلها[1] ، وقتلوا رجال مصلحة الاطفاء الذين جاؤوا ليطفئوها ، وفعلوا كل ما يليق بحضارتهم وتاريخهم وأمجادهم .. ولا ينتظر غيره منهم .

هنالك رأينا أول مرة ، رجال الشرطة والدرك يقاتلون معنا ويدافعون عنا ، ورأينا الرؤساء والوزراء في صفّنا ، يحملون ما حملنا ، وينالهم ما نالنا ، فذكرنا ، وقد طالما نسينا ، أنهم اخواننا ، وأنهم منا .

ولبثنا من ذلك اليوم ، نرى الأدلّة متتابعة متتالية ، على أننا قد استقللنا ، ونزح العدوّ عنا ، وَجَلا عن أرضنا ، وصار حكّامنا منا ، لا أقول ان الحكومات قد صلحت حتى ما نجد لها فساداً ولا نلقى منها ضرراً ، كلا ، ولا خلص رجالها من أوضار هذا الماضي ، ولا أزالوا آثاره ، ولا يمكن أن تزول في أربع سنين وقد لبث الغاصبون وأعوانهم، يثبتونها ويبنونها ، دائبين على بنائها عاملين على تثبيتها ، خمساً وعشرين سنة ، ولكن أقول ، أننا (أخذنا) ننزع من نفوسنا تلك الصورة السوداء للحكومة ونغسل عنها صبغة العداوة التي كنّا نراها مصبوغة بها ، ونعيد الى أفهامنا توقير الأنظمة والقوانين ، لأنها (بدأت) تصير من صنع أيدينا ، و (شَرَعَ) واضعوها يفكرون في وضعها لمنفعتنا ،

(١) انظر خبر ذلك في كتابي (دمشق)

وضمان مصلحتنا ، لا لمنفعة الوزراء الحاكمين ، ولا لمصلحة الغرباء الغاصبين .

ثم تتالت الآيات والدلائل ، وكانت جامعة دول العرب ، وكانت المقاطعة القانونية للصهيونيين ، وكان اجتماع ملوك العرب ورؤسائهم ، وكانت رحلة النقراشي الى أمريكا ، وقوله فيها ما أجمعت الكلمة على أنه لا يقول أكثر منه خطيب متحمّس ، ولا مؤرّخ حكيم ، ووجد فيه كل مصري ترجماناً عن أفكاره ، ومعبّراً عن مقاصده ، وكان موقف فارس الخوري من قضيّة مصر ، موقفاً سرّ كل عربي في الدنيا ، وكانت فتنة سورية الكبرى ، وكان رأي الحاكمين في الشام والمحكومين جميعاً ، ورأي الدول العربية كلها (الا مملكة الأردن) واحداً فيها ، ثم كان هذا الحادث العظيم الذي عقدتُ له هذا المقال ، والذي سيعقد عليه في تاريخ العرب ، فَصْلٌ مُتْرَعٌ بالفضائل والأمجاد ، والذي سيكون مولد (الشرق الجديد) كما كانت هذه الحرب الماضية مصرع (الغرب العتيق) . والأيام دول والدهر ميزان ، فما ترجح كفّةٌ الا لتطيش ، وما يرتفع طائر الا ليهبط ولقد أشرقت من الشرق شمس الحضارة ، من مصر وبابل والشام ، ثم مالت الى الغرب ، الى اليونان وروما ، ثم عادت تَطْلُع من الشرق مرة ثانية ، من المدينة ودمشق وبغدادوالقاهرة، ثم مالتْ الى باريس وبرلين ولندن ، وهذا يوم ثالث ، قد أوشكت أن تشرق شمسه على هذا الشرق ، فينفض عنه غبار المنام ، ويهب . لقد انقضى الليل ، وأذّن المؤذّن من ذرى لبنان . من اللجنة السياسية للدول العربية ، التي قرر فيها رجال مسؤولون ، لا أدباء متحمسون ، وأعلنوا بلسان حكوماتهم ، انهم سيحلّون عقدة فلسطين ومصر ، كما حلّ الاسكندر عقدته المشهورة : بالسيف !

هذا هو الحادث العظيم ، وقد قرأ القرّاء تفصيله في الصحف فما

أعيده عليهم . وهذا أول الجد ، وهذا الذي كنا نتمنّى بعضه فلا نصل اليه ، ونطلبه فلا نجده ، وهذا الدليل على أننا استقللنا ، وعلى أن حكوماتنا منا والينا ، وأنها تنطق بألسنتنا ، وأن هواها هوانا ، وأنه لم يبق في رجالها من يصانع عدواً ، أو يخافه ، أو يتزلّفُ اليه . وانّ جيوشنا لنا ، تسالم من سالمنا ، وتعادي من عادانا ، وتَذودُ عن بلادنا ، وكل بلد عربي بلد العرب كلهم ، وكل عدو له عدو لهم ، وكل قضية له قضية لهم .

* * *

اننا نغفر لحكوماتنا ، بهذا الموقف ، كل ما لقينا منها في السنين الخوالي ، ونعدُّه اسلاماً منها بعد كفر ، والاسلام يَجُبُّ ما قبله ، فلْيحسن اسلامها ، ولا يكن كلمةً تقال باللسان : انها قد أعلنت الحرب في الخارج ، فلْتُعلنها في الداخل ، لتمنع المدد عن عدوّها ، فما في الدنيا عاقلٌ يحارب عدواً ويدفع اليه ما له ليقويه به على نفسه ، وولده ليُربّيه على كُرهِه ، ولْنبحث عن الثغور التي تذهب منها أموالنا اليهم فتسدّها . بالمقاطعة الاقتصادية ، لا بالقاء المواعظ للترغيب فيها ، والخطب للحثّ عليها ، لا ، فهذا كلام فارغ ، ولكن بالقوانين الصارمة ، والعقوبات الشديدة ، كما حرّمت معاملة الصهيونيين بقانون ، وحدّت لها الحدود الرادعة ، والعقوبات المانعة .

وبذلك ترتقي صناعتنا ، وتجود أخلاقنا ، لأننا سنصنع ما نستطيع صنعه مما نفقده بالمقاطعة ، ونصبر عن باقيه ، وقد صبرنا مدة الحرب عن كثير من الضروري ، وتصبر انكلترا اليوم عن الخبز المُشبع في سبيل وطنها ، ولا تقول شيئاً ، فهلاّ في مثل هذا قلّدناها ؟

على أن في بلادنا (أعني في بلاد العرب) كل ضروري ، ولا نفقد بهذه المقاطعة الا قليلا من وسائل الترف ، مما يضرّ ولا ينفع .

ولتضع الحكومات العربية القوانين الصريحة باغلاق كل مدرسة أجنبيّة ، انكليزية أو فرنسية أو أمريكية ، والا ذهب عملنا هبَاء ، وكان عبثا ، وأخرجت هذه المدارس من أبنائنا أعداء لنا ، وأعواناً لعدونا ، كما وقع في الشام ، حين تولّى ضرب دمشق رجل عربي أبوه شيخ ، اسمه علاء الدين الامام ، عليه لعنة الله .

فاذا صنعت ذلك كان علينا ، أن نعلن الهدنة بيننا وبينها ، ونكفّ في هذه الأيام عن معارضتها ، لنتعاون جميعاً على حرب عدونا وعدوّها ، وكان على كل شاب في بلاد العرب كلها ، وكل شيخ ، وكل امرأة ، أن يعلم أنه جندي في هذه الجبهة وأنه يجب عليه أن يعمل فيها شيئاً : يمشي الى القتال ، اذا جدّ الجدّ ، وجاءت ساعة القتال ، وكان قوياً قادراً ، أو يبذل الفضل الزائد من ماله اذا كان من أصحاب المال ، أو يحارب بقلمه وبلسانه ، اذا كان من أصحاب الألسنة والأقلام ، وعلى كل واحد منا ، وعلى كل واحدة ، أن يحرم على نفسه كل شيء أجنبي ، فلا يأكله ان كان مأكولا ، ولا يشربه ان كان مشروباً ، ولا يمسّه ان كان طيباً ، ولا يَلبسه ان كان ثوباً ، ولا يقرؤه ان كان كلاماً ، ما لم يكن علماً خالصاً ، أو أدباً انسانياً صرفا ، ولا يتداوى به ان كان عقّارا [1] ، ما لم يكن مضطراً اليه ولا يجد ما يسدّ مسدّه ، ولا يرسل ابنه الى مدرسة أجنبية ، ولا يَدَعه يذهب في السياسة والاقتصاد مذهباً أجنبياً ، وأن نمحو أسماءهم من شوارعنا وميادينا ، ونَطْمس ذكرهم من مدارسنا وبرامجنا ، الا ببيان حقائقهم ، وهَتْك السّتر الخادعة عنهم ، وأن نداوي نفوسنا من هذا السلّ القاتل الذي هو احتقار نفوسنا ، وتعظيم الغربيين ، وأخذ كل ما يأتي منهم أخذ الضعيف ، وأن نوقن أننا أقوياء حقاً ، أقوياء بماضينا وأمجادنا ، وبما تركنا في الدنيا من أثر خيّر نبيل ، وأقوياء بعَددنا وبعزائمنا ، وبأن الحق معنا ، وأن البلاد بلادنا ، وأن

(١) العقّار الدواء وجمعه عقاقير

فلسطين لنا ، لن يغلبنا عليها ، (شحاد) صهيوني ، ولا محتال انكليزي ، ولا لص أميركي ، لا والله ولا الجن ولا العفاريت ، اننا والله سنمضي اليها على كل سيارة وكل قطار وكل دابة ، ونمشي على أقدامنا ان عز الظهر ، ونملأ اليها كل طريق ، ونسلك اليها كل سبيل ، حتى تنترعها رجالا ، ان أعوزهم السلاح ، فما يعوزهم النبل ولا الاقدام ، رجالا لا يحبون الحياة الذليلة ، ولا يهابون الموت الشريف ، ولا يتزحزحون ولا يريمون ، ما دام في صدورهم قلوب تخفق ، وفي صدورهم نفس يطلع وينزل .

* * *

فيا أيها الحاكمون ، يا من صرخوا من قمم لبنان هذه الصرخة المدوية ، اثبتوا وأعلنوا الحرب ، اذا لم تعطوا الحق الا بالحرب : حرب الكلام ، وحرب الحسام ، وحرب الاقتصاد ، فنحن وراءكم ، ونحن أمامكم ، ونحن معكم ، ما نحن للجزيرة ، ولا نحن لهذا الماضي ، ولا نحن لمحمد ، ان وقفنا أو ارتددنا ، حتى نطهر فلسطين من كل رجس صهيوني ونطهر من أنجاس الاستعمار كل بلاد العرب ، ونعيد الحضارة والعزة الى الشرق ، على رغم أنف الظالمين !

تحية البطلين

نشرت سنة ١٩٤٧

الى البطلين العربيين اللذين علّما أهل الأرض أن في الوجود شيئاً أقوى من الحديد ، وأمضى من السيف ، وأحمى من النار ، وأنكى من القنبلة الذريّة ، هو الايمان .

اللذين تخلّفا عن بدر والقادسية واليرموك ليطلعا في الغوطة ونابلس والريف ، فيكتبا بالدم على جبهة الثرى ، أن العزيز لا يذلّ ، وسليل من حكموا الدنيا لا يحكمه في بلاده أجنبي ولا غاصب .

اللذين أثبتا للعالمين أن العرب الذين سادوا في أول الدهر سيسودون في آخره .

الى القائدين العبقريين[1]

تقدير الأدب للبطولة ، وتحيّة القلم للحسام .

* * *

أمّا عبد الكريم فلم أره ولا أحبّ أن أراه لتبقى له في نفسي هذه الصورة العلوية الخالدة ، لا تفسدها معالم اللحم والدم في الانسان الذي يأكل كما يأكل الناس ويشرب ، ويرضى ويغضب ويجدّ ويلعب ، وليكون اسمه أبداً في ذاكرتي مع أسماء العباقرة الخالدين ، القادة السادة الهداة، خالد وعمرو وقتيبة وابن القاسم وابن نافع وطارق ، الذين أفاضوا على

(١) أما أحدهما فالرجل الكبير الصالح الثابت على الحق الأمير عبد الكريم الخطّابي وأما الآخر فنسأل الله حسن الخاتمة .

الحرب الحقّ والرفق فجعلوها مقدّسة مشروعة ، وأثاروها لله لا للكسب ، وللخير لا للشر ، فاستولدوها الحياة والحضارة والسلام ، وما كانت تلِدُ الا الموت والخراب والانتقام .

وأما الآخر فقد عرفته في بغداد ، قبل أن تعرف بغداد بطولته ويشهد العراق عبقريته ، فكنت أزوره في داره في الكرّادة أنا وأنور العطار ويزورنا في مثوانا في الفندق ، وأضرب معه في آفاق الأحاديث ، وأراه مسترسلا على سجيّته ، منطلقاً مع طبيعته ، وأتحرّى خلائقه ، وأتقرّى سلائقه ، فأراه يعلو في نظري ان طالما نزلت الخلطة بالرجال ، ويكبر ان صغرتهم ، وأنا أشهد أني لم ألق في عمري من (الرجال) ، وقد قاربت الأربعين ، وقد سكنت الشام والعراق ومصر والحجاز الا (رجالا) لا يشغل عدّهم أصابع اليدين وأشهد أن من أكملهم رجولة ، وأفتاهم فتوة ، وأظهرهم قوّة ، في جسمه وعقله وقلبه وضميره : فوزي القاوقجي .

عظيمان جهلا نفسيهما ، فحسبا أنهما اثنان من الناس خلقا ليعيشا كما يعيش الناس ويموتا كما يموتون ، لا تحتفل بمولدهما الدنيا ولا تضطرب لموتهما الأرض ، ولا يحسّ بهما التاريخ ، وتلفتا يفتشان عن مهنة يعيشان منها فوجدا في قلبهما الميل الى الجنديّة لأنها مهنة البذل والبطولة والنبل وخوارق العادات ، ولكنهما لم يجدا في أمّتهما الجيش العربي ، فتطوّعا لخدمة الجيش الأجنبي ... وتحرّكت العظمة الفطرية فيهما فكانا ضابطين نابغين ، ولكنها ظلّت حبيسة في سجن الوظيفة ، مقيّدة بقيد القانون ، حتى جاء اليوم المقدور ، فنقبت السجن ، وحطّمت القيد ، وانطلقت تملأ الأرض ، وتنتزع الزمان .

أخوانِ ائتلفا ولم يتعارفا ، وتكلّما وما كان بينهما كلام ، وتواعدا وبينهما بحر العرب[1] بعرضه ، على أن يلتقيا في مصر ، فجاآها بعد

(١) هو بحر العرب لا البحر الابيض المتوسط .

ما زرعا طريقيهما اليها مفاخر للعرب وأمجاداً ، وبعدما حارب هذا بشعب أعزل ، وقبائل بدويَّة ، دولتين عظيمتين : فرنسا واسبانيا حشدتا له مائتين وخمسين ألفاً ، ونازلهما فأنزل بهما الهزائم وجرَّعهما شراب الموت، وقارع ذلك دولتين عظيمتين : انكلترا وفرنسا وفلَّ جيوشهما في الشام وفلسطين والعراق . وبعدما أثبتا للدنيا أن العربي لا يُستعبد ولا يَهون .

لقد عاد فوزي الى وطنه سورية على رغم فرنسا ، فلما لم يرَ فيها مستشاراً في دائرة وكانت الدائرة هي المستشار ، ولا شاهد قلعة فرنسية على رابية ، ولا داراً فرنسية في شارع ، ولا لوحة فرنسية على مَتجَر ، بكى فرحاً ، بكى (الرجل) الذي لم يبكِ وهو بين شقَّي الرَحى التي تديرها يد الموت . واستقرَّ عبد الكريم في مصر على رغم فرنسا ، فلما رأى الملك العربي ، والجامعة العربية ، والشعب العربي ، بَكى فرحاً ، بكى (الرجل) الذي لم تُبكهِ خمس وعشرون سنة ، في منفى سحيق وضعته فيه فرنسا التي أقسمت له بشرفها أنها لن تأسره ... فلمَّا تمكَّنت منه كان وفاؤها له ، على مقدار شرفها ...

لقد شهد الرجلان مئات المعارك ، وحملا مئات الجروح ، ولقيا مئات الشدائد ، وها هو ذا فوزي يفتِّش عن ميدان جديد للجهاد ، وعبد الكريم يستجمّ ليعود الى النضال ... وكذلك تكون الرجال .

لم يرض فوزي أن يكون كهؤلاء الذين جَنوا على الجهاد لما تسمّوا كذبا بـ (المجاهدين) ... وما جاهدوا ولكن قتلوا الثورة ، وفرَّقوا أهلها ، وسرقوا أموالها ، وعادوا اليوم يأكلون ويشربون ، وينعمون ويتمتَّعون باسم الجهاد الذي لم يكونوا من أهله ، فَعافَ المناصب والمراتب ، وعزف عن الأموال ، وآثر أن يبقى كما كان مجاهداً حقاً ، لا يلقي سلاحه ، ولا يغمد سيفه ، حتى لا يبقى في الوطن الأكبر شبر واحد يحتلّه مستعمر ، وكذلك تكون الرجال .

هذان هما القائدان البطلان ، فتقدّما يا أيها البطلان القائدان فهذا هو الجند مُعَدّاً ، وهذا هو الجيش لا ينقصه الا القائد ...

هذا الشعب كله جيش مُعَد ، لا يملّ الجهاد ، ولا يضنّ بالضحايا ، ولا يعرف الونى ، ولا يدركه الكلال ، فادعواه باسم الوطن ، باسم الأرض ، باسم العِرْض ، باسم الدين ، وانظرا كيف يلبّي هذا الشعب الدعـاء ...

هذا الشعـب لا أعني (كِبَاره ...) الذين فتنتهـم المناصب ، ولا تجّاره الذين تعبّدتهم المكاسب ، ولا فُسّاقه الذين عاشوا لتقليد الأجانب في البلايا والمصائب ، وكانوا في جسم أمّتهم حيّات وعقارب ، ولكن أعني الشباب ...

ان الشباب هم أرباب المُثُل العليا ، هم الأطهار ، هم بناة الوطن ، هم الذين اذا جدّ الجدّ سدّوا آذانهم عن أصوات المفرّقين الهدّامين فلم يكن فيهم من حزبيين ، يتقاتلون ليخسر الوطن ويربح الزعماء ، ولكن عرباً مجاهدين ، كارهين للاستعمار والمستعمرين ، ثائرين على الظلم والظالمين ...

أولئك الشباب الذين تعلّموا منكما أيها البطلان كيف يتّخذون قضية فلسطين والمغرب عقيدة ويجعلونها لهم دينا ، لا يرون لمن يقرّ الاستعمار في بلاده وهو يقدر على دفعه ايماناً ، ولو صلّى وصام وحجّ وزكّى ، لأن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين .

ولأن من مات ولم يجاهد ولم تحدّثه نفسه بجهاد مات ميتةً جاهلية .

لقد أقسم هؤلاء الشباب ليبذلن الدماء والمهج ، وقاموا للنضـال ولكنهم افتقدوا القائد فقعدوا . فتقدما يا أيها البطلان ، يا بطل المشرق ويا بطل المغرب .

واعلما أنكما حاربتما عدواً قوياً ، بأمة كانت غافلة ، وقـد ضعف اليوم العدو ، وتيقّظ الغافلون ، فحاربا مرة ثانية وثالثة وتاسعة وعاشرة ،

حاربا اذا لم تُعطَيا الحق كاملاً فما في الدنيا شريف يزدري الحرب في سبيل الحقّ والحرية والشرف ، وقد حارب الفرنسيون لما وطئت بلادهم، وان كانوا في الحرب نعاماً تحسنُ الفرّ لا أسوداً تجيد الكرّ ، وحارب الانكليز ، وحارب الأمريكيون ، وحاربت قبائل البوير ، وحارب أهل الحبشة ، وحارب هنود أميركا يوم دخلوها عليهم ... وحاربت كل أمة على ظهر الأرض . وكانت هذه الحرب المقدّسة خلقاً في طبع كل أبيّ شريف لا يكون من يفقده أبيّاً ولا شريفاً ، لا يكون الا كلباً ، بل ان الكلب يحارب دون ِوجاره ، وكل حيوان حي يدافع عن ذماره ، حتى الخنزير البري ... فهل يريد أنصار المفاوضات والمحادثات أن نكون أقلّ من الخنازير ؟

كلا ، وأنف الكاره في الرغام . كلا ، ولكنْ أكرم من كل كريم ، وأعزّ من كل عزيز ، وأسمى من كل بشر أظلّته السماء وحملته الغبراء . والا فما نحن لأولئك الأجداد ، ولا نحن لرمال الجزيرة ، ولا نحن لمن حملوا نشيد (الله أكبر) ومشوا حتى صكّوا به سمع الزمان ، وراعوا به جنّ الفلا ، وملأوا به كل سهل وجبل حتى دانت لهم الأرض ومن عليها، ولا نحن لمحمد .

كلا ، نحن سلائل الفاتحين ، في عروقنا دماؤهم ، وفي صدورنا قلوبهم ، ولنا عزّتهم ، ولئن فقدنا السلاح فما فقدنا العقل الذي يصنعه، ولا اليد التي تَشْحَذُه[1] ، على أنه اذا أعوزنا السلاح أخذناه من يدِ عدوّنا وجالدناهم به . وكذلك فعلنا .

لن نهاب بعد اليوم غربياً ، ولن نثق به أبداً .

لقد مات العهد الذي كنا نخاف فيه أن يغضب صعلوك من المنتسبين الى فرنسا فتغضب الامتيازات .

لقد قضى العهد الذي كنا نرى فيه فرنسا وأخواتها أمم الحرية

---

(١) تشحذه أي تسنه وتحدّه لاتشحده !

والديمقراطية والمدنية وحقوق الانسان .

لقد أبدت الحقائق وجوهها التي كانت مُبرْقَعة ورآها الناس كلهم الا هؤلاء العميان الذين طمست أبصارهم وبصائرهم المدارس الفرنسية في الصغر ، والمواخير الفرنسية في الكبر ، وهم بحمد الله أقلّ من القليل .

لقد رأى الناس فرنسا على حقيقتها أمة همجيّة تمنع الخبز عن الجائعين ليموتوا جوعاً ، وانكلترا تنصر الصهيونيين على الفلسطينيين ، والهولنديين على الجاويين ، وأمريكا تقول لصاحب البيت ، أخرج ليدخل اللص ويأخذ دارك ، ولكن خسأ اللص وخسأ من ينصره .

ان دون الحمى آساداً .

أنتم أيها الأميركيون لا تدركون ما هي قوانا لأنكم لا تعرفون الاّ المادة ، انكم لم تسمعوا بأخبار الفتوح الأولى في الشام والعراق ومصر والأندلس ، ولا بأخبار الفتوح الآخرة في الغوطة والرميثة وجبل النار وريف المغرب ، فاسألوا عنها فارس والروم واسبانيا وفرنسا وانكلترا ...

انكم تحسبون قضية فلسطين كقضية سرقة في شيكاغو ، تدخلون بالرشاشات فتنهبون المخزن ...

كلا ، والحيّ القيوم ، لن تكون لليهود دولة في فلسطين[1] ولن يكون للفرنسيين اتحاد مع المغرب ، حتى لا يبقى في هذه البلاد كلها حيّ يمشي . لن يأخذوها حتى يروا ويرى من يعينهم يوماً يذْهَلُ له كتّاب التاريخ ، ويصيبهم من هوله الجنون ، يوماً لا ترون فيه تاجراً في دكانه ، ولا موظفاً في ديوانه ، ولا تلميذاً أو مدرساً في مدرسته ، ولا قاضياً في محكمته ، ولا امرأة في دارها . وانما ترونهم يسيرون اليكم جميعاً يقاتلونكم ، ان عجزوا عن السلاح بأيديهم ، وصدورهم ، ويستنزلون غضب الله

---

(١) وان هي كانت فلن تبقى .

عليكم ، فأبيدوهم يومئذ بقنابلكم الذريّة ، اذا مُحيت الانسانية من الأرض ، واستبيح قتل الشعوب ، واذن فستنبت الأرض التي تسقيها دماؤهم أمة جديدة تقاتلكم دون أرضها وحماها .

وينلكم ان الله في الوجود ، ما استقال ولا أحيل على المعاش ، وانتا مع الله نستعينه عليكم ، والله أكبر منكم ، هذا نشيدنا الذي يهوّن علينا كل خطر ، ويصغّر كل عدو مهما تكبّر : الله أكبر .

لقد علّمنا ديننا أن نستوهب الحياة بطلب الموت ، وحبّب الينا نبيّنا الشهادة . نلحقها اذا هربت منا ، ونفتّش عنها اذا ضلّت عنا . فبماذا تخيفون أمة تريد الموت ؟

نحن نريد الموت ونسعى اليه ، قد أعددنا الجيش للجهاد ، وهيأنا القوى للجلاد ، فتقدّما يا أيها البطلان القائدان ، تقدما فاقتحما النار ، وخوضا البحار ، فانتا معكما لن نرجع ولن نلقي السلاح ولن ندع الجهاد ، حتى لا يبقى في دنيا الاسلام ، وأرض العرب ، علم لأجنبي ، أو حكم لمستعمر ، والله معنا . والله أكبر !

القول للسيف ليس القول للقلم

نشرت بعد قرار التقسيم سنة ١٩٤٧

لو كان للكلام الآن مكان لقلنا فبذَذْنا القائلين ، ولبعثناها في الأرض مقالات تشتعل حروفها ناراً ، وتتفجَّر كلماتها قنابل ، ويكون منها براكين تنفث الحمم ، ونحن (العربَ) أقرَّت لنا الدنيا بأنّا أصحاب البيان ، وفرسان المنابر ، وأنا أرباب الفعال ، وأبطال الميدان ، ولكن عهد الكلام قد انقضى ، وستسمع الدنيا غداً عنا ، كما سمعت منا ، أحاديث تشيب ناصية الدهر ، وتحرق فؤاد الصخر ، وتحيِّر من هولها ذوي الأحلام ، وسترى الدنيا أن الذي نهدِّد به من القوة التي خبأها الدهر في أعصابنا ، والتي صنعها لنا ميراث آباء صدق ، في عشرة آلاف معركة مظفَّرة خاضوها ، ومائة ألف قلعة منيعة اقتحموها ، وألفِ ألفِ روح طاهرة ، في سبيل الله والحق أزهقوها ، حقائق ، ليست خطابيات تسود بها الصحف ، ويتسلى بها القراء .

ولئن أخذت الأيام السلاح والمال منا ، فوضعتهما في أيدي عدوِّنا فما أخذت منا ايماننا ولا مضاءنا ، ولا سلبتنا عزَّتنا ولا نُبلنا ، ولا بدَّلت جوهرنا ، ولا جعلت عدونا مثلنا ، لأن الجبان الشاكي السلاح ، لا يغدو بالسلاح بطلا ، والبغل المحلّى سرجه بالدرّ لا يصير بالدر جواداً ... والأمم الواغلة على المدنية ، العابثة بالمبادىء الانسانية ، المتَّخذة العلم ذريعة الى التدمير ، والفنّ وسيلة الى الفساد ، ليست مثل الأمة التي حملت وحدها أمانة المدنية دهراً طويلاً ، فما عرفت يد آمن عليها ، وأنفع لها ، من يدها : أخذت المنجل فنقَّت روضة الحضارة من الأشواك ، ثم مهدتها وحرثتها وشقَّت لها الجداول ، وأقامت لها السدود ،

وسقتها الماء عذباً نقياً ، حتى اذا بسقت أدواحها ، وامتدّت ظلالها ، وملأ الجِواء رَيّا زهرها ، وانتشى الناس بخمرة عطرهـا ، وارتووا بعصير ثمرها ، وعاشوا بوافر خيرها ، سلّمناها الى هؤلاء ... المتمدينين ... ليحفظوها للاجيال الآتية ، فلم يكن منهم الا أن رموا عليهاقنبلةذرية...

وماذا تصنع القنبلة الذرية ؟ انها تميت ولكنها لا تحيي ، فهل عندهم قنبلة أخرى تحيي هذه الحكومة اليهودية التي ماتت من ألفين وخمسمائة سنة ، وتعيد اليها الروح ، واذا هم استطاعوا اليوم اقامتها وتسنيدهـا بالأخشاب حتى تبدو كأنها حيّة ، ولن يستطيعوا ، فهل يبقون معها دائماً يحمونها أن يبتلعها هذا اللجّ العربي الذي يحيط بها ، أو تهدمها موجة عاتية من موجاته ، فتأتي عليها من القواعد ؟... أفلم يفكروا في هذا ؟

أنا أسمع من زمان أن السياسة لا أخلاق لها ، ولكني لم أعلم قبل اليوم أنها لا عقل فيها ... ولا حياء !

أفلا يستحي هؤلاء (المحترمون) أعضـاء هيئة الأمم المتحـدة أن ينكروا بالأمس على هتلر أنه سلب حقوق اليهود فأعطاها الألمان ، وأنه أراد العلوّ في الأرض بغير الحق ، وأن يثوّروا عليه الدنيـا ، دفاعاً عن الحق وعن الديمقراطية ، ثم يجيئوا اليوم فيفعلوا ما لم يفعلـه هتلر ، ولا موسوليني . وما أدافع عن الملعون موسوليني ، ولكن أقول انه كان كالذئب يقتل الخروف ليأكله ويتغذّى به ، لذلك عَدَا (لا رحمه الله) على طرابلس ، أما هـؤلاء فيعتدون ليغذّوا غيرهـم ، ويبيعون دينهم بدنيا سواهم !

أو لا يعقلون أيضاً ؟! ولا يخطر على بالهم أنه ربما نشأ هتلر آخر ، يكون اسمه ستالين مثلا ، وربما احتاجوا أن يثيروا الناس عليه مرة ثانية باسم الحق والانسانية وميثاق الأطلنطي ... فهل يجدون في الأرض مغفّلاً واحداً يصدّقهم ، بعد الذي رأى منهم ؟

أو لا يعتبرون بما انتهى اليه هتلر ، ومن قبل هتلر نابليون ، ومن قبلهما كسرى وقيصر ، وكل طاغية جبّار ؟ فهل دامت الدنيا على أحد حتى تدوم لهم ؟ أهم أشد سلطاناً في الأرض من الاسكندر ، وتيمورلنك؟ لقد كان الاسكندر ، وكان تيمور بطلين ليس أمامهما كفؤ لهما ، وهؤلاء مهما قويت كل دولة منهم ، فان لها أكفاء هم أعداء في ثياب أصدقاء ، وسيضرب الله بعضهم ببعض ، ويريح الانسانية منهم ومن حضارتهم ، ولا يبقى منهم الا أخباراً يقرؤها غداً تلاميذ المدارس ، فيعجبون من أصحابها ويلعنونهم عليها . وهذا أمر محقّق وان كان يبدو الآن كالخيال .

أولا يفكّرون أنه لو اتخذ مثل هـذا القرار ملك عات من ملوك الحكم المطلق ، أو أمير ظالم من أمـراء القـرون الوسطى في أوربّة ، لفضحه كتّاب التـاريخ ، وقالوا ، لص يأخذ مال زيد ليعطيه لعمرو ، وقالوا ، مجنون يجود بما لا يملك ، ولملأوا صحائفهم غيرة على الانسانية وحقوق الانسان . فلماذا يخرسون الآن فلا ينطقون ؟ لماذا لا نسمع من أوربة وأميركة ، أصـوات من يدّعون أنهم أنصار الحق وأن أقلامهـم للانسانية ليست لفرد ولا لشعب ؟

لقد غضب أميل زولا لدريفوس ، فقالوا انه رجل الحقّ والانسانية ، وصدّقنا ما قالوا ، فلم لا نلقى اليوم في الغرب كله زولا واحداً ، يغضب لأمّة بقضّها وقضيضها ، تزاح عن مكانها وتطـرد من أرضها ، ليحلّ اللص الواغل عليها في محلها ، وتشترك في هـذه المؤامرة الدنسة أمم الغرب كلها ؟

لماذا يخرسون الآن ؟ ألأنّ الظلم صار ظلماً منظّماً ؟ ألأن قطّـاع الطرق تركوا الجبال والمغاور وجلسوا في (ليك سكسس) ألأن محكمة التفتيش صـار اسمها (هيئة الأمم المتحدة) ؟ ألأن الجزّارين أمـيركا وروسيا وفرنسا ، والشاة فلسطين ؟

خسأتم يا حلفاء الشيطان .. والله ما فلسطين بالشاة ولكنها القنفذ ، على ظهرها الشوك ، انها السكين المشحوذة ذات الأربع شعَب ، انها زجاجة السمّ الناقع ، فَلْيتقدّم لابتلاعها من شاء أن ينتحر .

* * *

لا ، ما نريد أن نتكلم . ولو أردنا الكلام ، لدمغنا جباه هذه الأمم التي أقرّت التقسيم بخمسمئة مليون لعنة ، تلقى التاريخ بها غداً ، وتلقى الله بعد غد ، وهي مخزاة لها ، وعرّة في جباهها ولكنا نريد العمل .

ونحن نعترف أننا لا نملك مثل أموال اليهود ، ولا مثل أسلحة الأميركيين ولكنا نملك ثمانين مليون روح ، من ورائها أربعمئة وعشرون مليون روح ، نريد أن نزهقها كلها ، أو ندفع عنا هذا الضيم الذي تريدنا عليه أميركا وروسيا ، فهل عندكم من القنابل الذرية ما يكفي لقتل خمسمئة مليون ؟

أما نحن فان عندنا من القوة ما ندمّر به كلّ شيء لكم في بلادنا . بضائعكم ومصالحكم ومدارسكم (وسمعتكم) فلا تستطيعون أن تأخذوا بعد اليوم بترولنا لتحرقونا به ، ولا أموالنا لتحاربونا بها ولا أولادنا لتجعلوها أعداء لنا ، ولا تجدون فينا بعد اليوم من يسبح بحمدكم ، ونحن نصلّى بناركم .

لقد خُدِعنا بفرنسا أولاً ، حتى فَزِعَ اليها الزعيم مصطفى كامل وحسب أنها أمّة الحريّة حقاً ، وأمة حقوق الانسان .

وخُدعنا بانكلترا ثانياً حتى ترك الملك حسين اخوانه في الاسلام وحلفاءه في المعركة ، وانحاز الى العدو ، وفعل فعلته التي فعل .

وخُدعنا بأميركا ثالثاً ومباديء ولسن ، وميثاق الاطلنطي .

وخُدعنا بروسيا رابعاً ، والمباديء الشيوعية المثالية التي تجعل الأرض جنّة للفقراء .. فذقنا وبال ذلك كله علقماً مراً ، ثمالة كأسه

تقسيم فلسطين فلن نخدع بهم بعدُ أبداً ، كفرنا بهم كفراً صريحاً لا تأويل له ، و لاشبهة فيه ، ولا رجوع عنه . كفرنا بكل شيء غربي ، الا الأدب الانساني والعلم التجريبي ، فما فيها شرقي ولا غربي . كفرنا بموسكو وواشنطون ، ولندن وباريس . حين رأينا أنه لم يكن معنا من الأمم يوم التقسيم الا أمم الاسلام وأمم كاليونان والهند حكمها المسلمون ورأت جمال الاسلام ، أفليست هذه حرباً صليبية دينية ؟ أليس أولئك هم المتعصّبين حقاً ، ونحن المساكين نُتّهم بالتعصب ، لأننا (من حماقتنا) نقول أننا متعصّبون ولا تتعصّب . وهم يتعصبون ولكن لا يقولون .

أنا لا أقول في هؤلاء المؤتمرين بالحق والعدل شيئاً ، ولو أننا قلنا فيهم أقبح المقال ، لما جزْنا عن القصد ، ولما حدْنا عن الصدق ، ولا نقول ان العرب لا يقرّ لهم قرار ، حتى يمحوا بدمائهم هذا (القرار) ، ويطهّروا ديار الشام من أقذار الصهيونية ، وينظّفوا منازل العربية من أوضار الاستعمار الظاهر منه والمستتر . لا ، ولا أقول : سنفعل ، ولكن سأقول : فعلنا . ولقد جاءت الأخبار بأن العرب شرعوا بالعمل ، وهذي طلائعه بَدَتْ من دمشق ، ودمشق قلب العربية ، من القلب ينبثق دم الحياة الى الرأس والجوارح والأعضاء ...

هذي طلائعه وأوائله ، وأول الغيث قطرٌ ثم ينهمر .

ولست أفخر بأن دمشق ثارت ، فما هي بأولى ثوراتها على الظلم ، ولا بأنها سبقت عواصم العرب كلها ، فدمشق أبداً السبّاقة الى كل مافيه اعزاز العربية والدفاع عنها ، ولكن أفخر بخمسة أمثلة ضرَبَتْها دمشق أول أمس ، فيها للعرب هدى ونور !

أولهـا : أن دمشق أدركت أن دعوى المساواة في الشيوعية كاذبة ، كدعوى العدالة في الديمقراطية ، وأنهم كلهم أعداء لنـا يأتمرون بنا ، ولصوص يتّفقون علينـا ، وذئاب تجتمع على نهش لحومنا ، وشرب

دمائنـــا ، فدمّرت دار الحزب الشيوعي بعد ما رأت فيهـــا يوماً كيوم آذار (مارس) ١٩٤٥ .

ففي مارس كانت النار تطلق علىأطفالنا ونسائنا من نوافذ دار البعثة الفرنسية في (الشهداء) بأيدي الفرنسيين وأذنابهم حمير الاستعمار ، وأمس كانت تطلق النـــار على شبابنا وأطفالنا من نوافذ دار الحـــزب الشيوعي في (الشهداء) بأيدي حمير الاستعمار ، أذناب موسكو .

وثانيها : وهذه خلّة في دمشق لا توجد في غيرها ، أن الأحزاب كلها اجتمعت أمس على اختلافها ، وتقاربت على تباعدها ، فلم تبق في دمشق حزبية ، لأن الحزبية في مثل هذا اليوم تعدُّ في الشام خيانة وطنية .

وثالثهـــا : أن الحكومة كانت مع الشعب ، وأن رئيس الجمهورية خطب في الشباب والطلاب يدعوهم الى الجهـــاد ، ولا عجب فقد كان شكري بك القوتلي الوطني المجاهد مقارع الاستعمار قبـــل أن يصير فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

وأنه خطب مثل ذلك رئيس الوزارة السيد جميل مـــردم ، ووزير الداخلية السيد محسن البرازي ، ووزير المعارف الصديق السيد منير العجـــلاني ، وأن ثلث نواب المجلس تطوّعوا مع المطوّعين لنصـــرة فلسطين . وأنها لم تسُقْ كتائب الشرطة وفرق الجنود ، لضرب وجوه المتظاهرين ، وسدّ الطرق عليهم ، وكل ما صنعته الحكومة أن حاولت منع الناس من الأذى ، فلما رأت أن الحماسة طاغية وأن المنع لا يكون الا بايذاء الناس لم تستطع أن تحتمل مقالة التاريخ عنها ، « ان حكومة فلان وفلان ، ذبحت شباب البلد لأنهم خرجوا يدافعون عن فلسطين » وما في الشام رجل واحـــد يرضى أن يكون رئيس وزارة ، وأن تنسب اليه هذه المعرّة !

وكان أجمـــل من ذلك كله . أن قررت الحكومة حـــلّ الحـــزب

الشيوعي ، وغسل هــذه البقعة النجسة في وجه دمشق وطرد الموظفين الشيوعيين ، وكانت حسنة من حسنات (المحسن) •

ورابعها : أن دمشق أغلقت ملاهيها وسينماتها الى أجل غير مسمى لأن الأمة التي تجدُّ حقاً في جهاد هو لها مسألة حياة أو موت ، لا تفكر في تسلية ولا لهو ، وان هي فعلت كانت أمة لاعبة كاذبة •

وخامسها : أنهــا جمعت البضائع الصهيونية ، والأفلام الأميركية ، وأحرقتها في الشوارع لأنها عرفت أننا ان شتمناهم ونحن نروّج بضائعهم ونشتري أفلامهم نكون قد أيّدناهم وقوّينــاهم ، وأضحكناهم على أنفسنا •

وبعد فلن يصل عدد (الرسالة) الى أيدي القراء ، حتى يكون هذا الجديد الذي أحدّث به عن دمشق قد صــار قديماً ، وحتى نسمع عن القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والموصــل ومكة وعمان والمغرب أدناه وأقصاه وأقطار الباكستان وأندونيسية أخباراً أجلّ وأعظم ، ثم نسمع من فلسطين الخبر الذي يأكل الأخبار • خبر الانتصار ، وتحرير الديار •

ولن تدوم للصهيونيين دولة في فلسطين ، ما دام المسلمون في الأرض والله في السماء •

* * *

المسلمون الى خير

نشرت سنة ١٩٥٥

هل شككتم وتزعزعتم ، أن بعث الله لكم ، من يبلو بعدوانه صبركم ، وبأذاه رجولتكم ، وأن جعله (امتحاناً) لكم لينظر ماذا استفدتم من (درس) البطولة الذي تلقيتموه في (مدرسة محمد) ؟ أو ظننتم أنكم تنالون (شهادة البطولة) بلا امتحان « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين ؟ » .

أم أنتم قد حزنتم ، وقلتم : مالنا نُبتلى ويسلم الضّالون الظالمون ؟ ونسيتم أن لو كان الابتلاء شراً ، ما ابتلى الله الانبياء والصالحين ، والمسلمين الاولين ولما سلّط الله سفهاء مكة على سيّد البشر ، وخاتم النبيين : محمد صلى الله عليه وسلم ، ينالونه بأذاهم ؟

أفمالكم قدوة برسول الله ؟

أمالكم أسوة بالصحابة والتابعين ، ممن أوذي في سبيل الله ، وعذّب ، وقتل وبمن وضعت المناشير على أعناقهم ، ليقولوا كلمة الكفر ، فكانوا يقولون : لا اله الاّ الله . وببلال اذ يحرم الطعام والشراب ، ويضجع على الرمال التي تتلظّى ناراً وتُلقى الصخرة على بطنه ليعود الى اللاّت والعزّى وهبل ، فكان يقول : أحد ، أحد ؟

أما سمعتم قصة الملك ، الذي طغى وبغى ، و (شنَق) وخنق حتى خلعت خشية بطشه القلوب ، وقطعت الألسنة ، فجاءه رجل صالح من

رعيَّته بموعظة من يده ، بمسمار عظيم أعدَّه وحمله اليــه ، على أربعة جمال ، حتى بلغ به باب القصر ، فأطلَّ الملك فرآه ، فقال متعجباً :

ــ ما هــذا ؟

ــ قال : هذا يا مولاي مسمار ، لتسمِّر به الفلك ، فلا يدور بالملك عنك الى غيرك ، ويبقيه لك أبداً ...

وما سمَّر الفلك ، ولا دام المُلك ، ولكن ذهب المَلِك ، وأودى الدهر بجبروته وسلطانه ، فلم يعد يحسُّ به أحد ، أو يدري بأنه كان له يوماً وجود ، حتى اسمه أغرقه لجُّ النسيان . فلم أعرف أنا اسمه ولم يعد يعرفه أحد ...

ذهب كما ذهب من قبله فرعون وهــامان والنمرود ، وهلك كمــا هلكت عادٌ وثمود وقد كانوا جبــابرة الأرض وكانوا مَرَدَة البشر ، ومشى في الطريق الذي مشى فيه الطغــاة جميعاً الى جهنــم ، فأين هو اليوم ؟ وأين فرعون الذي قال : « أنا ربكم الاعلى » ؟! ، وأين نمرود الذي ضرَّم النار على ابراهيم ؟ وأين جنكيز الذي حمل الموت والدمار الى كل بلد حمله رحلته اليه ؟ وأين تيمورلنك ؟

لقد ذهبوا جميعاً ، جرفهم سيل الزمان ، أفيبقى من بعــدهم فلان (ممن لا أسمِّي) وفلان ؟ أيودي السيل بالفيلة الكبار والآساد وتثبت له القطط والخرفان ؟

فلا تجزعوا ، ان استأسد فيكم ثعلب أو استنسر بغاث ، ولا تخافوا ان كان للاسلام عدوٌ يتربَّص به وبأهله ريب المنون ، ينكل بهم وينالهم بكل مكروهة من لســانه ويده ، لا ، ولا تخافوا ان بغى المستعمر ، أو غدرت اسرائيل ، أو ضــاعت فلسطين ، وكان ما نشكو منه ونتــألم ، فما هي بأولى المحن التي مرَّت علينا (نحن المسلمين) ، انها واحدة مما ألفنا من النوب وعرفنا

إحـدى لياليك فهيسي هيسي   لا تنعمي الليـلة بالتعـريس

* * *

لقد رأينا أياماً أشد علينا من هذه الأيام ، ومن يوم اسرائيل :

يوم رمتنا أوربة كلها عن قوس واحدة ، وجاءتنا جيوش أولها في حلب وآخرها في القسطنطينية ، وقامت في فلسطين لهم دول ، لم تلبث سنة ولا سنتين ، ولكنها لبثت أكثـر من مئـة سنة ، وكنـا على حال هي شر ممـا نحن عليه اليوم ، وحسب الضعفاء أن قـد طويت رايـة الاسلام ، عن ديـار الشام ، فما هي إلا أن قـام قائم ينادي باسم محمد ، ويضرب بسيف محمد ، حتى استقاد له النصر ، فطهّر الأرض من ذلك (الاستعمار) ، وعادت الى أصحابها الديار ، وهان الخطب حتى نسي أكثر الناس تاريخ الحروب الصليبية .

ويوم رمانا الشرق بدواهيه ، وساق الينا جيوش التتر ، تحط على بلدان الاسلام العامرة ، كما تحط الجراد على الحقل الزاهر ، فلا تدع من مظاهر العمران الا ما تدع الجراد من نَبْت الحقل ، أبادت الممالك ، وثلّت العـروش ، حتى بلغ هولاكو عرش الخليفة في بغـداد ، فذبح الخليفة ، وهدّ العرش ، وترك بغداد العظيمة حاضرة الدنيـا خرائب وأطلالا ، ثم سـاح في الأرض لا يردّه شيء ، وحسب الضعفاء أنهـا نهاية الاسلام فاذا الاسلام يطوي أعداءه هؤلاء تحت جناحه ، ويظلّلهم برايته ، ويجعلهم جنداً له وأعوانا ، وتنسى المصيبة حتى لا يدري اليوم أكثر الناس ما خبر التتر ؟

ويوم القرامطة الذين هزموا جيوش بغداد ، وعَدَوا على الحجّاج فذبحوهم ذبح النعاج ، واستلّوا الحجر الأسود . فمن يعرف اليـوم ما قصـة القرامطـة ؟ ومن يذكر القتـلة الحشاشـين من الباطنيـة ؟

والوحوش السود من أتباع صاحب الزنج ؟ والمئات من أعداء الاسلام الكبار ، الذين كانوا أشد قوة ، وأعظم نكالا ، فلم يعد يدري خبرهم أحد ؟

لقد ظهروا واختفوا ، وولدوا وماتوا ، والاسلام هو الاسلام ، ما ازداد الا قوة وأيداً .

وملكت فرنسا ديار الشام ، وأقامت على كل جبل قلعة ، وفي كل دائرة مستشاراً ، فأين اليوم في الشام فرنسا ؟ وأين في باكستان انكلترا ؟ وأين في أندونيسيا هولاندة ؟ وسنقول عما قريب ، سنقولها نحن ، أو يقول غداً أبناؤنا ، وأين في المغرب فرنسا ؟ وأين في فلسطين اسرائيل ؟

لا تستبعدوا شيئاً فان التاريخ يمشي بسرعة الطيارة . لا يزحف كما كان يزحف قديماً . لقد كانت باكستان قبل عشر سنين فقط خيال شاعر اسمه محمد اقبال ، وأمنية حالم اسمه محمد علي جنّه ، فصارت حقيقة يحميها ثمانون مليوناً ، وكانت أندونيسيا كذلك ، أفقيام دولتين في كل منهما ثمانون مليوناً أصعب وأبعد ، أم تحرّر المغرب ، واعادة فلسطين ؟

ونحن ؟ خبروني أين كنا قبل ثلاثين سنة ، وأين بلغنا اليوم ؟

أنا أعرف مصر منذ سنة سبع وعشرين (١٩٢٧) ، انه ما كان فيها من يدعو الى الله ، اللهم الا علماء الأزهر ، وقد كانوا منزوين وراء سوره ، تمرّ مواكب الحياة من أمامه فلا يحسّون بها ، ولا يرونها ، لم تكن للاسلام جريدة ، ولا مجلة الا (المنار) و (الفتح) التي كانت تلدها يومئذ أمّها ، ولم يكن له داع في ميادين الأدب ، ولا في كليات الجامعة ، ولا في دور النشر ، ولا في أروقة السياسة ، فانظروا ، بحمد الله ، ماذا لنا اليوم في مصر ، ان هذا كله من عمل الامام الشهيد مجدد الاسلام في هذا العصر : حسن البنا . رجل واحد ، أخلص لله ، وزهد في المال والجاه ، فصنع هذا كله .

رحمةُ الله عليه ، وثبّت الله المؤمنين ، وزادهم ايماناً وصبراً ، وثقةً بأن العاقبة لهم ، انها والله لهم !

وفي كل بلد عربي ، مثل الذي في مصر ، ، شباب ناشئون في طاعة الله ، مجاهدون في سبيله ، قد تركوا هواهم لطاعته ، وشهواتهم لمرضاته ، يؤمّون المساجد على حين ينام الناس في بيوتهم ، لا يثنيهم برد الليل ، عن صلاة الجماعة ، ولا تردّهم مشاغل الحياة عن طلب العلم ، لوّوا وجوههم عما يستبق اليه لِدَاتهم من اللهو والأنس ، وما تدفعهم اليه طبائع نفوسهم من اللذة والمَتاع ، تركوها لله فعوّضهم الله خيراً منها : اللذة بعبادته ، والأنس بمناجاته ، لا يبالون في سبيل الله عدوا ، ولا يستكبرون كبيراً ولا يستعظمون خطراً ، فهم بقية من شباب الدعوة الأولى ، تخلّفوا عن بدر والقادسية واليرموك ، ليأتوا في كهولة الزمان ، فيعيدوا الاسلام غضاً طريا ، والزمان شاباً قوياً ، ويكونوا تتمة لمعجزة الرسول ، في هذا (الفتح العبقري) الذي رفرفت فيه رايات محمد ، على ثلث المسكون من العالم في ثلث قرن ، ولم يكن فتحاً عسكريا ، للقلاع والمدن ، يزول ان زال الجيش ، ويذهب ان ذهبت القوة ولكن فتحاً للقلوب والعقول ، يخلد ما بقي في أهل البلاد قلب يحسّ ، أو عقل يدرك ، وهذه ايران ، أين ايران المجوسيّة الأولى ؟ فتّش عنها في كل بلدة وقرية ؟ هل ترى الا الاسلام في كل مكان ، وهذه مصر ، أين مصر الفرعونية ؟ وأين الشام الفينيقية أو الروميّة ؟

وهذه بعد باكستان وهذه الهند وفيها أربعون مليوناً من المسلمين لا تزال فيهم مدارس العلم وجمعيات الدعوة ، و (دار التبليغ) ، وهذه أندونيسيا والملايو ، في كل مكان مسلمون متحمّسون ، يودّون لو طاروا بلا أجنحة الى مكة والمدينة ، والأقصى ليطهّروه من أوضار يهود !

المسلمون الى خير ، ما في ذلك شك . لا تنظروا الى عهد أبي بكر وعمر ، ولكن انظروا الى ما كنا فيه قبل ثلاثين سنة ، فانّ صاعد الجبل

إن نظر الى الذروة قال : كم أنا منخفض ، ولكنّه إن نظر الى السفح ، قال : كم أنا مرتفع . وكل ماش يصل ، وكل ساع الى غاية لا بدّ أن يبلغها فلا تيأسوا ان لم تروا بوادر النصر في يومكم ، وان رأيتم الغرب قد علاَ عليكم ، ولا تقنطوا من روح الله ، ولا تشكّوا في ارثكم من البطولة المحمّدية التي تنقّلت في دماء جدودكم ، حتى مشت في عروقكم ، واعلموا أن الفلك دوّار ، لا يسمّر بمسمار ، وانه يكون ابداً ليل ونهار ، طلعَ النهار على الشرق فكانت مصر وبابل والحضارات الاولى ، ثم مشى الى الغرب فكان اليونان والرومان ، ثم عاد الى الشرق فكانت دمشق وبغداد والقاهرة وحضارة الاسلام ، ثم رجع الى الغرب . وها هو ذا الفلك يدور ان هذا النور الذي تسبح فيه أوربة وأميركة ، بهاء المساء الذي يعقبه الليل ، وهذا الظلام الذي نغرق فيه غبش السحر الذي يتبعه النهار .

ان النهار لنا ، لقد أذّن مؤذّن النهضة فينا : حيّ على الفلاح ، فقمنا ، وصاحت ديكة الفجر تطرد بقايا النوم من عيون الزهر ، والمستقبل لنا .

لهؤلاء الشباب الذين تمشي مواكبهم الى الجهاد ، يقحمون الشدائد والبلايا والنكبات ، ليقطفوا ثمار النصر ، لا لمن ينظر اليهم من شقوق الجدران يحمد الله على السلامة ،

للذين أدركوا أن لهم أجنحة النسر الذي خلق ليضرب في كبد السماء مشرقا يحدق في عين الشمس لا لمن يطير بجناحي دجاجة ، يلتقط بقايا مائدة الغرب ، من مزابل الحياة .

للذين عرفوا أنهم حملة رسالة الله الأخيرة الى الدنيا ، فاستعدّوا ليكونوا أئمة الدنيا .

للذين حقروا الأرض وما فيها ، وطمحت بهم هممهم ليسيروا على درب المجرّة ، الذي فرشت أرضه بالنجوم ، ليصلوا بقلوبهم الى الله .

١

حوادث دمشق

نشرت سنة ١٩٣٦

أحلف لو أنّ ما جرى في دمشق ، في هذه الأيام ، جرى في فرنسا ، أو ألمانيا ، أو انكلترا أو في أي بلد من بلاد الله العامرة ، لكتب فيه عشرات من الكتب والروايات ، ومئات من القصائد والمقالات ، ولخلّدت حوادثه تخليدا ، وصوّرت مشاهده تصويرا ، وصارت حديثاً يسري في الأجيال الآتية فينفخ فيها روح البطولة والتضحية ، ويبثّ فيها حقيقة العزة القومية ، ويفهمها معنى الكرامة الوطنية ، وبمثل هذا تتربّى الشعوب وتقوى ، وتسمو هذا السمو الذي نراه في شعوب أوربا الراقية ، ونعجب به ونعدّه شيئاً بعيد المنال ، وبمثل هذا يخدم الأدباء قضية بلادهم ، ويساهمون في العمل على رفعة أوطانهم ، ويثبتون للناس أنهم أحياء لا أموات وأنهم أوفياء لأمتهم وان فيهم شعوراً بالغضب والفخر والتقدير والسرور والألم ، وان لهم عيونا تبصر وآذانا تسمع ، وقلوباً تحسّ ...

ولكن هذه الحوادث قد جرت في دمشق . وأدباء دمشق بين موظف يظنّ أن حياته معلّقة بهذا الراتب ، وان عليه أن يثبت دائماً أنه بعيد عن الروح الوطنية ، غريب عن كل مشروع وطني مؤال للحكومة ، مقيم على ولائها ، يحافظ على رضاها . ومثل هذا الرجل لا يؤمل منه خير . وبين شاعر يحسب أن الشعر مقصور على الأزهار والأطيار ،

والحب والغرام ، وأنه ليس من الشعر ولا الأدب ، أن يصف الشاعر مآسي الوطن وآلامه ، ولا أن يشدو بمفاخره ، ومثل هذا الرجل مخطيء يجب أن ينبّه الى خطئه ، ويدعى باسم الواجب الوطني الى تسخير قوّته الأدبية لخدمة الوطن أو يكون حاله كحال قائد يقود فرقة من الجيش يأخذ فرقته وينسحب بها من جبهة الحرب ، وميدان المعركة ، ليسمع محاضرة عن الفن والجمال .

وبين أديب له اسم كبير وشهرة واسعة ، ولكنك اذا حقّقت وجدت هذه الشهرة تزويراً ، وهذا الاسم اختلاساً ، ولم تجد له من الآثار الأدبية ما يستحق أن يدعى به أديباً أو شبه أديب . ومثل هذا الرجل عاجز ضعيف ليس بشيء ولا ينتظر منه شيء .

فمن أي صنف من هذه الأصناف نطلب الأدب القومي ؟ وكيف نرجو الفلاح لأمة أدباؤها أموات أو جبناء أو ضالون أو عاجزون ؟ أوليس من العار على دمشق أن تجري فيها هذه الحوادث التي عجب منها الشرق والغرب وعدّوها آية من آيات البطولة والتضحية ، ثم لا يسجل الأدباء منها شيئاً ؟..

ألم يحرك هؤلاء الأدباء ، أن دمشق تلبث خمسين يوماً مضربة لا تجد فيها حانوتاً واحداً ، مقفرة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون ، فتعطّلت تجارة التاجر ، وصناعة الصانع ، وعاش هذا الشعب الفقير على الخبز ، وطوى ليله من لم يجد الخبز ، ثم لم يرتفع صوت واحد بالشكوى ، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بالتذمّر والضجر ، بل كانوا جميعاً من العالم الى الجاهل ، ومن الكبير الى الصغير ، ومن الرجل الى المرأة ، ومن الشيوخ الى الاطفال ، راضين مبتهجين ، يمشون ورؤوسهم مرفوعة وجباههم عالية اعتزازا وفخرا ... ولم يسمع أن دكاناً من هذه الدكاكين قد مُسّت أو تعدّى عليها أحد ولم يسمع أن لصاً قد مدّ يده الى مال ،

برغم أن أغنى الأسواق وأعظمها في دمشق قد بقيت أياماً وليالي مطفأة الأنوار ، ليس عليها حارس ولا خفير ، فهل قرأ أحد أو علم أحد أن بلداً في أوربا أو أمريكا أو المريخ . يسير فيه اللصوص جياعاً ولا يمدّون أيديهم الى المال المعروض ، حرمة للواجب الوطني ؟ وقد بقي الأولاد في المعسكر العام (في الأموي) أياماً طويلة يراقبون حالة البلد وينظرون من يفتح محلّه ، فاذا فتح أغلقوه ، وقد اتفق أن بائع حلويات مشهوراً قد فتح محله فجاء بعض الأولاد بصدور البقلاوة والكنافة ... من مخزنه الى المسجد ، وتشاوروا ماذا يفعلون بها فقال أحدهم : نأكلها عقاباً له ، فصاحوا به : اخرس . اننا لسنا بلصوص ، ثم أرجعوها اليه بعد دقائق وما فيهم الاّ جائع ...

أفلم يحرّككم هذا يا أيها الأدباء ؟ وهل قرأتم أن صبيان باريز وبرلين ولندن فعلوا مثله ؟... وقد عمدت القوى آخر أيام الاضراب الى فتح المخازن بالقوّة فكان أصحابها يدَعونها مفتوحة ، ولا يقتربون منها ، حتى تكون القوى هي التي تغلقها من تلقاء نفسها ، أفليست هذه تضحية؟

وقد حدّثني بعضهم أنه اشترى ثلاثين قفلاً كلما كسروا قفلاً جاء فوضع مكانه آخر ، ولقد حدثني من أثق به أن محلات العُهر والفواحش قد أضرب صاحباتها مع من أضرب ، أفرأيت أمّة كل من فيها وطني حتى المومسات ....

والتبرعات ؟ ألم يكن الناس يدفعونها من غير أن يطلبها منهم أحد ، ألم يكونوا يتسابقون الى دفعها ، ألم يرفض كثيرون من الناس أن يأخذوا اعانة ويقولوا : اعطوها لغيرنا ممن هو أحوج اليها ، نحن نجد طعاماً هذا اليوم ؟

لقد وقع هذا ورأيته مرّات ، وسمعت به ، فأي وطنية أعظم من هذه الوطنية وأي اتحاد أوثق من هذا الاتحاد ، الذي تصبح فيه المدينة كلها

أسرة واحدة .

والبطولة والجهاد ؟ ألم يفعل الناس الأفاعيل ؟ ألم يهجموا على النار والحديد ، ويقاومون بالحجارة أروع وأبشع ما وصلت اليه الحضارة من ضروب التقتيل والتدمير والاهلاك ، ألم يدوسوا على جثة القتيل ثم يمشوا قدماً الى الأمام ؟ ألم يضعوا أرواحهم في أكفهم ؟ ويبيعوها في سبيل الله ، ومن أجل حياة الوطن ؟

وأطفال دمشق ؟ من رأى كالأطفال ؟ من فعل فعل الأطفال ؟ من ذا الذي لم يسمع بأعمال الأطفال ، ويرى مظاهرات الأطفال وحروب الأطفال [1] ؟.

لقد رأينا طفلاً يسيل الدم من رأسه ، وقد وضع يسراه على رأسه يمنع بها الدم وأخذ الحجر بيمينه يضرب به وعمره أقل من عشر ...

لقد حدثني أحد الأصدقاء أنه كان ماراً في سوق مدحت باشا فسأل الأطفال وكانوا مرابطين فيه : هل تسمحون لي يا أولادي أن أمر ؟ قالوا اذا كنت تستطيع أن تمشي بين العسكر مرفوع الرأس ، وتحلق فيهم فمرّ والا فَعُدْ ...

وغيرذلك...وغيرذلك...ولكن ذلك كله لم يحرك «أدباءدمشق».

فيا أيها الأدباء لقد قام الناس كلهم بالواجب عليهم ما عدا الأدباء والموظفين ، في حين أن المفروض في الأديب ، أنه أرق الناس شعوراً ، وأشدهم احساساً فهل أنتم بِدْع في أدباء العالم ، أم أنتم ترتضون هذه المنزلة لأنفسكم .

ان الموظفين ميؤوس منهم اليوم ، واننا نحتاج الى زمن طويل حتى يفهم الناس أن الموظف خادم لهذه الأمة [2] ، أجير عندها يأخذ راتبه من مالها ليخدمها ويقوم بحقها ، ولا يزال في الموظفين من يظن أنه يأخذ الراتب ليسحب على الأمة مسدسين يضرب بهما في وجوهها (كما فعل أحدهم

(١) انظر مقالة (أطفال دمشق) في كتابي (دمشق) .

(٢) لما كتبت هذا كنت موظفاً في وزارة المعارف .

يوم ٢٠ كانون) وفيهم من يحسب أنه يأخذ الراتب (ليخوزق) ••• أطفال الأمة ورجالها (كما فعل بعض رجال الشرطة في هذه الأيام حين استعملوا الخازوق) !!!

وفيهم من يرى الوظيفة سبباً لملء جيوبه ، واشباع شهواته ، واطاعة هواه ، وعلى المصلحة لعنة الله !

ان الموظفين – ما عدا طائفة منهم – لا يزالون بعيدين عن الاندماج في صفوف الأمة ••• ولكن أنتم ••• أنتم أيها الأدباء ؟ ما بالكم تهربون من المعركة ، وتتبرؤون من هذه الأمة المسكينة ، وتغمضون عيونكم عنها ، وتسدّون آذانكم دونها •

واذا كنتم لا تصفون أيام الجهاد ، أفلا تصفون أيام الظفر ، أيام العيد ، يوم جاء مئتان وخمسون ألفاً يقدّمون الطاعة لزعماء الأمة ، ويبايعونهم على الموت ••• يوم برهن هذا الشعب على أنه قد بدأ حياة العمل المنظم ، بموكب الشباب الذي سار فيه تسعة آلاف وخمسمئة وستة وثلاثون شاباً بالضبط ، في صفوف منظمة ، بخطى موزونة ، يقودهم قائد واحد نحو غاية واحدة •

يوم جاءت الوفود من كل بلد وقرية ودسكرة ، تقدّم الطاعة للزعماء وتبايعهم على الموت ؟ ألم يحرّككم هذا كله أيضاً ؟

أما ان الأمة قد خرجت من هذا الجهاد بأجلّ النتائج ، لا أقول المفاوضة ولا الوعود ، ولكن النتائج العظيمة في التربية وفي الروح القومية ، اننا قد كسبنا المستقبل ؟ واطمأننا الى النجاح ، لأن هؤلاء الأطفال الذين هاجموا الدبّابة بالمساطر ، ورأوا هذه المظاهر الفخمة ، سيكونون اذا كبروا رجالاً لا كما نعرف من رجال وسوف لا يعيش فيهم خائن ولا كسول •

فلله الحمد ، وعلى الشهداء الرحمة ، ولهذه الأمة الحياة •



جهاد دمشق

نشرت سنة ١٩٣٦

على أبواب عيد الأضحى ، عيد الدين ، ويوم ٨ آذار عيد الدنيا ، تُيتّم الأطفال وتُرمّل النساء ، وتُنتهك حرمة المساجد ، ويُراق دم المصلين الأبرياء على صحن الأموي ؟

أفي بيت الله تُزهق النفوس ، وفي أيام العيد تقام المآتم ، وبعد اعلان المفاوضة يُطلق الرصاص ؟ ان هذا لكثير ... ان دمشق التي صبرت يوشك أن يخونها الصبر ...

انها خمسة وأربعون يوماً ، خمسة وأربعون يوماً ، وستصبح غداً ستاً وأربعين ثم تصير خمسين ثم تبلغ الستين ، وقد جرّبتم الوسائل كلها ، وبذلتم الجهد ، فعمدتم الى الوعد ، ولجأتم الى الوعيد ، لتصدعوا صفوف هذا الشعب ، وتفلوا (اضرابه) فهل فتح في دمشق كلها ، من أقصاها الى أقصاها حانوت لحّام أو فحّام ، بَلْه المتجر الكبير ، والمصرف الشهير ؟ هل رأيتم في هذا الشعب الفقير من يشكو البطالة ، أو يتألم من الجوع ، قد عزلتم الحرّاس ، وسحبتم الخفراء ، وأطلقتم الجياع على مخازن الأموال ، وصناديق الذهب فهل رأيتم يداً تمتدُّ الى مال باختلاس ؟ ألم يُضرب اللصوص عن السرقة كما أضرب التجار عن البيع ، والناس عن الشراء ؟

هل رأيتم في هذا الشعب من يأكل اللحم والحلوى ، وجاره لا يجد الخبز ؟ ألم يواس الغني الفقير ، ألم يتساو الناس في الصبر والتقشف ؟

ألم تعش دمشق خمسة وأربعين يوماً على الخبز ، ثم تخرج لتقف مدافعة عن حقها في وجه الموت ؟

ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ؟ ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل ، ثم يصدمونه صدمة الندّ للندّ ثم لا تنجلي المعركة الا عن حق يظفر ، ومجد يؤثّل وشهيد يفوز بالجنة وقتيل يعجّل به الى النار وأسير ينقل الى القلعة ، ألم تلبث دمشق خمسة وأربعين يوماً وكأن شوارعها وميادينها ساحة حرب ، فيها الخنادق والاستحكامات والرشاشات والمصفحات والدبابات ؟ ألم تلبث دمشق خمسة وأربعين يوماً وهي تلتهب التهاباً فلا تهدأ النار في ركن من أركانها ، حتى يندلع لسان النار في ركن آخر ودمشق ثابتة على جهادها ؟ ألم يشيّع الأمهات أبناءهن الى المقبرة ضاحكات هاتفات ؟ ألم يجاهد الطفل الصغير ، والمرأة العجوز ، والشيخ الفاني ؟ ألم تمتلىء السجون بالأبرياء ، ألم تضق القبور بالشهداء ؟ فهل تكلّم تاريخكم في آذانكم[1] ؟ هل عرفتم لهذا الشعب حقه ؟ هل قدرتم له تضحيته ، هل رفعتم قبّعاتكم حينما مرّت بكم مواكب شهدائه ، وخشعت قلوبكم حينما رأيتم سيل دمائه ؟ ونسيتم أن أجدادكم الذين أعلنوا حقوق الانسان وغسلوا بدمائهم صفحة الاستبداد والاستعباد ، فجئتم في القرن العشرين تهدمون ما بنى أجدادكم ، وترجعون بالعالم الى الوراء قروناً ثلاثة ؟

أم قد نسيتم ما كتب روسو وفولتير ومنتسكيو وما قال ميرابو و سييس و لافاييت وما جاهرت به فرنسا من أنها نصيرة الشعوب وأم الحرية ، ومعينة المظلوم ؟

أفي القرن العشرين الذي قالوا ، انه قرن النور والحضارة ... فلم نر من نوره الا بريق البارود ، ولهيب النار ، ولم نبصر من حضارته الا البنادق والدبابات وهاكم انظروا :

---

(١) الخطاب للفرنسيين .

في كل رابية جسوم مزّقت وبكل ناد رنّة وعويل
توراة موسى تشتكيك وتحتمي بالله والقرآن والانجيل

ليس الشعب السوري عدواً لفرنسا ،انه يحب التاريخ الفرنسي ، ويعجب بأبطاله الذين رفعوا منار الحرية ، ويحب الأدب الفرنسي ويحفظ ما فيه من الشعر الوطني ، والخطب القومية ويحب الشعب الفرنسي الذي يعرف كيف يثور على الظالمين ، ويقمع المستبدين ، ولكنه لا يحب من ينازعه حقه في الحياة والحرية ، لا يحب من يسلبه أرضه ، ويضع المسدس على صدغه ؟..

فهل هو ملوم في هذا ، هل في الدنيا أمة تحب من يسطو على حريتها ، هل في الأرض عاقل يحب من يغلبه على داره ، وينزع منه أمواله ؟ ويتحكّم في نفسه وأهله ؟

هل تحبون من ينازعكم أرضكم وبلادكم فعلام اذن لا تعطونا من الحق مثل ما تأخذون لأنفسكم ، وتعطون الناس أجمعين .

ألأننا لا نستطيع أن نخاطبكم بلغة المدفع ؟ ألأننا لا نملك جيش فرنسا وأسطول الانكليز ؟ ألأن حقّنا لم يؤيد بالقوة ؟ فأين اذن مبادىء الثورة الفرنسية التي علّمتمونا اياها في المدارس ، وأين حقوق الانسان ؟ ان الضعف ليس عاراً ولكن الجبن هو العار ونحن ضعاف ولكننا لم نجبن أبداً ولا نعرف ما هو الجبن نحن مغلوبون على أمرنا ولكننا لم نذل أبداً ولا ندري ما هو الذل ، اننا نعرف كيف نموت كراماً اذا نحن عجزنا أن نعيش كراماً ...

اننا اليوم لكما قال مليككم فرنسوا الأول من قبل : قد خسرنا كل شيء الا الشرف ، ومن يملك الشرف فقد ملك كل شيء .

ان شرف نفوسنا وشرف ماضينا وشرف جهادنا علّمنا هذا الاتحاد وهذه الشجاعة وهذه التضحية ، واننا ماضون في سبيلنا لا نخاف شيئاً

وماذا نخاف هل بعد الموت منزلة نحابيكم عليها ، هل عندكم أشد من الرصاص لقد فتحت له صدورنا .

هل عندنا أغلى من الأرواح لقد أعددناها ثمناً للاستقلال .

هل بقي شيء نخافه . قد رأينا الموت وأ لفنا الفقر واعتدنا الجوع وأصبحت مدينتنا بلقعاً ، وأهلها مفجوعين ، ونساؤها ثاكلات ، فماذا نخاف بعد هذا ؟

اننا لا نخاف الا شيئاً واحداً . نخاف أن نخسر احترامنا للشعب الفرنسي واكبارنا للتاريخ الفرنسي وحبّنا الأدب الفرنسي ..

نخاف أن يفصل بيننا وبين فرنسا برزخ من الدم فلا نلتقي أبداً ..

ان الدم العربي يا أمة الحرية كالدم الفرنسي فلا تحسبوه شراب الورد ... انه حارّ يغلي ويضطرم كما يغلي الدم الفرنسي ويضطرم ، ان لشهدائنا آباء وأمهات يتألمون ويبكون ، كما أن لشهداء فرنسا آباء وأمهات يتألمون ويبكون ، وقد أنبتت دماء فرنسا ... وان العرب ينتظرون الموسم .

انهم مطمئنون فان في ميدان التضحية متّسعاً للجميع ، وان أرض الوطن لا تضيق بشهيد .. وأن دمشق التي نامت عصوراً قد تحركت في مضجعها ، قد تقلبت من جنب الى جنب ، فسارت بفعلها قطر البريد وأسلاك البرق وذرّات الأثير ، وامتلأت بأخبارها الأرض كلها .

فكيف بدمشق لو قعدت . كيف بها لو قامت . كيف بها لو ذكرت الثأر القديم فوثبت وثبة الموتور المستميت وقفزت مجنونة ثائرة تصرّخ تصريخ الدم وتضرب ضربات المردة فتحتفر تحت أقدامها القبور ، وتنفتح أبواب جهنم ؟

... ويل يومئذ للظالمين !

كلمة الى الجنرال ديجول

نشرت سنة ١٩٤٥

رأيت في سينما ديانا بالقاهرة منذ شهور جريدة الأخبار الفرنسية تعرض صوراً من انهيار ألمانيا ، فترى المهاجرين من النساء والعجائز هائمين مشرّدين ، ثم تعرض منظراً مثله كان في فرنسا يوم انهزمت فرنسا ، ويعقب المذيع فيقول بصوت خافت رهيب : « ان في الكون عدلا ! » وترى المدائن المخرَّبة ، والذعر البادي ، والدمار الشامل ، ثم تعرض مثل ذلك مما كان في فرنسا ويعقب المذيع فيقول : « ان في الكون عدلا » !

نعم ، يا جنرال ، ان في الكون عدلا ! ولكن قومكم ما استوفوا بعدُ قسطَهم من عدل الله ، وآية ذلك أنكم أصبتم فبكى لكم أعداؤكم ، ورحمكم خصومكم ، وكنتم عند الناس ضحيَّة القوة العاتية ، وشهداء العدوان المجرم ، وكنت تثير الدنيا على الألمان أن حاربوا قومك ، وقومك هم أعلنوا الحرب ، وهم تقدّموا اليها ، وهم (زعموا) بنوها ، قد غذَّوا بلبانها ، وربُّوا في ميدانها ، فلما نبت ريشك ، وردَّ عنك عدوك ، وأغضى عنك الدهر اغضاءة ، نسيت كل ما كنت فيه ، وما كنت تقوله وتخطب به ، وأقبلت تجرّب سلاحك فينا ، فأخذتنا على ساعة غرة بحرب ما آذنتنا بها ، ولا أعلنتها لنا ، فسخَّرت لقتالنا مدافعك وطياراتك ، ويا ليته كان سلاحك يا أيها المحارب الظافر ، ولكنه سلاح

أعطيته عاريةً لتحارب به عدوَّ صاحبه وعدوك ، فحاربت به قوماً آمنين !
حاربت يا أيها البطل النساء في الخدور ، والأطفال في المدارس ، والمرضى في المستشفيات ... وما هابك النساء ولا الأطفال ولا المرضى ، ولا رفعوا مثل العلم الأبيض ، الذي رفعه قومك حين كان لهم سلاح ، وكان لهم خط ماجينو ، لأن لهم من ايمانهم حصناً لا تهدمه قنابلك ، ولا تحرقه نارك !

وهذا الجيش (يا جنرال) الذي عقدت له اللواء ، ورفعت فوقه العلم ، وائتمنته على شرف فرنسا وتاريخها ، قد أهوى باللواء ، وطوّح بالعلم ، وعبث بالأمانة ، حين سطا على المخازن ، فكسر أقفالها ، وفتح أبوابها ، وأخذ مافيها ، وذلك فعل اللصوص لا الجنود !

ثم عاد فأوقد فيها النار ، فأحالها الى جهنم الحمراء ، ليخفي باللهب سرقته ، وذلك صنع المجرمين لا المقاتلين !

ثم وقف يتربّص ، فكلما أقبل من يطفيء النار ، وينقذ الأطفال رماه فأصماه ، وذلك عمل القتلة السفّاكين ، لا الأبطال المحاربين !

جيشك هاجم المستشفى الوطني ، وسلّط ناره من أفواه رشاشاته ومدافعه على الجرحى والمرضى ست ساعات متواصلات متتاليات ، ولم يقدر بعد ذلك الا على أربع ممرضات شوابّ أخذهن « سبايا » !

جيشك يا رجل الديمقراطية ، يا سليل من أعلنوا حقوق الانسان ، هاجم البرلمان وفعل به الأفاعيل ، ومثّل بشرطته فبقر بطوناً ، وسمل عيوناً ، وقطع أطرافاً ، وها هو ذا البرلمان تركناه ليشهد عليكم أبداً ، فتعال ترَ الدماء على جدرانه المصدّعة ، وأبوابه المخلّعة ولقد وجدوا صندوق البرلمان وفيه المال ... وجدوه بعد ذلك في دار القيادة الفرنسية ، وهم طبعاً لم يسرقوه ، ولكن أخذوه ليحفظوه !
جيشك رمى قنابل الطيارات على السجون ، حيث لا يملك من فيها

فراراً ، فجعل السجن لمن فيه قبراً !

المستشفى العسكري ياجنرال جعله جيشك قلعة فيها مدافع الهاون ، ومنه أحرق سوق ساروجا هذا الحريق الذي أكل ثلاثاً وتسعين داراً . ومدرسة الفرنسيسكان كان فيها الرشاشات ، تطلقها بأيديها الطاهرات ، الراهبات المتبتّلات ، ذوات الرحمة المسالمات !

نسخة التوراة التي سرقت من سنوات ، وهي أقدم نسخة في العالم ، وجرت لها تلك المحاكمة المشهورة ، وقضي على طائفة من الأظناء بأشدّ العقاب ، وجدت في دار المستشار الفرنسي لما كبست بعد الحادث داره ، ويقدّر ثمنها بنصف مليون فرنك !

القاضي الفرنسي الذي جئتم به الى المحكمة المختلطة ، لأن قضاتنا في دعواكم لا يُطمأن الى علمهم ونزاهتهم ، المسيو سيرو ، وجد في داره رشاش كان يقتل به الناس في تلك الأيام السود ، وهو الذي جيء به ليقضي على القتلة والمجرمين !

ان بطريرك موسكو وكيل الروسيا ، كان في فندق الشرق (أوريان بالاس) يوم الحادث ، يوم عصفت هذه العاصفة في رأس قائدك أوليفاروجه ، فنسي كل ما يعتزّ به البشر من فضائلهم فلبث في الملجأ المظلم تحت الأرض ليلة كاملة ، قال لما انقضت : « لقد كنت في ستالينغراد يوم ضربها الألمان ، فما رأيت أكثر مما رأيت الليلة » !

ولما قدمت دمشق زوجة رئيس الجامعة الأميركية في بيروت السيدة دودج ، ورأت آثار العدوان ، قالت : لقد قتل ابني الوحيد في فرنسا ، فكان يصبّر النفس عنه أنه مات في سبيل الحق والانسانية ، أما الآن ، فواطول حزني وكمدي ، لقد أيقنت أن ابني مات في سبيل (لا شيء) !

* * *

يا جنرال ! لما ذهبت أزور القلعة بعد الحادث بأيام لم أستطع أن

أدنو منها من رائحة الموت ، اذ تفوح من آلاف الجثث ، جثث الأبرياء التي كانت بالأمس رجالا كراماً ، كانوا ملء الدنيا حياة ونشاطاً ، وكانوا ذخر عائلاتهم وبلادهم ، فصاروا ... أكواماً من اللحم العفن الذي يؤذي العين والأنف !

لم ينج من شرّ جيشك الأحياء ولا الأموات . ولقد أبصرت في (الدحداح) قبوراً قد نبشتها القنابل ، وقذفت رممها ، أفإن عجزتَ عن حرب أعدائك الأقوياء ، جئت تحارب موتانا ؟

لقد كان ذلك كله ، وكان أكثر منه ، أفهذا من العدل الذي تهتف به ؟ لا يا جنرال ، ان كلمة « العدل » أكرم من أن تمرّ على لسان مرّ منه ذلك الأمر الهمجي بضرب دمشق أقدم مدينة عامرة على ظهر الأرض بلا استثناء ، وأكاد أقول أجملها . ان الشفاه التي تعرف كلمة « العدوان » لا يمكن أن تألفها كلمة (الحق والعدل) !

* * *

ولكن « في الكون عدلا » ! نحن نقولها الآن ! وان من عدل الله أن جعل صبرنا نعمة علينا ، وعدوانكم وبالاً عليكم !

لقد انتهت الرواية ، وأسدل الستار ، فتعال ننظر ماذا ربحنا وماذا ربحتم ؟ لقد خسرنا منازل من أحسن منازلنا ، ورجالاً من أكرم رجالنا ، وملايين من حرّ أموالنا ، ولكنا ربحنا الخلاص منكم ، والاستقلال عنكم ، وسنبني الدور ، ونلد الرجال ، ونعوّض المال ، فماذا ربحتم أنتم ؟ ماذا ؟ يا من كشفت للناس عن حقيقتك ، وأنك ما خلقت لتسوس الأمم ، ولا لتحكم الشعوب ، ربحت بغضاء لا تمحى . لقد أسأت الى التاريخ الفرنسي والثورة الفرنسية والأدب الفرنسي ، ولطّخت بالوحل أسماء كانت فينا لامعة نظيفة ، وكان لها في النفوس مكان ، وسيتوارث العرب كلهم والمسلمون هذه البغضاء بطناً بعد بطن ، وستزيد وتعظم ، وتغدو

تراثاً مقدّساً ، لا يشذّ عنه الا هؤلاء النفر من الأدباء الذين باعوا دينهم واخوانهم بذكريات غرام لهم هناك ... وهؤلاء ليسوا منا !

لقد أثمرت هذه البغضاء باكورتها ، فلم يبق في سورية كلها لوحة عليها حرف فرنسي يقرأ في طريق ، ولا كتاب فرنسي يدرّس في مدرسة ، ولقد كان مهرجاناً قومياً يوم أحرقت فيه الكتب الفرنسية في مدن الشام!

وبعد يا جنرال ، ان في الوجود شيئاً أعظم من الدبابات والطيارات والقنابل الذرّية ، هو حب الموت !

فالذي لا يخاف الموت لا تخيفه آلاته مهمـا جلّت وعظمت ، فمن يطلب الموت فهو أكبر من المـوت ، لأنه أكبر من الحيـاة ، ونحن قوم علّمنا نبينا محمد ألا نخاف المـوت في سبيل الحق ، فلن يخيفنا شيء في الدنيا !

بعد احتلال أديس أبابا :

فضيحة القرن العشرين

نشرت سنة ١٩٣٦

... حق صريح يصان في عصور الظلام ، وأمة آمنة تسلم في قرون الجهل ، أفيُعبث بهذا الحق في القرن العشرين ، قرن العلم والنور ... ويُعتدى فيه على هذه الأمَّة ، فتسرق أرضها وحريَّتها وسعادتها ؟

يا لفضيحة القرن العشرين !... يا لضيعة المبادىء الانسانية ! يا لخيبة العلماء والأدباء والأحرار !... يا لإفلاس الحضارة الغربيَّة .. يا للعار على الفكر البشري !

أتبنى المدارس ، وتفتح المعاهد ، وتنشأ المحاكم ، لتبثّ مبادىء الحق والخير والفضيلة ، وتعمل على ذلك دهوراً ، فيأتي طاغية من طغاة الغرب فيهدمها كلَّها بطلقة واحدة من مدافعه ، وترجع بالعالم الى الوراء عشرين قرناً ، ولا يجد من يأخذ على يده ، وينصف الانسانية منه ؟

أيهزأ طاغيةُ روما بكل المبادىء التي يقدّسها البشر ، ويدوسها بقدميه واقدام جنوده ، ويستعبد أمة بكاملها لم تستعبد منذ فجر التاريخ، ثم يمضي هؤلاء (الممثّلون) في طريقهم الى (مسرح جنيف) ليمثّلوا عليه بقية المهزلة ... هذه المهزلة الدامية التي كان أول ضحاياها عظمة الفكر البشري ، وجمال الحضارة الحاضرة ، ومبادىء جمعية الأمم ؟

ارجعوا يا هؤلاء ، ارجعوا الى بلادكم ، قد تمزّق الستار وَبَدَتْ

من خلاله الوجوه المصطنعة واللحى المستعارة والسيوف الخشبيّة ، ورأى الثقلان أن (جبّار جنيف) لم يكن الا صنماً من أعواد ، أقامه الأقوياء ليخدعوا به عبّاد الأصنام من الأمم الضعيفة ، عن حريتها وحقّها ومالها .

ارجعوا فأظهروا أنيابكم التي سترتموها ، وأظافركم التي أخفيتموها ... ما أنتم أيضاً الا ذئاب .

★★★

أما أنت أيها الامبراطور ، أيها الجندي المناضل ، فتعزّ واصبر وارتقب ، فليس مع خصمك الا الحديد والنار ، ولكن العالم كله معك ، والقلوب كلها تخفق بحبك ، وبغض عدوّك . ان الحبّ والبغض هما أقوى سلاح في الوجود ، وانهما اذا لم يقوما اليوم للمدفع والطيارة ، فلن يقوم لهما غدا طيّارة ولا مدفع ، وان خصمك يستطيع اليوم أن يخطب فيصيح ويفخر ويهدّد ، ويستطيع أن يجرّد الجيوش ، ويسيّر الأساطيل ، ويطلق المدافع ، ولكنه لا يستطيع أن يصنع المسمار الذي يسمر به الفلك ، فيقفه عن الدوران ، ولو جمع له كل حديد الأرض ، ان الفلك يدور أبداً ، فيقوى الضعيف ، ويضعف القوي ، ويشبّ الطفل ، ويهرم الشاب ، ويرتفع من كان في الحضيض ، ويهبط من كان في الأوج ، فاصبرْ وارتقب .

انك لم تجبن ولم تفرّ ، وقد أعذرت الى أمتك ونفسك والى التاريخ ، فما ألوْت في الجهاد جهداً ، ولا ادّخرت عنه أيداً ، وكأني أنظر اليك الآن وقد كنت في دارة عرشك ، وقرارة مُلكك ، وموطن شعبك ، وكنت آمناً مطمئناً ، تتعهّد بلدك بالاصلاح ، وأمتك بالتهذيب والتعليم ، فما راعَكَ الا صوت الصريخ تدوي به أروقة القصر ، فهببت مذعوراً ـ وما كنت بالذي يذعر أو يضطرب ـ واستخبرت الخبر ،

فعلمت أنه الموت قد حمله المتمدّنون الى بلادك ألواناً ، فخففت الى هؤلاء المعتدين تسألهم ماذا يريدون ؟

ـ قالوا : نريد بلادك فاخرج منها ، أو فابقَ فيها عبداً لنا وخادماً !

ـ قلتَ : وأي ثأر لكم عندي ، وأي عداوة بيني وبينكم ؟ أهي أن جاء قوم منكم منذ حين يريدون قتلنا ، فرددناهم عنا ؟ أليس لنا أن ندافع عن أنفسنا ؟

ـ قالوا : صَه ! أنت متوحّش ... أنت متأخّر ...

وقد جئنا لنعلّمك ونعلّم شعبك ، ونحمل اليهم حضارتنا ومدنيتنا ، فاذا أنت لم تسمع وتطع كلّمناك بلسان البارود والغاز الخانق والنار والحديد ...

فثار في عروقك الدم العزيز الذي لم يذلّ منذ ألفي سنة ، فأهبتَ بجمعية الامم ، وناديت حماة السلام . فلما لم تجد منهم مجيباً ، صرخت في شعبك أن خذوا السلاح وتأهّبوا للموت ، فان في الديار لصوصاً متمدنين ، من أحفاد كافور وغاريبالدي وداتتي ورّفائيل... يريدون أن يسرقوا حياتكم وحريتكم وبلادكم !

فهبّوا للنضال ... ولكنهم سقطوا شهداء ، أمام وحشية المدنية ، وجهالة العلم ، وذِئبيّة الانسان !

★★★

لا ! انك لم تنهزم ولم تغلب ، ولكن غلبت المبادىء يا أيها الامبراطور العظيم ، وانهزمت الفضيلة ، وديسَ الحق ، وأفلست مدنية القرن العشرين !

انك لم تنهزم ، وان الطليان لم يمتلكوا أرض الحبشة ، لأن العصر عصر الأمم لا عصر الملوك ، وقد استسلمت أنت مرغماً للقضاء ، ولكن

استسلامك للقضاء ، وتركك أرضك للأعداء ، لا يسلم أمتك الى الفناء ، ان هذا الشعب الذي عاش حراً عشرين قرناً ، لا يستسيغ الاستعباد في عشرين شهراً ، ولا في عشرين سنة ، وانه سيجاهد ويناضل ويقاوم ويقاتل ، ما بقي فيه شخص واحد يمشي على أرض الحبشة ، ويسمع صراخ الأجداد من أعماق الثرى ... وأعالي السماء ... تدعوه الى انقاذ رُفاتهم من نَعل الأجنبي الغاصب أن يطأها ويعبث بها ، وان الغالبين قد يملكون اليوم الدساكر والقرى ، وينشئون القلاع والحصون ، ولكنهم لن يمتلكوا القلوب ، ولن ينشئوا فيها الحب ، وها هي ذي طرابلس ، بل هذه هي الأندلس :

ألم تسمع أيها الامبراطور باسم الملك الطريد أبي عبد الله الصغير ، ذلك الذي كان ملك الأندلس ، وسيد غرناطة ، وصاحب الحمراء ، سليل الملوك الذين جعلوا الأندلس جنّة الدنيا ، ومدرسة العالم ، ومشرق أنوار الحضارة ؟ لقد خدعوه كما خدعوك ، فأعطوه العهود والمواثيق ، وأقسم عليها ملوكهم وسادتهم ، وشهد بها أعاظمهم وأشرافهم ، وصدّق عليها البابا أمين دينهم وسيدهم على أن يَدَعُوا له قصوره ودوره وأمواله وجواهره ، وحكمه وسيادته ، وعلى أن يتركوا قومه أحراراً في عبادتهم وبيوتهم ومعاملاتهم وتجارتهم ، وأن يكفلوا لهم راحتهم وهناءتهم وأموالهم وأمتعتهم ، فلما ملكوا أخرجوا الملك من أرضه وبلاده ، فرأى لآخر مرّة شرف الحمراء ، وجنانَ العريف ، وجبل شلير ، ثم مضى تتغلغل به السفينة في أمواج البحر ، وصورة الأندلس تنأى وتبتعد ، حتى توارت وراء الأفق ، فخرجت من حيز الواقع لتدخل في حيز الذكرى ، ولتكون أمنية في نفس كل مسلم ، يوصي بها السّلف الخلف ، ويأخذ منه العهد على استرجاع « الفردوس الاسلامي المفقود » ، وعمدوا الى مسلمي الأندلس ، فأخذوا مساجدهم ، وأحرقوا مكاتبهم ، وفيها ثمرة العقول

البشريّة منذ مطلع التاريخ الى ذلك العهد ، ليتلهوا بلهيبها في ليالي انتصارهم ، وأنشؤوا لهم محاكم التفتيش لِتُدخلهم في النصرانية قسراً، وتحرقهم أحياء ، وتعذبهم عذاباً لا يتخيّله انسان ...

وهاهم أولاء الأندلسيون بعد أربعمئة وخمسين سنة، وبعد احتمال أهوالٍ لا يحتملها بشر ، وبعد أن تنصّروا جميعا ، لا يزالون ذاكرين عربيّتهم معتزين بها ، ولايزالون يحاولون الرجوع الى الأم العربية الكبرى ؟

أفتلين الحبشة التي لم تزل عزيزة ، وتندمج في الطليان في أيام معدودات ؟

★★★

أجل أيها الامبراطور ! ان الحبشة لم تنهزم ، ولكن انهزمت جمعية الأمم ، وذبحت مبادئها في الحبشة ، كما انهزمت الحضارة ومحيت أعلامها في الأندلس !

ان جمعية الأمم لم تكن أوثق عهداً من البابا ، وان موسوليني لم يكن أرقى من فرديناند ، وان الطليان ليسوا خيراً من الاسبان ، وان القرن الخامس عشر ليس شراً من القرن العشرين ...

★★★

أما أنتم يا كتاب التاريخ فسجلوا :

« لقد كانت حادثة الحبشة فضيحة القرن العشرين ! » .

الى حامي الاسلام

نشرت سنة ١٩٤٥

(جاء في برقيات أمس أن موسوليني قد أسر ، ولو كان موسوليني البطل النبيل الذي حارب حتى سقط ، لنسينا عداوته وحيينا بطولته ، وللبطولة حقها لا يجحده كريم ، ولكن موسوليني دعيّ ظالم ، وخصم لئيم ، فلذلك وجهنا اليه هذا المقال) .

يا من يفتّش في الكتب عن العبر ! يا من يبحث في خرائب التاريخ ، تعالوا : فان هاهنا عبرة ما في التاريخ أجلّ منها ، وما في الكتب مثلها ، تعالوا فشاهدوا واعجبوا واعتبروا ...

هذا الذي تكبّر وانتفخ حتى ما تسعه ثيابه ، وما يحتويه جلده ... هذا الذي تطاول وتعالى حتى ما يجد محلاً يرتقي اليه . ولا علا فوق علوّه .... هذا الذي طغى وبغى حتى استلب فراش هيلاّسلاسي من تحته، وطرده من بيته . هذا الذي تجبّر وتنمرد حتى ألقى الشيخ المجاهد الصالح عمر المختار من الطيارة فتلقته الأرض ، أرضه وأرض قومه ، أشلاء ومزقاً . هذا الذي جنّ من الكبر ، وحمّ حتى صار يهذي في حمّاه ، ويثرثر في جنونه ، يقول : أنا حامي الاسلام !

تعالوا انظروا اليه أسيراً ذليلا ، يقاد الى الموت ، بأيدي قومه ، قد طار هواء الكبر من جوفه ، فانحنى واستخذى وهبط من بعد علاه

الى الحضيض ، ونزل من يفاعه الى القاع ، فمن كان يظنّ أن موسوليني سيكون أسيراً في بلاده يساق الى المشنقة ؟

ألا لا يأمننّ بعد اليوم ظالم ، ولو مدّ الله له ومنحه قوة وأعطاه مالا ، ولا ييأسنّ مظلوم ولو ابتلاه الله فقدر عليه الضعف وكتب عليه الفقر ، ولا يفتحنّ فمه ملحد فاجر ، فان لهذا الكون إلهاً منتقماً جباراً عادلاً ، يمهل ولا يهمل ، ويمدّ للظالم ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

* * *

يا موسوليني ، يا حامي الاسلام هلمّ احمِ رأسك غداً من سيف الجلاد ، احْمِ اسمك من لعنات التاريخ ، احم (عظمتك ...) من سخرية الأجيال ، وهزء القرون الآتيات ، فان للاسلام رباً يحميه ، وان للاسلام يا أيها الدوتشي ... ولا دوتشي اليوم ! جنداً ان لم يكن لهم (الآن) مثل رصاص جندك الذي لا يقتل ، ومدافعهم التي لا تؤذي ، وأسطولهم الذي لا يحارب ، فان لهم قلوباً فيها ايمان وسواعد فيها عزم ، ونفوساً لا تهاب الموت ، ومن يجمع الايمان والعزم وحب الموت لا يغلبه شيء ، وسل ان كنت ناسياً ، سل عنهم بطاح طرابلس ، وبقاع الريف ، وجنّات الغوطة ، وجبل النار . سل جنود ايطاليا الذين كنت تخطب فيهم خطبك المسرحية ، تظن أنك صرت بها قيصر ثانياً .

لقد أجاب عليها شاعرنا حافظ ابراهيم ، فقالها كلمة حق وصدق ، كلمة قوّة ونبل ، فاسمعها ان لم تكن سمعتها :

قد ملأنا البرّ من أشلائهم فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما

نعم لقد امتلأت الدنيا أمس يا دوتشي بالكلام عنك ، والهتاف باسمك ، باسم موسوليني الأسير الجاني . فهنيئاً لك هذه الشهرة وهذا المجد !

يا موسوليني ، لقد قوّض المسرح ، ومزّق الستار ، وبدا المكنون

للعيون ، فاذا أنت وجندك كما قال الرافعي فيهم :

يا أمة النحت والتصوير ويحكم حتى جنودكم الأنصاب والصور

ولقد هدّمت الأنصاب ، ومزّقت الصور . وثُقبت هذه الكرة المنفوخة ، بابرة ، فعادت قطعة من جلد ميّت .

* * *

يا من يفتّش عن العبر ، هذه عبرة فخذوها ، وأذيعوها ، واصرخوا بها في أذن كل ظالم ، علّه يسمع ويصيخ ، ويتّعظ ويعتبر ، قبل أن يقضي الله فيه قضاءه فيكون عبرة للمعتبرين .

قولوا لهم ان الظلم مرتعه وخيم ، وان دعوات المظلوم سهام مسمومة ، وان الدهر دوّار ، والأيام دولاب ، وربما عزّ غداً الذليل وذلّ العزيز ، وجاءت ساعة الانتقام ، وويل يومئذ للظالمين .

* * *

ويا أيها المظلومون ، فرادى وجماعات ، في كل قطر وتحت كل كوكب ، اصبروا ولا تقنطوا من رحمة الله ، ولا تيأسوا من روحه وكونوا معه ، فان الظالم مهما كبر ، فالله أكبر ، ومهما طالت يده وعلت فان يد الله فوق يده ، ومهما ملك من أمر يومه ، فان غده وراء باب مغلق ، ومفتاحه عند الله ، وما يدري أحد بماذا يطلع عليه غده .

لقد قال هو جو شاعر فرنسا الأكبر لنابليون بطلها الأكبر الذي تجرّأ لما ولد له (ملك روما) فقرر أن المستقبل له : « يا أيها الملك ، انك تستطيع أن تظفر في أوسترلتز ، وأن تفتح ڤيينا ، وأن تملك العالم ، ولكنك لا تستطيع أن تقول : المستقبل لي ، لأن المستقبل يا أيها الملك ، لله وحده ! » .

* * *

وأنت يا فاتح الحبشة ، وغازي طرابلس ، اخلُ الآن بنفسك وابك

على خطيئتك ، واستعد تلك الخطب ، وفكر في هاتيك الأيام التي كنت تطل فيها من شرفة قصرك ، على أولئك الآلاف المؤلفة من الشخوص السود ، أبطال الفاشست ، فتصرخ فيهم حتى تتمزق حنجرتك ، وتتفجر رئتاك ، وهم يجيبون بدوي يهتز له ذلك القصر ... أين هؤلاء الذين أعددتهم ليكونوا عدتك في بغيك على طرابلس ؟ أين ذلك الحماس وذلك الدوي ؟ مجد بنيته في الهواء فضربته الرياح ! يا غازي طرابلس، لقد كانت فرقة المغاربة من الطرابلسيين واخوانهم المسلمين أول فرقة وطئت أرضك ، وغزت بلادك ، وطاردتك حتى سقطت في الفخ ، كما تسقط الضبع الخبيثة التي لا تأكل الا لحوم الموتى لأنها لا تجرؤ على الأحياء ! لا لست الأسد الجريح ، ولا النسر المهيض !

فكر في ذلك الشيخ الشهيد الذي ملأ مصرعه كل قلب بغضاً لك ، وكل عين دمعاً عليه ، لقد انتقم الله له ، ولكنا لا نريد أن يفعل بك ما فعلت به لأنا أكرم منك أصلاً وفرعا ، وأنبل خلقاً وطبعا ، ولأن نبينا نهانا عن المثلة ، وأمرنا بالرفق حتى بالحيوان فلا نذبحه الا بشفرة حادة ، فاطمئن فقد أحِدت لك الشفرة !

يا موسوليني ، وما اياك نخاطب . لقد صرت أقل وأذل من أن تخاطب ، ولكن ليعتبر قوم لم يقلوا بعد قلتك ، ولم يذلوا ذلتك . يا موسوليني انا لا نشمت ، وما الشماتة سجية فينا ، ولكنا ندل على مكان العبرة فيك ، حين نلت جزاءك . لقد أوكت يداك ، ونفخ فوك ، فغرقت ، فالحمد لله الذي أنقذ الأرض منك وأقر بك عيون من ظلمت ، وأرانا فيك هذا اليوم الأسود[1] . اللهم أنعمت فزد ، فانها لا تزال الأرض تعج بالظالمين !

---

(١) قضى الله قضاءه العادل في موسوليني الظالم بين كتابة هذا المقال ونشره .

لا تخافوا ..

نشرت سنة ١٩٤٦

لا تخافوا ، فوالله لا الفرنسيون ولا آل صهيون ، ولا دول الأرض كلها تستطيع أن تبيد شعباً عربياً مسلماً ، أو تذلّه فتسلبه عزّة نفسه وقوة ايمانه . فجدُّوا واعملوا ، ولا تدّخروا وسعاً ولا طاقة ، وفتّشوا عن القادة ، فاننا تنقصنا القيادة ، ولكن لا تخافوا على عرب فلسطين أو إفريقية ، ولا على مسلمي أندونيسية ، فان « محمداً » قد وضع في دمائهم المصل الواقي من الخوَر والجبن والتهافت ، وصبّ المناعة في أعصابهم صبّاً ، وعلمهم الصبر على المصائب وان تتالت ، والشدائد وان تعاقبت ، مع العمل على دفع المصائب ورفع الشدائد ، فكان الجهاد في سبيل الله ، وبذل النفس من أجل الدين والشرف ، فطرة في اتباع «محمد»، وخلقة فيهم لو أرادوا الانفكاك عنها ما طاوعتهم قلوبهم !

ألا ترون اليهم كم غامروا وجاهدوا واحتملوا من الأذى ، ثم ها هم أولاء يدعون الى الجهاد نزلة أخرى فيمسحون الدموع ، ويربطون على الجروح ، ويقومون عن القبور ، ويَثِبون مع الداعي يأخذون الطعام من أفواه بناتهم ، والكسى من نحور صبيانهم ، ليبيعوها فيشتروا البندقية ويمشوا الى الجهاد !

أولئك هم الأبطال حقاً ، لا أعني الزعماء الذين يملأون بطونهم من الطيبات ، ويمضون الى الحفلات بالسيارات ، ثم يقومون الي المنبر

لا يطيقون الوقوف من التخمة ، فيخطبون بصوت متقطع الأنفاس من البَشَم لا من الحماس ... يصرخون : نحن المجاهدون ، نحن الذين فعلوا والذين يفعلون ... ثم يروحون الى دارهم فيناموں وهم يحلمون بالمجد المؤثّل الذي شادته لهم خطبهم في الهواء !

ولا السياسيين الذين لا يعرفون من الوطنية الا أنها أقرب الطرق الى الكراسي ، فان جاءت من قبل الشعب ، فهم من الشعب والى الشعب، وان لم تجيء الا من الفرنسيس والانكليز ، فما هم غرباء عن الانكليز ولا عن الفرنسيس !

ولا التجار الفجّار الذين يعبدون الدرهم والدينار ، والذين أجاعونا في هذه الحرب وعرّونا ، ليريقوا ما سرقوه من ثمن خبزنا وكسوتنا على قدمي كل بغيّ ، وزلفى الى كل شيطان ، فهؤلاء جميعاً ليسوا منا ، وانّا منهم لبُرَءاء !

وانما أعني هذا الشعب الذي ثار في غوطة دمشق ، وميادين القاهرة، وسهول العراق ، وصحارى طرابلس والجزائر ، ورحاب الريف الأقصى، وثار في فلسطين من ديار الشام ، فأترَع الدنيا بطولة ونبلا ...

هذا الشعب، الذي خرج منه حارس أميّ من حرّاس الليل الى غوطة دمشق ، فوقف على نهر تورا ، وما نهر تورا ؟ جدول عرضه سبعة أمتار ... ووقف جيش فرنسا في الشرق على الضفّة الاخرى ، وبينهما جسر ، وما معه الا فئة من الثوار ، فلم يستطع جيش فرنسا وقائده الجنرال اجتياز هذا الجسر الا بعد ما مات الحارس الدمشقي ، حسن الخرّاط [1] ، بعد ثمانية عشر شهرا كلها وقائع داميات ومعارك

(١) الذي وضع أول حجر في صرح الاستقلال ، وأول مسمار في نعش الانتداب . فلما ذهب الانتداب ، وجاء الاستقلال ، نسي القائمون عليه أن يبنوا لحسن الخراط قبراً ، أو يجعلوا له في تاريخ الجهاد في المدارس ذكراً .

حاميات ، ولقد ردّ حسن وأصحابه الجيش الفرنسي مرّةً حتى أُلجؤوه الى دمشق ، ثم حاربوه في شوارعها حتى أخرجوه منها الى المزّة ، ولبثوا في دمشق ثلاثة أيام وما فيها فرنسي واحد .

هذا الشعب الذي فرّ ضابط من ضبّاطه من بغداد مع ستين جندياً ، الى الصحراء التي قطعها (خالد) من قبل والعدو من أمامه ، والعدو من ورائه ، والعدو من فوقه ، ولو وقفتْ عليه سيارة ، أو كشفته طيارة ، لذهب بدداً ، فقطع الصحراء ، ثم بلغ فلسطين ، ثم قاد الثورة فيها ، فظفر كما ظفر خالد بالروم ، وقذف الله به الرعب في قلوب الجند ، فكانوا يرتجفون هلعاً ، وينهزمون فزعاً اذا قيل : « فوزي القاوقجي » !

هذا الشعب الذي كان يحارب ضابطاً آخر من ضباطه مع فئات من أتباعه ، جيشان أوربيّان جيش فرنسي فيه مائة ألف ، وجيش أسباني فيه مائة وخمسون ألفاً ، هؤلاء كلهم يكافئون في الميزان الأمير المسلم عبد الكريم بطل الريف [1] .

هذا الشعب الذي قابلت حفنة منه مفلولة السلاح ، قليلة العتاد ، انكلترا ذات الحول والطول ، ومالكة خمس العالم ، وثبتت في وجهها سنتين اثنتين ، لا يوما ولا يومين ، وأرتها من قوة الايمان العجب العجاب :

بين يدي الآن عدد قديم من جريدة « بيروت » صادر سنة ١٩٣٧ ، أفتحبون أن ألخّص لكم خبراً وجدته فيه :

« التقى في (حيفا) نفر من المسلمين المجاهدين في سبيل الله ، وفرقة آليّة من الجيش البريطاني ، ودارت رحى الحرب ، فهجم المجاهدون على الدبابات والمصفحات ، فكان ايمانهم أمضى من نارها وأقوى من حديدها ، فنفذ منها الى قلوب من فيها ، فلم تُغْنِ عنهم صفائحهم ولا بارودهم

(١) وقد نسي الناس أن يبحثوا : أين اليوم عبد الكريم ، وماذا فعل الله به ؟!

شيئاً ، وأعان الله عليهم حزبه بالرعب ، فانهزموا ، وهربت مصفّحة ...
فطارت على وجهها ، لا تلوي على شيء ، الى ... أتدرون الى أين ؟
الى عكا ... الى صور ... الى صيدا ... الى بيروت ... الى طرابلس —
اي والله — ولو لا أن الاخبار سبقتها اليها حملتها الاسلاك ، فقطعوا
عليها الطريق بالحجارة ، ووقفوها ، لولّت منهزمةً الى بريطانيا ! » .

هذا الشعب الذي أدهش أهل الدنيا بفتوحاته غابر الدهر ، وأدهشهم
بثوراته حاضره ، وسيُدهشهم في مستقبله ويدعهم مفتوحة أفواههم من
عظم ما يرون ، حين يشب الوثبة الكبرى ، التي يعود بها كما بدأ شعباً
واحداً ، يعبد رباً واحداً ، ويتبع الكتاب قانوناً واحداً ، لا تعجبوا
فتقولوا : أين السبيل الى الاتحاد الاسلامي ؟! فهذه انكلترا لها خمس
الأرض ، قد تفرقت بلادها في أرجائها ، ثم ان لها ملكاً واحداً وراية
ورابطة ، أفنعجز أن نوجد للمسلمين نظاماً جديداً مبتكراً ، يجمع
متفرقهم ، ويدني بعيدهم ، ويصلحهم ويصلح لهم ؟!

★★★

وليس الذي انتصر حسن الخراط ، ولا فوزي القاوقجي ، ولا
عبد الكريم ، لأنه لا يعقل أن يغلب أفرادٌ دولةً ، ولكن الذي انتصر
هو الاسلام ، ولو ثار هؤلاء لغيره ما صنعوا شيئاً ، اذ يتركون لقوتهم
وذكائهم وعلمهم ، وأعداؤهم أشدُّ قوة وأحدُّ ذكاءً ، وأكثر علماً .
الاسلام أعجوبة الدهر الباقية ، معجزة كل عصر ، فيا أيها الأغبياء
الذين يجرؤون على قياس الاسلام بنزوات هتلر ، وخيالات لينين ،
وحماقات كل متسلّط على العقول أو البلدان ، يحسب لجهله أنه يشرع
ديناً ويضع شريعة ، انكم لفي ضلال مبين ، أين دين الهتلرية ؟ لقد ذهبت
به هزيمة واحدة ، وهزيمة مثلها تذهب بباقي الحماقات التي حسبتموها
أدياناً !

أما الاسلام : فهو في ذاته قوة لا يحتاج الى قوة اتباعه ليؤيدوه بها ،

بل هو الذي يؤيدهم بقوته فينصرون . ولقد تأخر المسلمون ورجع بهم الزمان القهقرى ، ولكن الاسلام تفذ من الحجب ، ولبث يتقدم . ان المبشرين ينفقون كل سنة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ثم لا يأخذون واحداً ، حتى يأخذ الاسلام بغير مال ولا عمل تسعة وتسعين..

الاسلام ينتشر اليوم بنفسه في أرقى ممالك أوربة ، وفي أحطّ بقاع أفريقية ، والمبشرون لم يستطيعوا أن يُدخلوا في النصرانية(مسلماً) واحداً . انهم يجمعون الجهلة من المغاربة الذين لا يعرفون ما الاسلام ، فيطعمونهم ويطمّعونهم ، ثم يلقون عليهم عجائب المسيح ، فاذا وصلوا الى موضع المعجزة ، صاحوا كلهم بلسان واحد متعجبين : الله أكبر ، لا اله الا الله !

وينزل المبشر على القبيلة في أواسط أفريقية فيعطي ويرغّب ، ويبقى سنة كاملة ، فلا يستجيب له منها الا النفر المعدودون ، ثم يأتي التاجر المسلم الجاهل ، فينام عندهم ، ويأكل طعامهم ، فلا يأتي الشهر حتى تكون القبيلة كلها قائمة وراءه تصلّي على دين « محمد » ... والمبشّرون ينظرون ! !

أفتشكّون بعد هذا أن الاسلام قوة هائلة للمسلمين ؟!

هل عرفتم الصواعق المنقضة ؟ هل رأيتم الصخور المنحطّة من أعالي الجبال ، والسيول الجارفة ، والبركان الهائج ، و ... وكل ما في الكون من قوة ؟ انها لن تصدّ غضبة المسلم اذا كانت لله ولمحارمه ولدينه! هل فيها أشدّ من الموت ؟ فهل يخيف الموت رجلاً خرج يطلب الموت؟!

★★★

ان سرّ قوة هذا الشعب ، إنما هي عقيدة القضاء والقدر على الوجه الاسلامي الصحيح ، ولكن القادة قلّما يدركون هذا السر وقلما يعمدون الى الاستفادة منه ، لأنهم نشؤوا يوم كان الشرق ينظر الى أوربة نظر

التائه في البحر الى المنار الهادي ، ويأخذون كل ما يأتيهم منها على أنه الحق الصراح ، فكان فيما أخذوه وقلّدوا فيه بلا فهم ، مبدأ (فصل الدين عن السياسة) ، ورأوه استقام في النصرانية ، فحسبوه يستقيم في الاسلام ، وما درسوا الاسلام على حقيقته ، حتى يعلموا أنه دين وسياسة وأخلاق ، وأن سورة (براءة) سياسة ، أفنفصل سورة (براءة) عن القرآن ؟!

وأمر آخر ، هو أن هذا الشعب تلقّى عشرة آلاف دعوة الى البذل في سبيل الله ، فلبّاها كلها ، ولكن الدعاة لم يكونوا يلبون أنفسهم في كل حين ، وكان فيهم من يلقي كلمته لا يتصوّر منها الا ألفاظها ووقعها في الآذان ، فهي من لسانه الى أسماع الناس ، لا من قلبه الى قلوبهم ، فهو من أجل ذلك يدع الشعب وحده ويمضي الى داره ليتحدث عن براعته في الالقاء ، وقدرته على الخطابة ، وفيهم من يريد أن يسوق الناس ويقعد ، وهذا الشعب لا يطيع الا من يمشي أمامه ، ويشاركه سرّاءه وضرّاءه ، أما المترفون الذين يريدون أن يناموا على عواتق الشعب ، ويغتنوا من مال الشعب ، فان هذا الشعب ينكرهم ويبرأ منهم فعلى الزعماء أن يفهموا ذلك حق الفهم ، وأن يكون لهم في رسول الله اسوة حسنة ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يجوع كما يجوع قومه ، ويتعب كما يتعبون ، ويعمل بيده مثلما يعملون ، بنى معهم مسجد المدينة ، وحفر معهم الخندق ، وكان يسرع الى الخطر بنفسه . وقع الصريخ مرّة في المدينة ، فخرج الناس عجلين ، فاذا هم برسول الله ، قد وصل الى مكان الخطر على فرس عريان ، لم ينتظر حتى يسرج له ، ورجع يطمئنهم بأنه لا شيء هناك . ولقد ثبت يوم أحد ويوم هوازن لمّا انهزم الناس ، وكان يقول معرّفاً بنفسه : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . لم يَسُقِ الناس الى الموت ويَقَمْ في قصره ، ولم يختصّ نفسه بمأكل ولا ملبس

ولا مركب ، ولم يربط لنفسه وظيفة من بيت المال ، ولم يحمل أسرته وأهله على الناس ، ولم يولّ عاجزاً ولاية لصداقة أو قرابة ، ولم يبعد عنها قادراً لبغض أو عداوة ، ولم يتّخذ قصراً ، ولم يقِمْ حاجباً . وكذلك كان خليفته وصاحبه أبو بكر ، وكذلك كان أمير المؤمنين عمر ، ومن أجل ذلك أجمع الناس على طاعة أبي بكر وعمر ، فلم يختلف عليهما اثنان !

أما ان هذا الشعب أقوى الشعوب روحاً ، وأطيبها عنصراً ، وأصفاها جوهراً ، ولكنه ينقصه الزعماء ، فهاتوا واحداً مثل عمر ليقوده ، وانظروا كيف يأتي بالمعجزات !

الانكليز واليمن

«بمناسبة ثورة عدن الجديدة على الاستعمار البغيض»

نشرت سنة ١٩٥٨

هل أتاكم نبأ من في أطراف اليمن ، اذ كانوا آمنين في أرضيهم ، ساكنين الى أهليهم ، فما راعهم الا قصف الرعد من تفجر القنابل ، ولمع البرق من قدح البارود ، والسقوف تنقض عليهم ، والجدران تنهد من حولهم ، والأرض تزلزل من تحتهم ، وأولادهم وبناتهم يصرعون على أعينهم ؟

وما قامت القيامة ، ولا تفتحت البراكين ، ولكنهم أدعياء المدنية ، وأعداء الانسانية ، ومصيبة البشر ، وسبب البلايا كلها : الانكليز .

الانكليز ....

الانكليز الذين صكت وجوههم نعال المسلمين في بور سعيد ، وحقت عليهم لعنة الناس في هيئة الأمم ...

الانكليز ـ طردوا من هناك ، فعادوا من هنا ، كالكلب تطرده من الباب ، فيعود من النافذة ... خرجوا باللعنة من مصر ، فرجعوا يحاولون الدخول الى أرضنا من اليمن ، ومن عمان . ولقد كنا أيام كان الفرنسيون في الشام (لا أرجع الله تلك الأيام) كنا كلما لقينا حماقة من حماقاتهم ، وكلما رأينا من طيشهم وفيشهم[1] ، قلنا : أين رعونة هؤلاء من عقل الانكليز !

---

(١) الفيش والفشار ، ما ندعوه بالعامية الفنشورة !

وكلهم شرٌّ ، ولكن بعض الشرِّ أهون من بعض .

وكنا نعرف خُبْثَ الانكليز ، ولكنا كنا نرى لهم مزيَّة السياسة والدهاء حتى كانت حادثة بور سعيد ، فهتكت الأستار ، وبدت الأسرار ، وسقط (المكياج) ، فاذا الانكليز في الطيش كالفرنسيين ، واذا هما كحماري العبادي في المثل القديم ، قيل له .. أي حماريك شر ؟ قال : هذا ثم هذا !

واذا هما كما جاء في المثل الجديد ، (حَنّا وحنين ، لعنة الله على الاثنين) !

* * *

لقد سقط (المكياج) عن وجه الحسناء الصحيحة القوية ، فاذا هي عجوز شوهاء ، واذا (الاسد البريطاني) الذي كان يزأر من كندا ، فيسمع زئيره من أستراليا والهند ، ليس الا ضبعاً هرمة ، ذاهبة اللحم ، منخورة العظم ، تلبس للناس جلد أسد ميِّت .

والذي أرى الدنيا ، ما هي انكلترا على حقيقتها هو (ايدن) .

(ايدن) الذي ذهب يمتار لأمته فكسب لها شراً مما كسب الراعي لبني نمير ، لما جاءهم بيائية جرير .

كسب لانكلترا لعنة الله والناس ، وألَّب عليها الانس والجن ، ووصمها في جبينها بوصمة العدوان والنذالة ، وقد كانت تلك صفاتها من قبل ، ولكن الوصمة كانت مختفية تحت الوجه المسرحي المستعار .

فهل تظنّونها عقلت انكلترا ؟

هل ترونها اعتبرت بما جرى عليها في مصر ؟

لقد ذهبت فشرعت في جريمة جديدة ، عدوان آخر عليكم يا أيها العرب ، على بلدين هما لبُّ العربية ، وأصلها ، على ديار حمير وكهلان ، وأزد عمان ، على الأرض التي خرج منها الغساسنة ملوك

الشام ، والمناذرة ملوك العراق ، وكِندة ملوك اليمامة ، وخرج منها من كانوا أعزّ من هؤلاء كلهم عزاً ، وأكرم على الله والناس ، الأوس والخزرج ، (أنصار) سيّد البشر محمد .

على اليمن يا أيها المسلمون ، وما بعد اليمن الا الحجاز ، ما بعد عدن الا صنعاء ، وما بعد صنعاء الا مكة البيت الحرام !

لقد كان البرق اليماني اذا لمع هزّ قلوب العاشقين ، وحرّك ألسنة الشعراء ، أفلا يهز قلوبكم (البرق) اليماني ، وهو يحمل أفظع أخبار النذالة والاعتداء من بريطانيا ، وأروع أنباء البطولات والثبات من اليمانيين ، من اخوانكم هناك ، في منازل بلقيس وتبّع وابن ذي يزن ؟

لقد قمتم (ولكم الشكر) على قدم واحدة ، لما عَدَا الثالوث المدنّس على مصر ، فأدّيتم بذلك حق الاخوة ، وأجبتم داعي الله ، فهل نمتم اليوم والعادُون يعدُون على اخوتكم في اليمن ؟

لا ، ولكنكم لا تعرفون ما خبر من في اليمن .

لقد كان العرب في هجعة استمرّت من القرن التاسع الهجري الى ما قبل مئة سنة ، ثم صحوا ولكن اليمن بقيت نائمة لمّا تكدْ تَصحو ، بعيدة عن خيرات الحضارة الجديدة وعن شرورها ، قد تنكّبت طريق الزمان ، وعاشت في الحاضر عيش أبناء الماضي ، تركت القافلة تمشي بسياراتها ، وركبت ابِلها ، هاربة من هزّة الدولاب ، وضجّة الركّاب ، واستلقت على الوسائد تَعلِك (القات) ، وتستمريء لذيذ الرؤى ، تنظر الى الدنيا نظر الشاعر الحالم من (تعز) من فوق ألف وأربعمئة متر ، ومن صنعاء راضية بحالها ، قانعة بمالها ، حتى قرع بابها ابليس البشر سنة ١٨٣٨ ، جاءها الانكليز ، والانكليز لا يرون أرضاً طيبة الا حاولوا امتلاكها كالمجرم الأفّاق الذي يجوب الشوارع ، فكلما رأى بيتاً جميلا ، ورأى أهله ضعافا ، هجم عليهم فطردهم منه واستقرّ فيه .

ولكن أهل اليمن ليسوا ضعافاً ولا جبناء ، بل هم جنّ المعارك ، ومردة الميادين ، ولا تزال وقدة البطولات في دمائهم ما أضاعوا إرثهم منها من يوم أن مشوا مع تبّع فجالوا في الجزيرة كلها ، الى أن خرجوا بعد سيل العرم فقاتل ناس منهم الروم ونازل ناس الفرس ، الى أن وثبوا الوثبة الكبرى تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم ، يمشون لينشروا العدل والحق والهدى في الأرض يزيحون كل من يعترض طريقهم ولو كان كسرى أو كان قيصر أو كان خاقان ، حتى ركزوا ، حتى ركز اليمانيون والعدنانيون[1] راية القرآن على كل قلعة وكل قصر من فرنسا الى الصين ...

ان الذين نازلوا دول الأرض كلها ، لا يعجزون عن ردّ قراصنة البحار عن عقر دارهم ، لقد ثبت اليمانيون وناضلوا نضالاً متّصلاً من مئة وعشرين سنة الى اليوم ، وما استطاع الانكليز أن ينالوا منها الا أن وضعوا أقدامهم الدنسة في السواحل ، وأقاموا فيها هذه المحميّات .

ولم يكن في السواحل الا بليدات وقرى من أرض اليمن ، فجاء الانكليز فقسموها وقطعوا أوصالها ، وجعلوا من كل قرية مشيخة أو امارة ، ومن كل بليدة سلطنة ، كما فعلوا في الملايا المسلمة ، وكما فعلت فرنسا في الشام حين جعلت من دمشق دولة ، ومن حلب دولة ، ومن اللاذقية دولة ، ولولا بقية من الحياء لجعلت من جوبر ودوما دولة ودولة، وأنا أؤكد لكم أن قضاء دوما أكثر عمارة وسكاناً من أكبر واحدة من هذه المحميّات .

المحميّات ؟ ان هذا الاسم وحده سخرية من الحق ومن الواقع ، محميّات ... ولكن ممن تحميها انكلترا ؟ من أصحابها الشرعيين ! كاللص الذي يدخل دارك ، فيغتصب منه غرفة ، يحبس فيها ولدك ،

---

(١) واخوانهم المجاهدون جميعاً

ويرفع يدك عنه ، ويمنع صلته بك ، ويقول لك : انه في حمايتي !
وهذه من ألاعيب الانكليز !

انها دولة عجيبة ، بينما تكون وزارة المستعمرات فيها تضع خطط الاعتداء على الجيران ، تكون وزارة الخارجية تهيىء لتغطية ذلك معاهدة حسن الجوار ومنع الاعتداء ، انهما تقتسمان العمل ، تلك تعدّ عدد الظلم والعدوان ، وهذه تنتقي لذلك أحلى الاسماء ، تلك تصنع السمّ وتصبّه في القوارير ، وهذه تلصق عليه الأوراق المذهبة المزوّقة التي تؤكد أن فيها العسل المصفّى ممزوجاً بماء الزهر ، وان فيها الدواء من كل داء ، وتلك تعدّ قرار (الاعدام) وهذه تبعث به في كتاب لطيف بأسلوب ناعم مع الودّ والأشواق و(تقبّلوا تحيّات خادمكم المطيع...)!

لقد نزل الانكليز على اليمن نزول الطاعون من سنة ١٨٣٨ ولكن اليمانيين وقفوا لهم وقفة الأسود فلم يستطيعوا تجاوز عدن التي احتلوها، حتى اذا مرّت عشرات وعشرات من السنين استولوا على سبع بلاد صغيرة سمّوها المحميّات ، وعقدوا مع (الخونة) من زعمائها يومئذ معاهدات صورية ، ولكن الشعب لم يخضع لهم ، ولقد حاولوا أن يغروا الامام يحيى رحمه الله بأن يعترف لهم بها بمعاهدة كتلك المعاهدات ، ووعدوه وأوعدوه ، فما لانت له قناة ، ولا رأوا منه بادرة اجابة ، بل لقد زاد على الرفض فأذاع بياناً على العالم كله ، أعلن فيه بالحرف (ان امام اليمن الملك الشرعي للبلاد لم يعترف بوجود بريطانيا في هذا الجزء من اليمن ، ولن يعترف به ولا بما يترتب عليه من نتائج) .

ولكن اللص الوقح لا تردّه عن غرضه صفعة ، ان الانكليز لا يزالون يأملون ، (أمل ابليس في الجنّة) أن تتنازل اليمن عن حقوقها في هذه الأرض الحرة المنيعة التي سمّوها المحميّات ، وهي لا تحتاج الى حماية الاّ منهم هم ، واليمن تأبى أن تضيّع الأمانة ، أو تخون الوطن ،

فلما يئس الانكليز من الترغيب عمدوا الى الترهيب ، فضربوا الفالج بالطائرات سنة ١٩٢٨ ، وشبوة سنة ١٩٣٨ ، وحاريب سنة ١٩٤٩ ، وفي سنة ١٩٥٤ ضربوا مدينة البيضاء بالمدافع الثقيلة وبقنابل الطائرات ، ثم شنوا من أواخر سنة ١٩٥٦ حرباً مدمرة فتاكة ، سخروا لها قوى الشر كلها ، وارتكبوا فيها ألوان القسوة والنذالة كلها ، وراحوا مع ذلك يعلنون أن اليمن هي المعتدية الظالمة ، وأنهم هم الحمل البريء المظلوم .

ولكن هذه الحيل قد رثت وبليت ، وكشفها الناس من قديم ، يا أيها السادة الأذكياء جداً ... الانكليز !

قد كشفت اللعبة ففكروا في غيرها .

ولكن يظهر أن ذهن بريطانيا قد نضب ، وان دماغها قد جف ، وأنها قد أصفت كما تصفي الدجاجة العجوز من البيض ، فلم تعد بريطانيا تستطيع أن تبتكر .

لقد عاشت بريطانيا عمرها كله تثير الحروب ولا تحارب ، تعتزل عند القتال وتحضر عند الغنيمة ، ولقد فازت الى اليوم بأجل الغنائم ، ولكن لكل شيء نهاية .

ونهاية بريطانيا قد دنت.

لقد بدأ نقصها ، فالهند خرجت من يدها ، وكندا وأستراليا وجنوب افريقيا استقلت عنها ، وايرلندا لا تريدها ، ولا تزال تعلن كرهها لها وتثور عليها ، واسكتلندا لا تحبها ولا ترى أنها منها ، حتى ويلز تتنكر لها وتنتمي الى غير أهلها ويتكلم شعبها غير لسانها ، فماذا بقي من انكلترا؟ الذي بقي هو انكلترا ، هو (بريطانيا العظمى) الحقيقية ، وهو ... هو لندن وضواحيها !

هذه هي أرض الانكليز ، أرض القبيلتين الجرمانيتين الأنكل والسكسون ، والباقي كله غصب وسرقة وعارية مستردة .

وهاتان القبيلتان ، قد سرقتا هذه الأرض سرقة في قديم الزمان .

انتهت بريطانيا ولكل شيء نهاية ، لكل شيء : الدوحة الباسقة تيبس وتصير حطباً ، والقصر المشمخر يهدم ويغدو تراباً ، والدولة العظيمة تضمحل ، ثم تموت فتصير أحاديث ...

وستنتهي انكلترا ، كما انتهت من قبلها كل دولة مجرمة ظالمة .

أين دولة جنكيز وهولاكو وتيمور ؟ أين فرعون وهامان ونمرود ؟ أين كسرى ، أين قيصر ، أين نابليون ؟

لقد ذهبوا كما ذهب كل طاغية جبّار ، وكل غاصب (مستعمر) . وليس يدوم في الأرض ملك ظالم .

كلا ، ولا مكان لمستعمر بعد اليوم في أرض عربية ، لا مستقر لغاصب في بلدة اسلامية ، ان العروبة تأبى المذلّة ، والاسلام يحرّم على أهله ، أين كانوا من الأرض ، أن يخضعوا لعدو يملكهم في أرضهم ، وأن يقبلوا حكماً يخالف حكم كتابهم وسنّة نبيهم ، لا بقاء للانكليز في الجزيرة ، ولا لفرنسا في الجزائر ، ولا لليهود في فلسطين ، ولا بقاء لعدو للاسلام في بقعة من الأرض ، وسينصر الله دينه ، ويعزّ أولياءه ، ويمكّن لهم في الأرض ، حتى يرجعوا كما كانوا ــ والله المستعان .

بين عامين :

نشيد الوداع

نشرت في جريدة فتى العرب سنة ١٩٣٠

(١) مالت الشمس الى المغيب ، ولم يبق منها الا خيوط تنفذ من بين قطع الغمام المتناثر حيال الأفق ، تلفظ نفسها الأخير ، كما يلفظ نفسه هذا العام الراحل !

(٢) دنت قافلة الحياة السائرة في بيداء الزمن من محطّها ، فتباطأت في سيرها ، وقاربت خطوها ، فأمسيتُ أشعر بطول هذه الساعات الباقية في عمر العام ، ورحت أرقب عقرب الساعة الماثلة أمامي ، فلا أراه يتحرك .. فضجرت وتألّمت ، وأحسَسْت كأن هذا الفلك يدور وهو عاتقي ..

(٣) ... بعد ساعة واحدة يتم الفلك دورة جديدة من دوراته التي لا تحصى . فلا يترك بعدها الا أنقاضاً مهدّمة ، وأجساداً محطّمة ، وقلوباً مهشمة ، كأنّما هو رَحَىً تطحن الأمم والشعوب .. ثم يخرج منها النداء أن : لِدُوا وابنوا وأمّلوا .. ولكن للموت والخراب واليأس !

بعد ساعة واحدة ، ينقضي هذا العام ، فتبتلعه هوّة العدم ، ويفتح الماضي ذراعيه ، ليضمه الى الأعوام الكثيرة التي مرّت من قبله ، ويؤلفها (رزمة) واحدة ، ثم يلقيها في بحر الأبد ، ثم تفنى عند جلال الله الباقي .

بعد ساعة واحدة ، يدع هذا العام مكانه من الوجود للعام الجديد، ثم يذهب فيتبوأ مكانه من عالم العدم !

(٤) بعد ساعة واحدة تختم من هذا العام صفحة كتبت أكثر سطورها بدموع المظلومين ، لتفتح صفحة اخرى ، لا ندري عنها شيئاً ، ولكن فيها ألم وفيها سرور ، وفيها أمل وفيها خيبة ، وفيها ضحك وفيها بكاء ... والقدر يضحك أبداً من هذا الانسان ، لأنه يراه الظالم ويراه هو المظلوم !

وما الانسان الا عدو الانسان ..

يكتب القوي سيرة حياته ، ويملؤها بآيات التبجيل والثناء ، ولكن مدادها دموع الأشقياء ، ودماء الأبرياء .. ، وينشيء القوي صرح مجده ، ويرفع ذرى عظمته ، ولكن أساسه جماجم المظلومين ، وعظام الشهداء ، ويملأ القوي بالذهب خزائنه ، ولكن دراهمها قد جمعت من أيدي اليتامى ، وأفواه الفقراء .

(٥) بعد ساعة واحدة ، تحط القافلة رحالها ، فنلتفت الى الوراء فلا نرى الا ظلاماً ، يلمع في وسطه نجم من الذكرى ، تتبين فيه (العلم المربع الألوان) وهو يخفق على دمشق.. فتخفق قلوبنا لجلال الذكرى، ومرارة الفقد ! فنحول أبصارنا الى الأمام فلا نرى الا الظلام.ولكن.. ما هذا النور الذي ينبعث من الأرض فيذهب صعداً في السماء ، فيهدينا الطريق ، ويترع نفوسنا قوة وأملاً ؟ لقد علمت : هذا بريق الدماء التي سقينا بها صحراء ميسلون ، وجنان الغوطة ، لقد علمت : لا يزيح ظلمة المستقبل ، الا هذا النور .. الأحمر !

(٦) تزين الناس ولبسوا أحسن ثيابهم ، وراحوا يهنيء بعضهم بعضاً ، لقد امتلأت بهم الأسواق والشوارع ، والبيوت والمجامع ، لقد ناءت برسائلهم قطر البريد ، حتى ما ترى حيثما كنت الا ثغوراً تبسم،

وما تسمع الا مقالة تقال : كل عام وأنتم بخير . كل عام وأنتم بخير ...
غير أني لا أفقه من هذا كله شيئاً !

(٧) فيمَ الهناء ؟ وعلام السرور ؟... أيهنؤون بتلك الأرواح التي دفعناها ثمن الحرية ، فكان للبائع الثمن والمبيع ؟ أم بالنفوس الكبيرة التي أزهقها الأقوياء ، أم بالمنازل التي خرّبوا ، أم بالدور التي أحرقوا ، أم بالحق الذي غصبوا ، أم بالحرمات التي انتهكوا ؟.. أم بالأزمة العامّة ، والتجارة الكاسدة ، والصناعة العاطلة ، والزراعة البائرة ، والاخلاق الضائعة ، والرجولة المفقودة ، والحدود المستباحة ، والجهالة المنتشرة ؟..

أما ان أشدّ البلاء ، ألاّ نشعر بالبلاء ! وأكبر المصيبة أن نجهل أنها المصيبة ! فما لهؤلاء الناس وماذا اعتراهم ؟ أيفرحون بهذا كله ؟..

اني لا أفقه من هذا كله شيئاً !

(٨) عزفت عما فيه الناس ، ورحت الى شرفتي كئيباً ، وكان الظلام قد ملأ الكون ، كما ملأ جوانب نفسي ، فغشيني ذهول عميق ، وانطلق لساني يقول :

***

أيها الراحل المودّع !

لقد كانت لنا آمال ، صببناها على قدميك يوم خرجنا لاستقبالك ، وكنا كلما انقضى من عمرك يوم ولم تتحقّق ارتقبنا بهايوماً آخر ، وهذا يوم لا آخر له ، فأخبرنا عن آمالنا ، ماذا صنعت بها ، أدست عليها فحطّمتها وقطعت طريقك على رُفَاتها ؟

وبعد يا أيها الراحل المودع !

أنبئنا ماذا يحمل هذا القادم المسلّم ، هل يحمل الينا تحقيق الآمال وبلوغ الأماني ؟ أم يحمل الشقاء والخراب والفقر والآلام والدموع

والدماء ، كاخوانه الـ ... العشرة ، التي مرّت على سورية ؟

انظر ماذا خلّفت فينا ، انظر الى مدنيتنا ، لقد جعلتها ـ في ظلّ المتمدّنين ـ أطلالاً وخرائب ، لقد جعلت أهلها فقراء بائسين ... انظر هذه هي خرائب الدرويشية والميدان ، وهذه قلاع المزّة وقاسيون ...

ولكن لا بأس أيها العام لا بأس ، ان أرضاً تسقى بـ (الماء الأحمر!) لابد أن تنبت (الحريّة الحمراء) ... واننا لن نيأس أبداً .

★★★

وأفقت من ذهولي ، وكان وهن من الليل ، وكانت اللحظة الأخيرة من العام الراحل ، فأرسلت في فضاء الله الواسع زفرة طويلة ، ثم رفعت رأسي شطر السماء وقلت :

ـ سبحانك لا اله الا أنت .. هذا قضاؤك يا الله !

وتبدّدت اللحظة الأخيرة من العالم ، تَبَدّدُ الحروف الأخيرة من مقالتي ، ولم يبق في الوجود ، الاّ ... اسم الله .

باسم الله نستأنف العمل ، والله المستعان ! .

جمهورية مدى الحياة

نشرت سنة ١٩٥٣

يا أهل مصر . هذا هو الطريق فماذا التردد بين الاقدام والاحجام؟ لماذا تقدمون رجلاً نحو (الجمهورية) وتؤخرون أخرى ؟

ان هذه (الملكية الوراثية) بدعة في الاسلام ابتدعها سيدنا معاوية، غفرها الله له ، فخالف بها عن طبيعة العرب التي طبعهم الله عليها ، وشريعة الاسلام التي شرعها الله لهم ، وأحالها كسروية قيصرية ، وقد كانت بكرية عمرية ، وجعلها ملكية بغي واستبداد ، وقد كانت خلافة عدل ورشاد .

بدعة جرت ذيلها على تاريخنا ، فمحت كثيراً من فضائله ، وخلفت فيه رزايا وبلايا ، صيرته مثل تواريخ الأمم ، وقد كان تاريخاً ما ولدت أم التاريخ قبله ، ولن تلد بعده تاريخاً يساويه أو يدانيه ، كان تاريخ خير وبر وعدل واحسان ، تاريخ قوم هم لباب البشر ، وهم خلاصة الناس ، وهم هداة الدنيا ، وهم ملائكة الأرض .

أفسدت تاريخنا على صلاح الزمان ، وأضاعت دنيانا على قوة الدين ، وأذكت في النفوس غرائز البغي وطبائع الشر على قرب العهد بالاسلام ، فكيف بنا اليوم والزمان فاسد ، والدين ضعيف ، والعهد بعيد ، والقلوب قاسية ، والمنكرات فاشية ؟

مالنا نجرب المجرب ومن جرب المجرب حلت به الندامة ؟ ونعود

فنمدّ أيدينا الى الجحر الذي لُدِغنا منه ولا يُلدغ المؤمن من جُحْر مرتين ! ونرجع الى الهاوية فنتردّى فيها بعد أن أنقذنا الله منها ، ولمّا نكد !

أنتّبع الاسلام ، ثم نأتي بما يُنكره الاسلام ؟

★★★

ان الحكم في الاسلام جمهورية انتخابية تدوم مدى الحياة ، ما لم يبدّل الرئيس أو يتبدّل ، فنستبدل به .

وان دعائم الحكم في الاسلام هي الانتخاب الصحيح[1] ، والديمقراطيّة الصادقة ، والرقابة الدائمة .

ولا عبرة بقول من أخذ من الفقهاء بظواهر الأمور ، بلا نفاذ الى بواطنها ، وأمسك بطرف المسألة وترك أطرافها ، فقال بأن الخليفة تَثبت خلافته بانتخاب النفر من أهل الحل والعقد – آخذا من انتخاب أهل السقيفة ابابكر ، أو بالعهد استنادا على عهد أبي بكر لعمر ، فان أبابكر ما صار خليفة الا بالبيعة العامة ، ولو خالف عليه أهل قُطر من الأقطار لما كان لهم (على الحقيقة) بخليفة – الا ان يكونوا خارجين على ارادة الاكثر فيعاملوا معاملة الخارجين . وان عمر لم يستخلف بعهد ابي بكر بل بالبيعة ، وخلاصة ما جاء في بيعته من النصوص – هو ما جمع في كتابي (أبو بكر الصديق) الذي طبع في دمشق من نحو ثمان عشرة سنة .

وفيه أنهُ لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه جمع الناس اليه ، فقال :

– انه نزل بي ما ترون وما أظنّني الا ميّتاً ، وقد أطلق الله ايمانكم من بيعتي ، وحلّ عنكم عقدتي ، وردّ عليكم أمركم ، فأمّروا عليكم من أحببتم ، فانكم ان أمّرتم في حياة مني ، كان أجدر ألا تختلفوا بعدي .

---

(١) لا الانتخاب المزوّر الملفّق ، ولا هذا الانتخاب الأعمى البرلماني .

فقاموا في ذلك ، فلم يستقم لهم امر ، فرجعوا اليه ، فقالوا :

ــ رأينا يا خليفة رسول الله رأيك .

ــ قال فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده .

ثم انه دعا بعد ذلك عبد الرحمن بن عوف ــ فقال له :

اخبرني عن عمر بن الخطاب .

ــ قال له : ماتسألني عن أمر الاوانت أعلم به مني .

ــ قال وانْ !

ــ قال : هو والله أفضل من رأيك فيه .

ثم دعا عثمان ، فقال له مثل ذلك . فقال :

ــ علمي به أن سريرته خيرٌ من علانيته ، وليس فينا مثله .

ثم شاور سعيد بن زيد وأُسَيْد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار ــ فقال أسيد :

ــ اللهم ، اعلم الخيرة بعدك . يرضى للرضا ، ويسخط للسخط ، والذي يُسرُّ خير من الذي يعلن ، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه .

عند ذلك كتب العهد المعروف وخرج به عثمان على الناس مختوماً : وأشرف أبو بكر من كوّته على المسجد (وقد كان هو البرلمان الاسلامي) ، فقال :

ــ لا نرضى الا أن يكون عمر !

ــ قال : انه عمر !

فأقروا بذلك جميعاً ورضوا به ثم بايعوا ... (الى آخر ما جمعت في الكتاب ، من أخبار هذا الباب .) والستة الذين سماهم عمر ، لم يكونوا الا لجنة استشارية ، عملها تنظيم المرشحين ، والعمل على فوز مرشح واحد بالتزكية وهذا ما فعله عبد الرحمن ، وما ثبتت خلافة عثمان الا بالبيعة .

فالبيعة هي الدعامة الكبرى في الحكم الاسلامي ، ولـم يستطـع الخلفاء المستبدّون ، في أكثر العصورظلماً ، وأشدها ظلاما ، أن يهدموا هذه الدعامة ، فكانت البيعة هي الأساس ، وان تحوّلت ، كما تحولت أكثر حقائق الاسلام عند أكثر المنتسبين اليه من جسد وروح ، ومظهر وجوهر ، الى أجساد ومظاهر فقط .

أما الديمقراطية الصادقة ، فهي الدعامة الثانية ، فالخليفة ليس أفضل الأمة ولكنه أكثرها عملاً ، وليس المالك لرقابها ولكنه أجيرها ، ولايمتاز دونها بمطعم ولا ملبس ولا مسكن ، هكذا كان الخلفاء الأولون ، قبل أن تصير الخلافة مُلكاً ، وهذي خطبهم و (تصريحاتهم) ، وهذي سيرهـم وأعمالهم ، شاهدة على أكثر مما نقول .

والدعامة الثالثة الرقابة ، كل فرد من الامة شرطي يراقب الحاكم ، يطيعونه ما أطاع الله ، ويقومون بأمره ما أقام الدين ، ان أحسن أعانوه، وان نسي ذكّروه ، وان اعوجّ قوّموه ، وكان عمر يتمنّى أن ينصب الناس أميراً ان استقام أطاعوه ، وان جنف قتلوه .

قال له أحد الصحابة (نسيت اسمه (٢)) :

ــ أفلا قلت : عزلوه ؟

ــ قال : لا . القتل أنكى لمن بعده !

★★★

ونحن لا نبالي ان اجتمعت لنا هـذه الخلال في رجـل : البيعـة والديمقراطية والاستقامة ، أن يُسمّى رئيساً أو ملكاً أو اماماً أو أمير المؤمنين . هي اصطلاحات لا تقدم ولا تؤخر ، لكن منهاما يخفّ على الاذن سماعه ، وعلى القلب احتماله ، كاسم الرئيس ، ومنهـا ما يشعر

---

(١) والخبر في كتابي (عمر بن الخطاب) ولكن ليس الكتاب تحت يدي الآن .

الظلم والاستبداد والعبودية والمذلة ، كاسم الملك .

أما وراثة الحكم ، فلا تجتمع مع الاسلام في دستور . أيرث الولد ملك رقابنا ، نحن الشعب كله ، كما يرث الابن بقرات أبيه وعنزاته؟ أعوذ بالله ! وهل بعد هذا مهانة أو ذل .

انه لاشيء أثقل على نفوس الناس ، ولا أفسد لنفس صاحبه من ولاية العهد . أتخضع رقابنا ، وتنحني جباهنا لطفل يُحْدِثُ في لباسه لماذا بالله ؟

ألأنه خرج من فم أمه أو من أذنها ، وسائر الناس يخرجون من حيث يخرج سائر الناس ؟ أخلق الناس من ماء وطين ، وخلق هو من الحليب(٢) والشكولاتة ؟

أله دماغان في رأسه ، وأربعة عيون في وجهه ، ويطير بجناحين ، ولا يمشي كالناس برجلين ؟

لقد أَلِفَ الناس الخضوع للرجل القوي الأمين ، أما الخضوع لطفل ، أمثاله يؤمرون فيطيعون ، ويؤدَّبون فَيُضربون ، أو لامرأة ، فشيء لم نألفه ، وما نألفه أبداً .

يقولون ان الملك رمز ، كملك الانكليز يملك ولا يحكم .

والجواب ، انه ليس في الاسلام رئيس يملك ولا يحكم ، بل الرئيس في الاسلام يحكم (بحكم الله) ولكن لا يملك لأن الناس في نظر الاسلام أحرار لا يملكهم أحد .

الرئيس عندنا هو الذي يَجتهد في وضع الشرائع مُستنبطة من أصولها ، وهو الذي يقضي القضاء، وهو الذي يدير الادارة ، وهو الذي يقود الجيش ، وله ان يوكل عنه من تتحقق أمانته ومقدرته ، أي أن أقرب الأنظمة اليوم الى نظام الاسلام ، جمهورية كجمهورية اميركا ، على أن تكون مدى الحياة .

---

(٢) الحليب من العامي الفصيح .

وفي مقابلة هذا السلطان ، لا يمتنع الحاكم على انتقاد ولا يترفّع عن نصح ، ولا يكون له في القضاء ما ليس للناس ، وليس في الاسلام تهمة القدح بالذات الشاهانية ، ولا محاكمة خاصة للملك وأهله ، بل ليس لأهل الملك ميزة أبداً ، ولا يأخذون من مال الدولة ، أو ينالون من خيرها فضلاً[1] عن آخر فرد من الامة .

وليس للحكم طبقة ولا قبيلة ، وما ورد من أن الخلافة في قريش ، هو أولاً حديث معارض بحديث عمر : لو كان حذيفة حياً لولّيته ، وحذيفة كان مولى ، وحديث : لو ولي عليكم عبد حبشي ... وهو ثانيا حديث مبتور له تتمة ، والقاعدة عندهم ، ان الزيادة من العدل مقبولة ، وتتمته ما أقاموا الدين ؟

وطبيعة الاسلام تنافي هذا الحديث الا أن يكون المراد منه غير عموم لفظه ، فالقِيَم في الاسلام معنوية ، ولا عبرة بالأنساب أبداً ، والشريف هو الشريف بعمله لا بنسب الى الرسول ، هو على الغالب نسب ملفّق مكذوب كأكثر أنساب (الاشراف ...) اليوم . والنبي يقول لبنته فاطمة سيدة النساء : يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك مَن الله شيئاً .

وهذا الحديث ان صح ، يدلُّ على أن القرشية تكون من أسباب الترجيح ، ان استوى مرشّحان للخلافة في خلال الخير كلها وكان احدهما من قريش .

والاّ فأين قريش اليوم ؟ وأين غير قريش من قبائل العرب ؟ لقد تغيَّرت الدنيا ، وتبدّل الزمان ، وشريعة الرسول لكل زمان ومكان ، ولو أن الرسول قال هذا الحديث حقاً ، وبُعث اليوم من رووه عنه لما فهموا منه ما يفهمه اليوم من يفكّر بعقول فقهاء الظاهرية ، وهم أضيق

---

(١) الفضل الزيادة .

الفقهاء فكراً ، وأقربهم نظراً ، وأبعدهم عن درك مقاصد الشريعة كابن حزم ، وما كان ظاهرياً مثلهم وان تفقّه بكتبهم .

فاذا نحن لم نقبل أن تكون الخلافة قاصرة على قريش وهم سرّة الأرض ، وأُسرة النبي ، وسَدَنَةُ البيت الحرام ، أفنقبل أن يكون الملك مقصوراً على قريش الأرناؤوط ، وأسرة فاروق ، وأهل قولة [1] .

حسبكم من فضائل هذه الأسرة ، أنها سرقت الأرض ، وانتهكت العِرْض ، وأضاعت الدين ، وأفسدت الخلق ، وأذلّت الرقاب !

حسبكم اسماعيل وتوفيق وفاروق ، لا تجلبوا لأنفسكم فاروقاً جديداً ، كلّهم فواريق !

يا أهل مصر . هذا هو الطريق ، فاسلكوه . يا أهل مصر لا ترددوا، ليس بينكم وبين الغاية الا خطوة واحدة !

---

(١) صدق أخونا الاستاذ سعيد العريان ، ان هؤلاء هم بقية المماليك ، فضمّوهم اليهم ، وألحقوهم بهم ولقّنوا ذلك الصغار في المدارس ، والكبار في الصحف والاذاعات .

ياللعار

نشرت سنة ١٩٣٦ وأنا أثبتها هنا للذكرى والاعتبار وهي واحدة من عشرات من المقالات ، نشرت (لي ولغيري) في تلك الايام .

أنتم أيها الناس ؟ تأكلون وتشربون ، وتنامون على الفرش الوثيرة ، وتصغون الى أصوات المذياع ، وتتمدّدون على مقاعد المقاهي ، وكراسي السينمات ، واخوانكم هناك يخوضون في الدم ؟

يا للعار !

اني لأكتب هذه الكلمة وأنا أبكي ! ولقد مرّت عليّ أيام شِداد ، ومصائب جِسام ، فما بكيت ولا ترقرقت في مقلتي دمعة ، ولكني « أقسم بالله العظيم » أبكي الآن من أعماق قلبي ..

أتدرون لماذا ؟

كنت قاعداً ، أشرب شايي ، وأشتغل بكتابي الذي أؤلفه ، فما سمعت الاّ ضجّة في الدار ، وكلاماً لم أتبيّنه ، ولهجة لم آلفها فسألت ، فاذا في الدار امرأة ، من فلسطين شريفة غنيّة من أسرة كبيرة كشفت ملاءة عليها بالية ، فاذا ليس تحتها شيء ، واذا هي عارية ليس على جسمها الا سراويل واذا هي قد قصفها الجوع ، وانطلقت تصف ، ما جرى عليها ، منذ قتلوا زوجها وأخاها وطفلها ، الى أن نجَت بالباقين وهي عارية من المال والثياب ، الى أن وصلت الى محطّة الشام ، فتركت أطفالها فيها تحت حرارة الشمس ، ومشت على غير هدى ، حتى وجدت هذا الباب فولجته ... انطلقت تحكي ، وأهل الدار يَبكون حتى كادت تصير الدار كأنها في مناحة ، ثم وضعوا بين يديها كل ما يقدرون عليه .

ثم ذهبتْ !

لا أدري الى أين ؟.. ولا أدري ماذا تصنع غداً والذي بعده ؟ ولا أعلم من معها وماذا جرى لغيرها ؟ فهل في الناس من يعلم ويدري ؟ هل في الناس من يجب أن يعلم ؟

هل في البلد مسلم ، هل في البلد عربيٌ ، هل في البلد شريف ، هل في البلد انسان ؟

المسلم لا يترك أخاه المسلم ، والعربي لا يدع العربي ، والشريف لا يمتنع عن المعروف ، والانسان يرحم الانسان !

يا أيها الناس !

ماذا بالله ؟ ألا تفهمون الكلام ، أم لا تصدّقون ؟ أم لا تشعرون ؟ أماتت من قلوبكم اخوة الدين ، ورابطة اللغة ، وصلة الجنس ورأفة الانسانية ؟

ان في المحطّة — وفي غير المحطّة ، وحيث لا أدري — نساءً عاريات جائعات وأطفالاً عراة جياعاً ، خرجوا من ديارهم ، وطُردوا من بيوتهم، وأصبحوا متشردين ضائعين ، يتوسدون التراب ، ويلتحفون السماء ، وأنتم تنامون على القطن والصوف والريش ، وتأكلون الحلووالحامض، وتضحكون وتطربون ، وتدّعون أنكم عرب مسلمون ؟

يا للعـار !

أنسيتم أيام الثورة السورية ، يوم كانت الأسرة التي تملك الألوف، تخرج بين ليلة وضحاها ، صفراً ليس معها شيء ؟ ويذهب المال والمنـزل والثيـاب ؟

هذه كتلك !

يا أيها الناس ، أنا لا أقول لكم ، اذهبوا فحاربوا ، ولا أقول لكم تظاهروا وصيّحوا وعطّلوا المفاوضات ، ولكن أقول ساعدوا اخوانكم

في الجنسية ، في الدين ، في الانسانية ! تداركوا الجياع قبل أن يموتوا جوعاً إلحقوا العراة قبل أن يهلكوا برداً ..

لا يقل واحد منكم ، أنا لا يعنيني !

كل واحد منكم مسؤول ، كل واحد بحسب طاقته ، الشحّاد يستطيع أن يساعد فلسطين بقرش في الشهر .

قرش في الشهر ، (وفرنك) في الشهر ، وورقة في الشهر ، وخمس أوراق في الشهر تحيي فلسطين !

سيبكي بعض القرّاء وينتحب ثم ينام ولا يدفع شيئاً .

سيهزّ بعض الموظفين أكتافه ، ويقول : أنا لا أشتغل بالسياسة ، ثم يذهب الى السينما أو البار أو دار القمار .

سيفرك الشيخ كفّه ويقول : إنا لله وإنا اليه راجعون ، ثم يذهب يعدّ قروشه على سبحته .

سيلوح التاجر بيديه ، ويقول : التجارة واقفة ، ماذا نصنع ثم يذهب الى السوق ليشتري بسبعين قرشا طعام يوم واحد .

لا . يا ساده ! لا البكاء ينفعنا ولا الحوقلة ...

لا . إن هذه ليست سياسة ولكنها واجب وطني ديني انساني .

لا . إن أصغر تاجر يستطيع أن يساعد فلسطين .

يا أيها الناس . ان المئات من النساء يَدُرْنَ في الطرقات ، جائعات عاريات ... في مدن فلسطين ، وفي أراضي الشام .

ان المرأة التي ذهبت الآن من دارنا مثال من هؤلاء النساء .

فمن يتطوّع للبحث عنهن ومساعدتهن ؟ من يتقدّم فيستأجر لهن الدور ، ويجمع من الناس فينفق عليهن ؟

أتذهب هذه الكلمة صيحة في واد

ألم يبق في البلد مسلم ؟ ألم يبق عربي ؟ ألم يبق شريف ، ألم يبق إنسان ؟

أتعاد مأساة أندلس جديدة ، وأنتم تنظرون .

ألم يكفِ هذا الموقف المخجل الذي وقفه ملوك العرب ، أتكون الشعوب العربيّة أيضاً مقصرة ؟

مئة" وعشرة أيام مرّت على فلسطين ، لا البائع باع فيها ، ولاالصانع اشتغل ، ولا الأجير أخذ أجرته ، فمن أين يعيش فقراء فلسطين ، من أين يجدون ثمن الخبز ؟

ألم تفكّروا في هذا ؟

ألم يخطر لكم على بال ؟

أتأكلون وتشربون ، وتلعبون وتطربون وأهل فلسطين يموتون ؟

يا للعـــار !

أما إنها والله ليست مسألة كلام يقال ، ولا مقالة تكتب ، ولا خطبـة تخطب ، ولكنها مسألة حياة أو موت ، فتباً لمن ينظر أخاه يموت ولا يمدّ اليه يداً . وسُحقاً لمن يرى أخته تموت من الجوع ولايقدم لها رغيفاً..

إن من يفعل هذا ليس مسلماً ولا عربياً ولا انساناً !

لكن في دمشق بحمد الله مسلمين وفيها عرباً وفيها ناسـاً ، فلننظر ما يفعلون !



بمناسبة (اسبوع التسلح) في سوريا :

شعب لن يموت

نشرت سنة ١٩٥٥

أما والله لولا أني أصف مشاهد لم يمرَّ عليها الأسبوع ، ولا تزال في عيون الناس وأسماعهم ، ولا يزال حديثها على ألسنتهم ، ولا تزال روعتها في قلوبهم لَحَسِبوا أني أتخيَّل ، و لَقال القائلون منهم : نحن نستحبُّ صور الخيال ، ولكنها إن بلغت في الغلوِّ هذا المبلغ صارت من المُحَال ...

ولو رُويتْ لي ولم أرها بعينيْ رأسي ، لم أصدِّقها ولو كان راويها أصدق الناس .

ولما خطبت في حفلة افتتاح (أسبوع التسلح) ، كنت أعلم أنه سيستجيب هذا الشعب ، وأنه سيلبي وأنه سيُقبل على البذل والعطاء ، ولكني كنت أقلِّب النظر في وجوه الحاضرين ، فلا أرى من أهل المال إلا عشرين أو ثلاثين فكان أقصى أملي أن يُعطي هؤلاء وحدهم ثم ينتهي الفصل ، ويرخى الستار ...

فلم تكد تنتهي الخطب ، ويبدأ العشرة الكبار من رجال المال بالتبرُّع ، وتذكر مئة الألف ، والمئتان ويترقَّب الناس أمثال هذه الأرقام الكبار ، وإذا برجل عاميٍّ يبدو عليه الفقر ، يقوم من غمار الناس ، فيقسم أنَّ بنته مريضة في الدار ، وأنه لا يملك إلا هذه الليرات الخمس التي استقرضها ليشري بها لِبنتِهِ الدواء ، وهو يبذلها للتسلح ...

ففتح بذلك الباب لهذه المكرمات التي زادت هذا الوطن شرفاً إلى شرفه ، ورفعته في عيون أهله ، وعيون الناس ، فوق رِفعته !

ويجيء جندي من جنود الدرك ، مرتبه مئة وخمسون ليرة للشهر كلّه ، فيسلّم السلام العسكري ، يقرع قدماً بقدم ، ويقدّم مئةليرة... ويأتي طفل" صغير بِمَطْمورته ويتزاحم النـاس على منصّة اللجنـة ويتدافعون ، والرابح من استطاع أن يصل إليهاوأعطى مابيده ، وتتوالى مشاهد لم يَرَ الناس ولم يسمعوا ، ولم يقرؤوا في كتب التاريخ ، مـا يماثلها ، أو يدانيها ، ولن أسجل هذه المشاهد كلهـا ، وأنّى ؟ وليست عَشْراً ولا عشرين ولكنها بلغت المئات .

مشاهد هؤلاء الذين لم يمنعهم المطر الذي كان ينهمر في تلك الليلة كأفواه القرب ، ولا الريح التي كانت تَلْسع الوجوه بأمثال السياط ، من أن يزدحموا على الباب ، يبتغون الوصول ، وقـد حسبهم الشرَط قد جاءوا للتفرّج فجعلوا يدفعونهم ، لم يدروا ولم يكن أحد ليدري ، انهم ما خرجوا من بيوتهم في هذا البرد ، ولا وقفوا على البـاب تحت المطر ، ولا زاحموا إلا ليعطوا ويبذلوا ...

لقد كان هذا الأسبوع امتحاناً لسلائق هـذا الشعب وأخلاقـه ، واستعداده للتضحية والجهاد ، فنجح فقراؤه وأوساطه ، نجاحاً مُفرداً ليس له نظير ، لقد ضربوا (كما يقول الرياضيون) كل رقم قيـاسي ، وسبقوا كل سابق ، وسَمَوْا حتى لقد كان منهم من فعل فِعال الصحابة الأوّلين .

فقراؤه وأوساطه فقط ، أما الأغنياء فقد سقط أكثرهـم في هـذا الامتحـان .



وهل يتصور إنسان أن يكون في روائع البذل والكرم ، أعجب من

صنع هذا الحمّال العجوز ، الذي كدح حياته كلها ، يحمل الأثقال على ظهره ، والهموم في قلبه ، حتى جمع عشرة آلاف ليرة ، جمعها في ستين سنة ، فبذلها كلّها للتسلح ، بذل في لحظة واحدة ثمرة تعب ستين سنة؟

وهاتان العجوزان اللتان لا تملكان من الدنيا إلا الدار التي تسكنان فيها فلما سمعتا بالدعوة إلى البذل للتسلح ، جاءتا بسند التمليك ، بسند التمليك يا ناس ، تبرّعتا بالدار !

أرجو أن تقفوا قليلاً لتتصوّروا مبلغ هذه التضحية ، إنكم تعرفون أن النساء في العادة أكثر إمساكاً ، واقبض يداً من الرجال ، فإن كنّ عجائز ازداد إمساكهن وحرصهن ، وجرّب (إن شئت الدليل) أن تقنع عجوزاً غنيّة ، أن تنزل لك عن عشر ليرات ، تجد صعوبة في اقناعها وربما عجزت عنه ، فكيف جادت هاتانِ المرأتان بكل شيء ؟

أي إيمان دفعهما الى ذلك ؟ أي حماسة بالغة ؟

والعشرات من الفتيات ... العشرات ؟ بل المئات والله اللواتي نزعن أساورهنّ من أيديهنّ ، وأقراطهنّ من آذانهنّ ، وَجُدْنَ بها .

وأنتم تعلمون أن المرأة تقطع الخبز عن فمها ، لتجعل الذهب في يدها .

واللاجئة التي لم تجد ما تجود به ، فجاءت بِقِدْرِها (طنجرتها) وبثلاثة أثواب لها ، وبثلاثين ليرة لا تملك غيرها .

وليست في ذلك وحدها ، لقد أعطى كثيرون كل ما يملكون ، هذا بائع النفط مرّ (الكشّافون) على عربته فسألوه التبرّع ، فأخرج درجه ، وفيه حصيلة يومه كله ، وصبّه بين أيديهم ... أعطاهم كل ما كان فيه ، كل ما كان يملك في الدنيا من مال ، وهل لهذا البيّاع من مال إلا ما يجمع في يومه ؟ جادَ به كله ، جاد بخبز عياله ...

والموسيقي الفقير الذي لم يكن يملك من دنياه إلا (آلته) ، يناجيها ويسارّها ، ويلقي بصدره على صدرها ، يبثّها شكوى نفسه ، ويفرغ

فيها أحزان فؤاده ، جاء بها فوضعها على المنصة ومشى ...

مشى كالحبيب الذي ينصرف من جنازة حبيبته بعد ما يواريها التراب .

وبطل الدرّاجات الذي جاء بدراجته ، وهي له كالآلة للموسيقي هي خليلته ونجيّته وشقيقة روحه .

وهذا المثل الرائع في انكار النفس والاخلاص لله ، وابتغاء ثوابه وحده ، مثلٌ ضربه رجل مجهول من دمشق ، تبرّع بخمسين ألف ليرة ، وحلّف اللجنة بالأيمان الغلاظ أن لا تبوح باسمه .

تصوّروا هذا الرجل يسمع الثناء على هذا المتبرع المجهول فيملك نفسه لا تحركه الأثرة حتى يقول ، أنا ذلك المجهول . ويجد آخرين ينتحلون هذه المزيّة لأنفسهم أو لأصحابهم ، فيعلنون أن هذا المجهول هوفلان أو فلان ، لناس ما دفعوا شيئاً ، وهو الذي دفع خمسين ألفاً يسمع ويسكت لا يقول شيئاً ، ويلقى من يلومه على أنه لم يعط عطاء الكرام ، فلا يقول لهم ، لقد أعطيت ، وأنا صاحب تلكم الخمسين ؟

أنا قد أتوهّم في نفسي القدرة يوماً على أن أعطي كل ما عندي ، ولكني لا أظن أني أستطيع أن أسمو يوماً الى هذه المرتبة ، إنها مرتبة الصدّيقين !

ماذا أصف ؟ وماذا أعدد ؟ وهذه المواقف قد جلّت عن الحصر .

هذا مشهد ما أظنّ أن في المشاهد ما هو أروع منه ، رجل ضرير (شحّاد) ، جاء هو وابنه الطفل المشلول ، يتلمّس طريقه ، يرْشِده هذا الولد المسكين ، الذي يجمع نفسه ثم يقفز على ساقين نحيلتين مقوّستين ، حتى اذا بلغ المنصّة وضع عليها سبع ليرات .

سبع ليرات فقط ، ولكنها أعظم بسبع مرات ، بسبعين مرة من كل ما دفع الأغنياء ، وما أعطت الشركات والمصارف .

سبع ليرات ، هي طعامه ولباسه ودواؤه ، هي حياته وحياة ولده جاد بها .

لقد كانت جماهير الناس ، كلما شاهدت واحدة من هذه الروائع ، صفقت وهتفت حتى تحمرّ الأكفّ ، وتبحّ الأصوات ، ولكنها صمتت حيال هذا المشهد .

صمتت حتى ليسمع في المكان الرحيب ، وجيب القلوب .

ومن الصمت ما هو أدل على الإعجاب من كل هتاف .

وهذه أرملة ، لم يبق لها من زوجها الضابط ، الا سيفه العسكري ، فلما كان اسبوع التسلح جاءت به ، فقطعت آخر ذكرى تربطها بمواضي أيامها ، بعهد العز والغنى ، إذِ الشمل مجتمع ، والدهر باسم ، والعيش رغيد ، وولّت تستقبل وحدها ، ليالي الفقر السوداء .

وهؤلاء المرضى الذين جاؤوا من أسرّتهم ، في مستشفى الجامعة ، الى القاعة القريبة التي تقوم فيها منصّة التبرع ، يحملون ما وصلت اليه أيديهم من مال أو متاع ، لم تشغلهم أوجاعهم عن تلبية داعي الله ، لما دعاهم الى الجهاد بالمال .

ومرضى مستشفى ابن النفيس ، الذين تبرّعوا بثمن البيض طول أسبوع التسلح ، ولم يستطع الطبيب أن يقنعهم بالاكتفاء بيوم واحد ، الا بجفاف الريق ، وشقّ النفس .

وأنتم تعرفون أن البيض ، هو حياة أولئك المسلولين ــ شفاهم الله ــ حياتهم وقد جادوا بها !

لا ، لا أستطيع أن أعلّق على هذا الخبر .

إني قد عجزت ، وأنا مقرّ بعجزي ، ولن أدّعي بعد اليوم أني من فرسان الكلام ، وأني من أرباب الاقلام .



لقد تكوّمت على المنصة أكوام من ساعات اليد ومن الأقلام ومن الأساور والأقراط ولقد قدّمت مئات من آلات التصوير ، والروادّ[1] والدرّاجات ، والمسدّسات والأحذية وأنواع الثياب وكل ما في البيوت من غال ورخيص .

لقد خلع كثيرون من الشباب أرديتهم ، وَدَثْرهم [2] لأنهم لم يجدوا ما يعطونه غيرها ، وخرجوا يستقبلون برد الليل .

ومن أعجب مارأينا في هذا الأسبوع ، وكل ما رأينا عجب ، ما صنع السجناء .

نزلاء السجون يا ناس ، لم تحلِ الأسوار ولا الأبواب ، بينهم وبين المشاركة في هذا الواجب ، ولم تدفعهم كراهة الجند الذين يسدُّون عليهم منافذ الحريّة ، من أن يعطوا ما عندهم لمساعدة الجند على التسلح .

وماذا ترونهم أعطوا ؟

أعطوا والله لحفهم ، وأرديتهم ... لأنهم لا يملكون غيرها ، وناموا على أرض السجن بلا غطاء .

اللهم إن هذا شيء يجلُّ عن الوصف ، ويكبر عن التعليق .

وما هم وحدهم ، لقد قدمت مئات من فرش ولحف ، ومن ثياب العرس ، ومن (خواتم الزواج) ...

وطالت حفلة الافتتاح ساعات ، وكان المذياع يحمل الى البيوت كل ما كان فيها من أصوات ، وسَرتِ الحماسة من هذا البهو إلى أطراف دمشق كلها ، فجفا الرجال والنساء والأطفال بيوتهم في هذه الليلة الشاتية العاصفة ، وتسابقوا الى منصّة التبرع .

وسرت الى البلاد البعيدة ، فتعاقبت الهواتف من مرجعيون ومن حلب ، تؤذِن بتبرع من فيها .

---

(1) ج راد ــ راديو . (2) كنزاتهم .

وأنا أحلف أن لو كان يوزّع عند هذه المنصة المال ، ويُعطى جزافاً لما كان الناس أسرع إليها ، وأزحم عليها ، مما كان في تلك الليلة .

وكان يسمع من المذياع صوت أعضاء اللجنة ، يرجون النـــاس أن ينتظروا دَوْرهم ، ولا يتزاحموا ، فلا يستجيب أحد ولا ينتظر .

ولمّا طالت صاح عريف الحفلة ، يرجو راحة خمس دقائق ، خمس دقائق فقط ليستريح فيها أعضاء اللجنة من تعب الأخـــذ ، لا ليستريح الناس من تعب البذل ، فما تعب من البذل أحد .

ورُفض الرجاء ، وتتابعت التبرعات .

فهل سمع أحد بمثل هذا ؟

أنا أعرفُ الناس بطيب عنصر هذا الشعب ، وأنا الذي يكتب من أكثر من ربع قرن يمجد سلائقه ومزاياه ، وأنا الذي جعل هذا موضوع خطبته في حفلة افتتاح أسبوع التسلح ، ومع ذلك دهشت .

دهشتُ والله مما رأيت .

كيف كان هذا كله ؟ كيف اندفع الناس اليه ؟

وما كانت الدعاية لهذاالأسبوع كافية ، لاوالله ، ولا كان ترهيب ولا إكراه ، ولو كان إكراه ، لكان على الأغنياء الذين قصّـــروا ، وقصّروا ، وقصّروا ، أعيدها ثلاثاً للتوكيد .

ما كان هذا بفعل بشر ، ولكن بدافع إلهي .

وأعجب الحوادث كلها ، وما أدري أيها أعجب ، أن غنياً معروفاً ، ضنّ إلا بالقليل فقدّم ثلاثة آلاف ، وهو يقدر أن يدفع ثلاثة ملايين ، فدفع ذلك موظفاً صغيراً فذهب الى اللجنة وقال لهم :

إن مرتبي في الشهر ، مئتان وخمسون ليرة فقط ، وهاكم تنازلاً عنه لمدّة سنة ، عن ثلاثة آلاف أصبرُ عنها أنا وأهلي ، ولو عشنا على الخبز القفار ، بشرط أن تردّوا على هذا الغني آلافه الثلاثة !

★★★

ألا إن ما كان في هذا الاسبوع شيء يفوق الوصف .

شيء لم يسمع به أحد ، ولم يَرْوِ مثله تاريخ أمة من الأمم .

لقد كان حصاد هذا الأسبوع شيئاً أكبر من المال ، روحاً جديدة صبّت في أعصاب هذا الشعب فلن يموت معها أبداً ، ولن يغلب .

لقد ظهرت الحقيقة التي كانت خفيّة ، حتى رآها القريب والبعيد ، وهي أن هذه الأمة (أمة محمد) أطيب الأمم ، وأغناها بالمكارم والبطولات وأقدرها على التضحيات .

إنكم لا تدرون ما أثر هذا الاسبوع في نفوس الاطفال والشباب .

لقد أدركتُ وثبة سورية على عهد الاستقلال سنة ١٩١٨ ، وبقيتْ صور تلك الحماسة وذلك النشاط ، ذخيرة في نفسي الى اليوم .

ومن مَدَدِها كلّ ما (كان) في قلبي وعلى لساني من الحماسة والاندفاع .

فكم تظنّون هذا الأسبوع سيُخرج من خطباء وكتّاب وقادة ؟ سترون أثره في مقبلات الأيام .

★★★

ان أمة محمد ، لا تزال خير أمم الأرض ، ولا يزال إرث الماضي المجيد في دمائها ، ولا تزال عزّة الايمان في قلوبها .

ولكنها تحتاج الى شيء واحد .

إلى قائد مؤمن مخلص ، يدعوها إلى الجهاد ويمشي اليه أمامها .

أدب هذا ... أم ماذا ؟

نشرت سنة ١٩٣٤

... إني ليسرّني والله ويثلج صدري أن أرى إخواننا الشبّان النابهين من طلاّب البكالوريا ، ينصرفون الى الأدب ، ويعالجون صناعة البيان ، ويكتبون القصّة والمقالة وينشرون في الصحف ... واني ليعجبني أن تنتعش الروح الأدبية في هذا البلد ، ويسجّل في قائمة « المشتغلين بالأدب » أسماء جديدة ، اذا لم يكن لأصحابها بلاغة شيوخ الأدب ، واطّلاعهم الواسع ، وعلمهم وعقلهم ، فان لهم لحماسة ، وإن لهم لنشاطاً ليس للشيوخ مثله .

ولكن لا أحب أن ينسى إخواننا الأدباء الجدد ، وهم يكتبون وينشرون ، أنه سيقرأ ما يكتبون الفتى الناشيء ، والفتاة في الخِدْر ، وأنه سيقرأ الجريدة الأب على أولاده ، والولد على أبيه ، فلا يكتبوا فيها ما تستحي الفتاة أن تقرأ على أبيها ، ولا يألم الأب أن يقرأه على فتاته ، ولا يكتبوا الا ما تسمو به الأخلاق ويزكو به الأدب ، وتقوى به الوطنيّة ، وتعزّ به الفضيلة ...

... ولقد قرأت اليوم ــ في جريدة محلية ــ قصّةً اضطررت والله معها إلى أن أمزق الجريدة ، وأخفي قطَعَها عن إخوتي وأخواتي ، كيلا يقرؤوها ، وفعلت مثل ذلك من أيام ... ولعلني سأفعله كثيراً إذا لم يشأ إخواننا الشبّان ... أن يقلعوا عن هذا النوع من الأدب ، ويستبدلوا

به أدباً فاضلاً عفيفاً ، يصوّر شيئاً غير هذه الثورة الجنسيـة ، وينظر الى المرأة ــ اذا لم يكن بدّ من ذكر المرأة ــ نظرة أسمى : يرى منهـا نفسها وأخلاقها ، ودينها وعفافها ، وعملها في الحياة ، لا جسمها وحده ... وينظر إلى المرأة « الأم » ، وينظر إلى المرأة « الزوجة » ، وينظر الـى المرأة (الأديبة) أو (العالمة) أو (المُصلِحَة) لا الى المرأة من حيث هي « امرأة » فقط .. ويتخذ الأدب وسيلة للإصلاح ، أو يمتنع ــ على الأقل ــ أن يتخذ منه سبباً إلى الإفساد ...

وما معنى قصة لا تصف إلا الجانب الأرضيّ من صلة الرجل بالمرأة ، الجانب الذي يبدوان منه زوجين من أزواج الحيوان ؟ وأي جداء لهذه القصة سوى أنها تنبه في قارئها هذا الحسّ الحيواني ... وتدفعه إلى إرواء هذا الظمأ الجنسي من أقرب مستنقع ؟

على أن الذي يدفع « أدباءنا الشباب » إلى هذا الأدب العاري .. الأدب المخنث ... أنهم يقرؤون في قصص الغرب ويرون في روايات السينما مثله .. ولا يعلمون أن الأدب في جملته والأدب القصصيّ على التخصيص ، يجب أن يمثّل الحياة الموضعية ويعرضها في أشكالها كلها ، ويصف جوانبها جميعاً ، ولا يعلمون أنه إذا مثّل هذا الأدب حياة الغرب ، فإنه لا يمثل حياتنا ، وان زقاق الصخر وما فيه .. ليس دمشق كلها ، وان في دمشق بحمد الله شيئاً غير حياة هذه « البنسيونات » الوضيعة .. إن فيها لحياة عائلية محترمة ، فيها لشرفاً ، إن فيها لجمالا ، إن فيها لبطولة ، ان فيها أشياء كثيرة ، كلها شريف وكلها جليل ، ولكن إخواننـا الذين يكتبون هذه القصص ــ كما يظهر لنا ــ لا يريدون أن يعرفوا شيئاً منها ولا يريدون أن يصفوها ، ولا يريدون أن يخرجوا من هذه الدائرة التي تحدّها مدرسة التجهيز الجديدة من هنا وشارع بغداد من هناك ... ولهم أن يصفوا ما شاءوا ، ولهم أن يهتموا بالذي يحبّون ، أمّـا أن

ينشروا في جريدة يومية قصصاً لا فائدة منها ولا جدوى ... إلا أنها تفسد أخلاق الناشئة وتدلهم على الطريق ، التي ينحدرون منها الى الهاوية ... فشيء لا يمكن أن يحتمل .

★★★

فيا إخواننا (الشبان الأدباء) .

اعذرونا ... اننا لا نستطيع أن تتخلى عن أخلاقنا وشرفنا وعفاف أبنائنا وبناتنا إكراماً لخاطركم ، وحباً بعيونكم فأقلعوا – والله يرضى عنكم – عن هذا الأدب المخنث العاري ، واعملوا على تهذيب النفوس وكبح جماحها ، وإحياء الفضيلة فيها واجعلوا أدبكم السلاح الذي تقتلون به الرذيلة ... لا الحبل الذي تجرون به الشباب إليها !

حطين

أذيعت سنة ١٩٥٩

كان يوم أمس الأول ، يوم الأربعاء ، هو ذكـرى معركة حِطّين المعركة التي فتحت القدس ، وأنقذت الشام من استعمار الصليبيين .

وقد مرّ من غير أن يشعر به أحد .

مرّ كما تمرّ الأيام كلّها ، مع أنّ من حقه علينـا أن نجعلـه يوماً مُعْلماً من أيامنا الغرّ المحجّلات .

وأنا لا أستطيع أن أقول في هذه الدقائق كل ما ينبغي أن يقـال ، فدعوني أكتفي بالتلميح والتلويح ، عن التصريح والتوضيح .

★★★

القدس يا سادة في أيدي المستعمرين الغربيين الصليبيين لهم فيها دولة ، ولهم في أنطاكية دولة ، وفي أطرابلس دولة ، وفي يافا دولة ، ولم يكن هؤلاء المستعمرون أبناء أمة واحدة من أمم أوربة ولكنهم أبناء أوربـة كلها ، قد اتّحدت دولها ، واجتمع أمراؤها ، وحشد رجالها ، ليكونوا جميعاً في وجه هذه البقعة الصغيرة من الوطن الاسلامي ، ولم يكن قـد مرّ عليهم سنة ولا سنتان بل مرّ عليهم والقدس في أيديهم ثلاث وتسعون سنة ، ولم يكن أمامهم دولة إسلامية واحدة قوية ، بل كان أمامهم دول صغار مختلفات مُحتَترِبَات ، كان في سورية من الدول بمقدار ما كان فيها من المدن .

كانت هذه هي حال البلاد لما تسلّمها نور الدين ، ثم سلمها إلى صلاح الدين .

وتوالت الوقائع ، وتتابعت المعارك ، وصنع هذان البطلان العجائب ، ولكن لم يكن في هذه المعارك كلها معركة أعظم من حطّين ، ولم تنزل على رؤوس الصليبيين ضربة أشد من هذه الضربة التي تلقّوها من صلاح الدين ، منذ وطئت أقدامهم ديار الشام سنة ٤٩٠ هجرية ، إلى أن كانت معركة حطين ، يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ .

بدأت هذه الحرب يوم الجمعة ١٧ ربيع الآخر ، وكان صلاح الدين يتعمّد أن يُواقعَ العدوّ يوم الجمعة ، تبرّكاً به وبدعاء الخطباء فيه على المنابر ، سنّة من كان يعلم أن إعداد القوّة إنما هو سبب من الأسباب ، وسبيل إلى الإرهاب ، (وما النصر إلا من عند الله) فجمع جيوشه كلّها ونزل على بحيرة طبرية ، وكانت جيوش الصليبيين قد اجتمعت كلّها في (مرج صفوريّة) بأرض عكّار وكانت هذه أول مرة تجتمع فيها قوى الطرفين جميعاً على تعبئة ، وفي جبهة واحدة ، وأخذ الجيش مواقعه ينتظر أن يهاجمه الإفرنج فلما لم يتحركوا ولم يهاجموا ، ترك صلاح الدين الجبهة على حالها ، وتوجّه بقسم من الجيش إلى طبريّة ، ففتحها بعد معركة قصيرة لم تدم أكثر من ساعة واحدة ، وكان ذلك يوم الأربعاء ٢١ ربيع الآخر ، ولم يكن قصده طبرية بالذات بل كان قصده استدراج جيوش الافرنج لتكون المعركة في المكان الذي اختاره . وهكذا كان ، فإن الجيوش الصليبية تحركت نحو طبرية ، فترك صلاح الدين في المدينة حامية صغيرة ، ورجع إلى الجبهة التي بقيت على حالها ، واضطر الافرنج الى منازلته في مكانه فكانت المعركة على سطح جبل طبرية الغربي ، وامتدّت الى مساء الخميس ٢٢ ربيع الآخر ، فحجز الليل بين الطرفين ، فلما طلع النهار استؤنفت المعركة ، واشتدّت ، واستمرّت النهار كلّه ،

(أي نهار الجمعة) ، ووقفت في الليل ، وفي صباح السبت ، استؤنفت المعركة مرة ثانية ، واستمات الافرنج في القتال ، وكادوا يطوّقون جبهة صلاح الدين ، فأمر الخطباء أن يحمّسوا الناس، وأن يذكّروهم بالله، وأن يستثيروا في نفوسهم قوة الايمان ، وهي أقوى سلاح لنا على عدوّنا ، ثم أمر بالهجوم العام ، فصاح المسلمون صيحة واحدة ، وكبّروا تكبيرة اهتزّ لها السهل والجبل ، وهجموا كالسيل الدفّاع ، فتضعضع جيش الإفرنج ، وكان القونص (الكونت) حاكم طرابلس بمثابة المدبّر لهذا الجيش ، فلما رأى هذا الهجوم هرب الى صور وترك المعركة ، فكان ذلك من أسباب الهزيمة ، فلم تمرّ ساعتان حتى انسحب الإفرنج انسحابا مضطرباً بلا نظام فاعتصموا بـ (تل حطين) .

ولحقهم صلاح الدين ، وكانت المعركة الكبرى يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر ، فانهزم الصليبيون هزيمة كاملة ، و أسِرَ ملوكهم الملك جفري (جود ڤروا) والبرنس أرناط (رينولد) وكان هذا البرنس غدّاراً خوّاناً أراد الغدر بالمسلمين بعد ما أمّنهم فناشدوه الشرف والمروءة وذكّروه بالمعاهدة والأمان ، فلم يردّ عليهم وشتم نبيّهم ، وقتلهم شر قتلة ، فنذر صلاح الدين إن مكّنه الله منه أن يعاقبه بالقتل ، فلما دخل عليه مع الملك كان الملك في غاية العطش ، وكان بيد صلاح الدين كأس شراب مثلّج فدفعها إليه ، فشرب منها وأعطاها البرنس ، فقال صلاح الدين للترجمان : قل له ، أنت الذي سقيته لا أنا .

لأن من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم (كما يقول ابن شداد) إن الأسير إذا أكل طعام آسره أو شرب ماءه كان ذلك أماناً له .

ثم حاكم البرنس على جريمته فما استطاع دفاعاً فعرض عليه الاسلام لينجو من القتل فأبى فقتله بيده ، وطار قلب الملك وحسب أنه سيلحقه به ، فقال له :

لم تَجْرِ عادتنا بأن نقتل الملوك إذا أسرناهم وما قتلناه إلا عقوبة له على جنايته .

★★★

ولم يأت الخامس عشر من رجب من تلك السنة (سنة ٥٨٣) حتى حُررت القدس واستُرِدَّت من أيدي الصليبيين .

وكان الإفرنج قد نزلوا في القدس سنة ٤٩١ فصنعوا فيها ما لا تصنعه وحوش الغاب ، وارتكبوا فيها من ألوان الجرائم ما لا تفعل اكثر منه الشياطين ، لبثوا أسبوعاً وهم يقتلون المسلمين ، فبلغت عدّة من قتل منهم في المسجد الأقصى وحده سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة من الأئمة والعلماء والمجاورين والمتعبّدين ، وكانوا يجبرون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالي البيوت لأنهم كانوا يشعلون النار عليهم وهم فيها فلا يجدون مخرجاً من النار إلاّ بإلقاء الأنفس من السطوح ، وكانوا يجرّونهم في الطرقات كما يفعل اليوم عملاؤهم في العراق ، وهذا الذي أرويه منقول كلّه عن مؤرخي الفرنج .

فلما استردّ القدس صلاح الدين ، كان فيها مئة ألف من الصليبيين ، مع أن عددهم لمّا فتحوها لم يكن يزيد على خمسين ألفاً ، وكان يستطيع صلاح الدين أن يعاملهم بمثل عملهم ، وأن يضربهم بالسيف الذي ضربوا به ، ولكنه لم يفعل ، بل أراهم كرم العرب وعدالة المسلمين ، وتركهم يخرجون أحراراً سالمين ، ويُخرجون معهم أموالهم ، ولم يأخذ منهم إلاّ مبلغاً قليلاً فرضه عليهم تعويضا عما سببوا للمسلمين من أذى ، وهو عشرة دنانير عن الرجل ، وخمسة عن المرأة ودينار واحد عن الولد ، وعامل الكبار والوجوه بالإكرام ، وعامل النساء باللطف والإحسان ، ورفق بالأولاد ، ومنع التعدّي على واحد منهم أو الاساءة اليه ، وكانوا يذكرون ما صنعوا بالمسلمين فلما رأوا هذه المعاملة وامتلأت قلوبهم إكباراً للعرب وللمسلمين ولبث مؤرّخوهم الى اليوم يتحدثون مدهوشين

بما كان من صلاح الدين .

هذه خلائقهم وهذه خلائقنا :

ملكنا فكان العدل منا سجيةً ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتموا قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمنّ ونصفح
فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا ... فكل إناء بالذي فيه ينضح

★★★

يا أيها السامعون :

هذه صورة تقريبية لمعركة حطين .

لقد استرد بها صلاح الدين القدس ، بعدما لبثت في يد العدو ثلاثاً وتسعين سنة ، فهل نعجز عن استرداد فلسطين ولم يمر على فقدها عشر سنين ؟ وكانت تحمي القدس يومئذ جيوش أوربة كلها بأبطالها ورجالها ، فما خفنا أبطال أوربة ولا رجالها ، فهل نخاف حثالة البشر ورجس الأرض اليهود ؟

لما فتح صلاح الدين حلب أنشده ابن الزكي قاضي دمشق قصيدة قال فيها :

وفتحكمُ حلباً بالسيف في صفر ... مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال :

وهذي بشارة مني فاسمعوها :

في وادي اليرموك كانت المعركة الأولى التي هزمت الروم وحرّرت منهم بلاد الشام ، وفتحتها للاسلام .

وفي تلّ حطّين (وهو إلى جنب اليرموك) كانت المعركة الثانية التي طهّرت الشام من الصليبيين وردّت القدس إلى المسلمين

وفي سمخ وطبريّة ستكون المعركة الثالثة التي تحرّر فلسطين وتغسل عن هذه الأرض رجس الصهيونيين .

وسيكون ذلك بعد حين ، لا يزيد عن تسع سنين !

عام ١٩٦٠

اذيعت في أول يوم فيه

إني لأتذكر اليوم ، وأنا واقف على رأس العام ، ماذا حملت الينـا الأعوام التي مضت ، وكم تبدّلت من حولنا الدنيا ، وكم دار بنا الزمان.

كنّا ونحن صغار نرى الحكّام كلهم من الترك ، لهم السيادة ولهـم التكرمة ولهم النعيم ، أوسع البيوت من سوقساروجة وطريق الصالحية لهـم ، وأعلى المناصب لهم ، ولغتهم التركية هي اللغة الرسمية ، لا يصل أحد إلى حاجة في السراي إلا بها ، فإن كلّمهم بالعربية ازدروه واحتقروه، ودروس المدرسة تلقى بالتركية فمن لم يعرفها ويفهم بها عاقبوه وأسقطوه، حتى لغتنا : اللغة العربية كانت تعلّم باللغة التركيـة ، النحو العربـي يدرّس بالتركي فهل سمعتم بأعجب من هذا ؟ العربية أمّ اللغات وسيدتها أكرم لغة في الدنيا وأعزّها وأغناها وأشرفها تذلّ أمام هذه اللغة المسيخة التي جمعت ألفاظها سرقة و (شحادة) من لغات الناس .

وكنا نسمع بآذاننا احتقار (ابن العرب) وسبّه ، وتقديم التركي وتعظيمه .

كنا من حكم الاتحاديين المارقين في ظلام ، فأصبحنا يوماً فإذا الظلام قد انقشع ، واذا العلم الأحمر الذي كان يرفرف على بناية السوقيّات في سوقساروجة حيث كان الشباب يساقون الى الموت في سبيل الألمان، وكان الأموات من الجوع مرميين في الطرقات ، إذا هذا العَلَم قـد

اختفى وعلّق مكانه علم" جديد له أربعة ألوان ، وإذا هذا الهتاف الذي كنا نلزم به كل صباح ، (يادشاهم چوق پشا) ، قد خفت وانقطع وارتفع مكانه هتاف" جديد ما سمعنا بمثله من قبل : الهتاف بحياة الاستقلال العربي .

وكفّت الألسنة عن ترديد تلك الأناشيد التركية ، وانطلقت بأناشيد جديدة ، لا تمجّد السلطان ، ولا تعظم الترك ، ولكن تمجّد العرب ، وتعظّم ملكهم ابن النبي ، أناشيد مضطربة الوزن ، فقيرة المعنى ولكنها جديدة ساحرة :

أيها المولى العظيم فخر كلّ العرب
ملكك الملك الفخيم ملك جدّك النبي
سيروا للمجد طرّاً سيروا للحرب واستعيدوا بالمواضي دولة العرب

وفهمنا يومئذ أن العرب ما كانوا دائماً محكومين ، بل كانوا هم الحاكمين ، وكانوا هم أصحاب الدولة ، وهم كانوا سادة العالم وأساتذة الدنيا . وان الترك لولاهم ، ولولا أن حملوا اليهم النور الذي انبعث من حراء ، ما كان لهم في التاريخ مكان ، ولظلّوا أبداً هائمين مع الوحش في صحارى تركستان ، فاعتززنا بعروبتنا ، وفخرنا بأصلنا .

وفتحنا أعيننا ، ورأينا في هذا النور الذي طلع علينا ، الحقائق التي كان يخفيها الظلام عنا ، ولكن هذا النور قد انطفأ فجأة ، كما طلع فجأة ، وإذا هذه السعادة حلم" مرّ كما تمرّ الأحلام .

لقد حسبنا أننا تخلّصنا من الاتحاديين الذين كانوا أعداء العربية ، وأعداء دينها الذي نزل كتابه بلسانها ، وأعداء مجدها وحضارتها ، فاذا نحن نبتلى ممن هو شر منهم ، بالفرنسيين ، لقد نجونا من جمال باشا ، فاذا نحن نجد غورو .

وبدأت المحنة التي استمرّت ربع قرن كامل ، لا يزيد يوماً ولا ينقص يوما .

لقد أردناها وحدة شاملة ، سورية قطر من أقطارها ، فاذا نحن نرى في سورية وحدها أربع دول ، لقد جعلوا من دمشق دولة ، ومن حلب دولة ، ومن السويداء دولة ، ومن اللاذقية دولة . ولكل دولة حدود وعلم ورئيس ، ولكل دولة دستور وقوانين ، ورئيس هذه الدول كلها ، الذي يجمع فيها السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، موظف يأتي من باريز .

وكانت الثورة ، وكانت ثورة عجباً في الثورات .

قاتلنا فيها بلا سلاح ولا عدد ، الدولة التي خرجت من الحرب الاولى وجيشها أقوى جيش برّي في الدنيا .

لقد كانت تسوق فرنسا الحملة فيها خمسة آلاف ، فيتربّص لها خمسون ثائراً وراء (دكوك) البساتين عند جسر تورا ، فيردوها ، لقد لبث اسم جسر تورا يتردّد في البلاغات الفرنسية سنة ونصف السنة ، وفرنسا لا تستطيع اجتيازه ، لأن حسن الخراط يمنعها من أن تجتازه .

فهل يعرف تلاميذ المدارس اليوم ما جسر توره ؟ ومن حسن الخراط ؟ ان حسن الخراط يا أولادي ، لم يكن قائداً درس في الكلية العسكرية ، ولم يكن خريج الجامعة ، ولم يكن من أبناء الاسر المعروفة ، ولا من أرباب الاموال .

ان حسن الخراط حارس ليلي أتى من الشاغور .

لقد ترك وظيفته وخرج ليجاهد ويطرد الفرنسيين ، ولقد احتل يوماً دمشق ! وكنت تلميذاً في التجهيز (في مكتب عنبر) وكانت دارنا في الصالحية ، فنزلت الى المدرسة والمدافع تضرب ، والرصاص يئزّ ، فأرجعني شرطي ، فهربت منه ، ولقيت ثلاثة من رفاقي ، فنزلنا نمشي في طريق الصالحية ، حتى وصلنا الى الأركان الفرنسية (الإيتا ماجور) التي غدت من بعد (ثانوية ابن خلدون) وهدمت من شهر ، فرأينا

الضباط الفرنسيين والمصفحات ، فصرخ علينا أحدهم ، ولحقنا ، فدخلنا في (حارة بندق) الى البساتين ، ولم يكن شارع بغداد ، ولم يكن على طرفي خط الترام الآن صف أو صفّان من البيوت ووراء ذلك بساتين متصلة ، ودرنا حتى وصلنا الى العمارة ، وكانت الطرق خالية ، والثوار يركضون ، والقلعة تطلق رصاصاً فيسّاقط من حولنا ونحن من صغرنا لا ندرك الخطر ، حتى لقيت صديقاً لأبي من الثوار ، فزجرني وضربني كفّاً وأعادني الى الدار .

ولكني لا أزال الى اليوم أعتزّ بأني رأيت دمشق لما احتلها الثوار . ولقد لبثوا فيها ثلاثة أيام ، ولو لقيت الثورة مدداً لَطُرِدَ الفرنسيون من الشام من تلك الايام .

لقد عجز الفرنسيون عن الثوار فانتقموا من الأبرياء ، كما يفعلون الآن في الجزائر ، فأحرقوا الميدان وحيّ (سيدي عامود) ، الذي بقي خراباً سنين طويلة وسمي الحيّ الى الآن (الحريقة) ، كما سمي الحي الشرقي (الخراب) الى اليوم ، لأنه خرب في غزوة تيمورلنك .

وذهبت بيوت من أجمل بيوت دمشق ، وقتل ناس من أكرم أهلها ، وبقينا سنتين وليس مع الفرنسيين إلاّ لبّ البلد ، والباقي للثوار ، وكانت لهم في أطرافها (استحكامات) فيها جنودهم وراء أكياس الرمل ، ما يمرّ بهم أحد إلا فتشوه ، ولا يمرّ أحد إلاّ بوثيقة منهم ، استحكام في العقيبة ، وفي باب الجابية ، وفي الباب الشرقي ، وعند جامع الشيخ حسن ، وفي سائر الأطراف .

وطالما هجم الثوار على البلد فاحتلوا الحيّ الذي فيه مدرستنا (الثانوية الوحيدة في دمشق) (مكتب عنبر) .

ولمكتب عنبر هذا صفحة غراء في تاريخ النضال الوطني .

ولما نظم شوقي قصيدته (سلام من صبا بردى أرقّ) تلوتها على الطلاّب مجتمعين .

ثم ألقيت بعدها قصيدة خير الدين ، وكل ذلك أثناء الثورة ، ولما وصلت الى قوله فيها :

وانظر الى الآلاف من بسلائهم　　يغزوهم مئة من الثوار

صرخت بها صرخة وصلت الى الشارع ، وكان المدير أستاذنا جودة الهاشمي رحمه الله ، فسمع الصوت فجاء ، فخفت وكدت أقطع الالقاء ، فأشار اليّ أن اكمل ووقف يسمع هو والمراقب الأستاذ عزة الرفاعي .

ووقف مكتب عنبر موقفاً لا ينسى ، لما جاء المفوض السامي جوفنيل ، يزور المدرسة فاتفق الطلاب سرّاً على عدم استقباله . فدخل من الباب ومعه أركان الحكومة فدعونا الى الصف فما تحرك أحد ، ولذنا بالجدران ، فدخل مرتجفاً فخطب أحد الطلاب بالفرنسية خطبة زلزلت أركانه ، فقطع الزيارة ، ورجع من فوره ، وكان التحقيق فكانت الادارة والطلاّب جميعاً على قلب رجل واحد ما استطاعوا أن يعرفوا من دبّر الأمر ، ومن كان السبب فيه .

ثم بدأت حرب الشوارع ، وكانت تلك المواقف التي سطرها التاريخ لسورية بمداد الاكبار والاعجاب .

إني لأفكر في هذا كله ، وأنا أقف اليوم على رأس العام الجديد ، أفكر فيما كان وما صار ، فأرى أن الله أنعم علينا ، في هذه السنين الثلاثين بشيء عظيم .

هي حرب بين الغرب والشرق ، بدأت لما وصلت إلى بلادنا أول حملة صليبية قد انتهت يوم بور سعيد .

لقد كان ربحاً كبيراً ، فلنحافظ عليه ، ولنستدم هذه النعم ولنستزد منها ، وإنما تدوم النعم ، وتزيد بشكر المنعِم بها ، بحمد الله وطاعته ، واتباع شريعته .

لقد كان من برنامج الاتحاديين تتريك العناصر العثمانية ، أي محو

العربية وافنائها ، فخلّصنا الله من شرهم ، وأعاد علينا عربيتنا كاملة ، فلنحافظ عليها :

على اللسان العربي ، على معرفة لغة العرب ، على التمسك بأخلاق العرب ، وفضائل العرب ، لقد كان العرب في جاهليتهم أصدق الناس، وكانوا أغير الناس على الأعراض ، وكانوا أحفظ الناس للعفاف ، ثم اختارهم الله لأشرف مهمة ألقيت على عاتق بشر ، اصطفاهم من دون الناس لحمل النور الذي انبثق من حِراء ، ووضع في أيديهم المصباح الذي يضيء للناس طريق الخير والحق ، فحملوه ومشوا به ، فكانوا به أي بالاسلام سادة الدنيا .

فاذا أردتم أن تستعيدوا في الدنيا مكانكم ، وتسترجعوا مجدكم ، فالطريق مفتوح أمامكم ، فاحملوا المصحف بيد ، والسيف بيد ، وامشوا على بركة الله .

وليكن هذا العام الجديد[1] مباركاً عليكم ، وليكن بداية مرحلة جديدة من حياة أمتكم ، فيها الهداية ، وفيها السيادة ، وفيها السعادة ، وفيها كل خير لكم ، وكل عام وأنتم بخير .

---

(١) وان كان ليس عاماً لنا ، انما عامنا الذي يبدأ بالمحرم ، ويدور مع القمر ، فيا ليت أنّا نعود اليه ، وندع الفربيين وعامهم وتاريخهم .

عدوان على مصر

نشرت سنة ١٩٤٧

« جلّ الأمر عن المجاملة والهزل ،
فدعونا نتكلم بصراحة وجد .. »

يعرض في مصر الآن فلم اسمه (لبناني في الجامعة) ، تظهر فيه الجامعة أولا ببنائها وقبّتها حتى لا يبقى عند أحد شك أنها الجامعة المصرية ، جامعة فؤاد الأول التي في الجيزة ، وأن الذي يأتي من الوصف انما هو لها ، هي ، بعينها وأذنها لا لجامعة غيرها وأنها ليست قصة جامعة خيالية ، حتى اذا وثق صاحب الفلم من أنك عرفتها وحققّتها ، ساق لك مشاهدها ، وعرض عليك صورها ، فلم ترَ فيها مظهر علم ، ولا دلائل تهذيب ، لم ترَ إلاّ الاختلاط الشائن واللهو المحرّم ، والغرام والغناء ، كأن هذا كل ما في الجامعة ، وكأنها أنشئت لمثله : يجيئها الطالب اللبناني فيستقبله طالب مصري ، يأبى واضع الفلم إلا أن يجعله مغفّلاً كأنه ثالث المضحكين لوريل وهاردي ، وأن يسمّيه (سونه) ... فلا يمر على التقائه به ثلاث دقائق فقط حتى يعرّف به الطلاب فيهتفوا له ، ويقودوه رأساً لا الى بهو المحاضرات ولا الى المكتبة ، بل الى البركة ، مع أنه جاء في وقت الدرس لا في وقت اللعب ، فترى في بركة الجامعة الطلاب والطالبات بالأجساد العارية ، والعورات البادية ، ثم تبصرهم يعمدون الى طالبة لابسة ثيابها الكاملة فيحملونها فيلقونها في الماء ، فاذا خرجت كالقطة المبلّلة حفّوا

بها ضاحكين عابثين ، وتمضي المشاهد على هذا النمط لا تظهر غرفة الدرس الا مرة واحدة ، يدخلها عمُّ الطالب اللبناني وهو في الرواية (المضحك) المعروف بشارة واكيم فيقطع على الأستاذ محاضرته ، ويفسد عليه درسه ، ويسخر منه ، ويستخرج ابن أخيه بلا اذن ، لأن عاشقته ... تطلبه ...

ويعرض (الفلم) بيت الطلبة الذي أنشأته الحكومة المصرية بأموالها لايواء الغرباء من الطلاب ، فاطمأنَّ بذلك آباؤهم في الشام والعراق والحجاز ونجد والمغرب واليمن ، لأنهم غدَوا فيه بأمانة هذه الحكومة فما يُخشى المرض على أجسامهم ، ولا الفساد على أخلاقهم ، فلا يجعل بيت الطلبة الاَّ (ماخوراً) فظيعاً ... وترى اللبناني يدخله فيسقط في حفرة كان اخوانه احتفروها له ، فينزلون عليه بجماعتهم فينضون عنه ثيابه كلها الا ما يستر العورة الكبرى ولا يكاد ، وتجيء طالبة ، طالبة في بيت الطلبة ، هل تسمعون أيها القراء ؟ تقبل عليه فيستحي هو ويخجل ، ولا تخجل هي ولا تستحي ، وتجرُّه من يده فتلبسه من ثيابها ... فيستنوق الجمل ، ويتأنث الرجل ، ثم يجلسان على مائدة الشراب والغزل ، والطلاب ينظرون ، ولا يكتفي واضع الفلم بهذا كله حتى يجيء بـ (سونة) ، فيقفه عليهما وقفة أبله ، فيقول للبناني : هذه خطيبتي فكيف تأخذها مني ؟ ثم يضحك ويولّي عنه كأن الأمر لا يعنيه ، وكأن هذا الفلم قد تعمَّد فيه أن يكون لعنة على الرجولة والشرف ومصر وجامعتها معاً ، وعدواناً على أولئك جميعاً ...

وما هذا الذي ذكرت الا مثالا مما في هذا (الفلم) فهل يبلغ أعداؤنا منا أكثر من هذا ؟ وماذا يقول الناس غداً عن الجامعة المصرية وعن دار طلبتها اذا عُرض هذا (الفلم) في بلاد العرب ورآه أهلها الذين يعدُّون مصر كعبة الثقافة ومورد العلوم ؟ هل يرسلون أبناءهم اليها ؟

أم يقولون إن هذه هي حقيقة الجامعة ولولا ذلك ما صوّرها مصريون في هذا الفلم المصري ، ولما سمحت حكومة مصر بعرضه ، ولما سكتت عنه ادارة الجامعة فلم تطلب منعه ، ولم تقاضِ أهله ، ولم تحرك من أجله ساكناً ؟

وهذا الفلم مثال مما جرّنا اليه تركنا ديننا وأخلاقنا ، وتقليدنا الغربيين في رذائلهم وحدها ، وحسباننا أن هذا هو التمدن وهذي هي الحضارة. واذا كان هذا الفلم قد سبق الزمان فصوّر الجامعة بهذه الصورة المزوّرة، فإنه سيأتي علينا يوم تكون هـذه هي الصورةَ الحقيقيـة للجامعـة وللمستشفى وللمكتب وللدائرة وللمخزن وللشارع وللترام ، ويكون كل مكان يلتقي فيه الرجل بالمرأة ملهى من المـلاهي ، ولم لا ؟ واللذة مطلوبة ، والرغبة موجودة ، وما ثمّة حجاب يمنـع العين ، ولا قانون يكفّ الجوارح ، ولا دين يَزَع النفس ، ولا شهامة تلجم الشهوات ، لِمَ لا ؟ ونار الشهوة الكامنة في كل نفس ، تؤججهـا هـذه المجلات المصورة ، وهذه الأفلام الداعرة ؟ لذلك حرّم شرع الاسلام ، ومنعت نخوة العرب ، اختلاط الفتيات بالفتيان ، لأي سبب كان .

أوليس من العجيب أنك تدخل في القاهرة السينما التي تعرض الفلم الإفرنجي فترى له فكرة وموضوعاً وهدفاً ، وربما رأيت فيهـا الفلم العلمي أو التاريخي الذي يمرّ كلّه فلا تسمع فيه كلمة غرام ، ولا ترى فيه قبلة . وتدخل لترى الأفلام العربية فتجدها كلها الاّ النادر منها ، سخيفة النسج ، مضطربة الموضوع ، عمادها العري والخلاعة والتخنث ورقص البطن ؟

أوليس أعجب منه أن تكون المجلاّت الإفرنجية أعفّ في الجملة من مجلاتنا التي لا يخلو أكثرها من صور الأفخاذ والسيقان والبطون والنهود، تسابقت في ذلك حتى بلغت الوقاحة ببعضها أن نشرت صور نساء عاريات لا يسترهن قليل ولا كثير ؟

أوليس أعجب من هذا كله ، أني ذهبت مساء الخميس الماضي الى مجلس يجتمع فيه عادة فريق من أكابر رجال التأليف والتعليم في مصر ، فتكلّمنا في هذا الموضوع ، فإذا أكثر الحاضرين بين غافل عن هذا الداء لا يبصره ، أو متهاون به لا يكبره ، أو راض به لا ينكره ، واذا هم جميعاً يتسلّسون في ساعة الخطر ويلهون يوم الجد ، ويردّدون هذه الكلمات الحلوة (حريّة الرأي) و (ضرورات الفنّ) و (مقتضيات العصر) ، والنار مشتعلة في البلد ؟!

★★★

يا أيها السادة المبجّلون :

فكّروا قليلاً فإنكم قادة الرأي فينا ، فلا تكونوا تبَعاً للعامّة من أهل أوربة ، فما يفلح قوم قادتهم تبَع للعوامّ من أعدائهم ، فكروا بعقولكم التي في رؤوسكم لا بعقول أصحاب الوجوه الشقر ، تروا أن الحريات كلها ، والفنون جميعاً ، والحضارة من أساسها ، انما كانت لتزداد بها الأمم قوة ، والناس انسانية ، فاذا أساء قوم استعمالها وأخذوها من ذَنَبها فجاءت في أيديهم مقلوبة منكّسة حتى تبدّل وضعها وضاعت فائدتها ، وصارت للامة ضعفاً لا قوة ، وأعادت الناس الى البهيمية لم ترتقِ بهم في سلّم الانسانية ، فقد وجب في شرعة العقل وجوباً درء ضررها ، ودفع أذاها ، وإلا كانت كالسيف يأخذه الأحمق الغرير ، فيجرح به نفسه ، وما كان السيف الا ليرُدّ به العادي ويذاد به عن الحمى ، وما أظنّ أن على ظهر الأرض عاقلاً واحداً ، يرضى أن يضحّي بأخلاق أمته وعفافها ، من أجل مقالة فيها كلام جميل ، أو قصة فيها وصف رائع ، أو صورة فيها فن بارع ، وإن الأمم تعيش من غير أدب مكشوف ، وفن عار ، ولكنها لا تعيش بلا أخلاق .

وأنا أحب الأدب ، وأقدّس الحرية ، ولكني أفضل أن نبقى مقيّدة

ألسنتنا وأقلامنا بقيد الإسلام والأخلاق ، على أن نهلك ونحن أحرار نقول ما نشاء ، فمن هو الذي يخالف في هذا من القراء ؟

لقد صارت المجلات تخاطب الشهوات بالصور العارية ، بعد أن كانت تخاطب العقول بالعلم الحق ، والقلوب بالأدب السامي ، وهبط الأدباء الى درك السفلة من القرّاء بعد أن كان عمل الأديب رفع القراء الى العلاء ، وانقلبت الجامعات مسرح ظباء وموعد لقاء بعد أن كانت دار العلم والتقى والصلاح ، وغدت السينما عندنا (تهريجاً) فاجراً ، بعد أن كانت السينما عند الناس درساً وعبرة وفناً ، وأوشكت هذه (الحرية ...) وهذه (الحضارة ...) أن تكون تعدياً لحدود الشرع ، وهدماً لأركان الخلق ، ودعوة الى الفسوق ، لا عمل لها الا هذا ، ولا ثمرة لها غيره .

أفيرضى عقلاء مصر أن تظل على هذا الطريق ؟

★★★

يا أيها الناس ! ان هذه المجلات ، وهذه الأفلام ، عدوان على مصر وعلى الفضيلة والعروبة والإسلام ، فإذا أنتم لم تقاطعوها وتقتلوها ، فمزّقوا كتب الدين والأدب والتاريخ ، لأن كل صفحة منها تمجيد للعِرْض ، وامتداح للنخوة .

يا إخواننا !

لقد جرّب أجدادنا العمل بالقرآن فكانوا سادة الدنيا كلها ، فجربوا أنتم مخالفته وانظروا ماذا تكونون ! !

من حديث الجهاد

نشرت سنة ١٩٤٧

ركبت الترام أمس من عند جسر الملك الصالح مقابل الفسطاط وكان ممتلئاً بالناس ، قد قعدوا على مقاعده ، ووقفوا في رحَبَاتـه ، وتعلّقوا بسلالمه ، وكنت قاعداً في الدرجة الأولى ، فرأيت امرأة ملتفّة بملاءة ، على يدها ولد يظهر عليها أنها مسكينة مغلّبة[1] تريد أن تدخل علينا ، فيمنعها رجل بلدي واقف بالباب ، ويقول لها : «دامِش مكانك ، دا بريمو ، مكان الخواجات » فتستكين وتقف ، فدعوتها وأقعدتها في محلّي ، وهي حائرة لا تدري في خجلها وشكرها ماذا تقول لي ، وسار الترام الى المحطة التالية ، فنزل ناس وصعد ناس ، وكان فيمن صعد امرأة فرنجية ضخمة كأن خدّيها زقّان منفوخان ، وكأن ثدييها عِدلان على ظهر أتان ... وأقبلت تزاحم الركاب بوقاحة عجيبـة حتى دخلت علينا ، فلما رأت المرأة قلبت شفتها ، وقلّصت وجهها حتى صار كوجهِ قِرْد عجوز ... وحمّلته كل ما استطاعت من أمارات الاشمئزاز والكبر ، وضمّت ثوبها ترفّعاً أن يمسّ الملاءة وأشارت لها بيدها ، أن : قومي ...

فنظرت المسكينة نظرةً بلهاء ، وابتسمت ولم تفهم ...

فقالت لها : « دا بريمو ، انتَ بيروخ هناك ، يلاّ . يلاّ » ...

فقامت ... فلم أملك أن صرخت بها : « أقعدي » وقلت لهـذه الوقحة : « ألا يكفي أنك زاحمتها على خبز بلدها ، وأكلت خيره مـن

---

(١) كذلك نقول نحن في الشام ، وهي صحيحة فصيحة ، وفي مصر يقولون غلبانة .

دونها ، وغنيت به وفقرت هي فيه ، حتى أردت أن تقيمها لتقعدي مكانها ... » .

وكانت ثورة مني عاصفة ، فلم يجب أحد ، ولكن شاباً « مهذباً » استاءَ مني ، وأراد أن يعلن احتجاجه عليّ ، فنهض قائماً وقال : «تفضلي يا مدام» وأعطاها مكانه ...

★★★

وذهبت أزور رجلاً كبيراً ، اعتزل الناس في بيته بعد أن ولج أوسع أبهاء القصور ، وحلّ في أضخم كراسي المناصب ، وتشقّق الحديث معه حتى بلغ الكلام على الاسلام فقال : ان مصر تمدّنت وارتقت حتى صارت قطعة من أوربا ، فكيف يمكن أن ترجع الى أحكام الشرع ؟ » .

وسمعت كثيرين من رجالات العرب ، يتظرّفون بدسّ الكلمات الفرنسية أو الانكليزية في أحاديثهم العربية ، من غير داع اليها ، ولا فائدة منها ، ويجدون ذلك رافعاً من أقدارهم مُعْلِياً من منازلهم .

ورأيت كثيرين من الشباب تجيئهم بالحكمة أو النظرية فتعزوها الى صاحبها الشرقي المسلم ، فَيَلْوون وجوههم عنها ، ولا يحفلونها ، فاذا نسبتها الى الفيلسوف الألماني أو الأديب الانكليزي هشّوا لها وبشّوا ، وتلقوها بالتجلّة والإكبار .

وقرأت لكثيرين من المؤلفين والباحثين فصولاً في الدين أو اللغة ، لا مرجع فيها الا النقل ، ولا تنقل إلا عن أئمتنا وعلمائنا ، فرأيتهم يَدَعُون المنبع ويستقون من ذيول السواقي ، ويتركون مراجعنا ويعزون الى فلان وعلاّن من المستشرقين .

وليس فينا من لا يرى تقليد الأوربيين مدنية ، واتباعهم رقياً ، ومن لا يشعر في قلبه بإجلالهم ، يتمنى أن يزور بلادهم ، ويثقف ألسنتهم ، ويا ليت أنّا إذ أحببناهم جمعنا حبهم ، ولم يفرّقنا غرامهم شيعاً وأحزاباً

لهم ، ويا ليت أنّا ارتفعنا اليوم عما وصفه جبران خليل جبران ، منذ ربع قرن ، حين قال : « كان العلم يأتينا من الغرب صدقة وإحساناً ، فنَكلتَهم خبز الصدقة لأننا جياع فأحيانا ذلك الخبز ، فلما حيينا به أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ بعض مداركنا ، ونبّه عقولنا ، وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا ، وأذهب وحدتنا ، وقطع روابطنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتترنّم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحوّل الى معتمد أمريكي ، والشاب الذي ارتشف رشفة من العلم في مدرسة يسوعيّة صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا » .

فاذا كنا ــ ولا نريد أن نماري في الحق ، ولا نجادل في الواقع ، اذا كنا نطوي قلوبنا على حبهم ، ونضم جوانحنا على إكبارهم ، ونرى أنفسنا صغاراً أمامهم ، ونقلّدهم في كل شيء ونمشي وراءهم ، فماذا ينفعنا قولنا بألسنتنا أننا نكرهم ونعاديهم ، ولا نقعد عن حقّنا حتى نناله منهم برغمهم ؟

لقد تعلّمت في المدرسة الابتدائية حكاية لا أزال أذكرها إلى اليوم ، هي أن رجلاً كان يذبح العصافير في يوم بارد ويبكي ، فقال عصفور منها لأخيه : ألا ترى الى شفقة هذا الرجل ورقّة قلبه ؟ قال : ويحك لا تنظر الى دموعه ، ولكن انظر الى ما تصنع يداه .

فهل تظنّون أن الانكليز والفرنسيين أصغر أحلاماً من العصافير حتى يَخدعوا بخطبكم وأقوالكم ، ويعموا عما تصنع أيديكم ؟



إن قضية فلسطين لم يجرِ مثلها ولا في أيام نيرون . ولو قرأناها في

أخبار الأولين ، لما صدّقنا أنه يسوغ في إنسانية البشر ، وعقل العقلاء ، أن تقول لرجل : أخرج من دارك ليأوي إليها هذا المشرّد المسكين ، ونَم أنت في الزقاق ، أو اضطجع على المزبلة أو مت حيث شئت . هذا قضاء المدنية ، وهذا حكم الديمقراطية .

وإن حوادث المغرب لم يقع مثلها ولا على عهد محاكم التفتيش أن يذبح عشرات الألوف من الأبرياء ، لأنهم قالوا لمن دخل عليهم بلدهم ، واغتصب أرضهم ، وأكل خبزهم : اطعمنا معك من خيرات أرضنا ، وارفق بنا في عدوانك علينا ...

فهل أحسسنا حقيقة ببغضاء الفرنسيين والانكليز ؟ ألا يزال فينا من يثني على الانجليز في الصحف « تقريراً للحقيقة ؟ » ، ويحتفل بدوهامل « تمجيداً للأدب ؟ » ، ويودّع المجنّدات الانكليزيات بالأسى « تقديراً للجمال » ، ألا يزال فينا نواد أقيمت لتثبيت الصداقة بيننا وبين هؤلاء الذين فعلوا هذه الأفاعيل في فلسطين والمغرب ؟

فكيف يجتمع الحب والبغض في قلب واحد ؟

★★★

إننا في أيام لها ما بعدها ، ومصائب تنسينا أواخرها أوائلها فإذا كنا جادّين حقيقة في انقاذ فلسطين والمغرب ، وفي العمل لمصر وللعربية وللإسلام ، وكنا نريد أن نكون أمة تستحق أن تعيش ، فيجب أن نتخلّص أولا من استعمار الأوربيين أدمغتنا وألسنتنا وبيوتنا ، وأن نحكّم عقولنا فلا نقتبس منهم إلا ما نعتقد نفعه لنا ، وأن نثق بأنفسنا ، ونشعر بكرامتنا ، وأن يفهم الحاكم منا أن لنا شرعاً أفضل من قوانينهم، فيجب أن نقتبس الأحكام من شرعنا ، وأن يعلم الطالب أن لغتنا أكمل من لغاتهم ، وأدبنا أسمى من آدابهم ، وتاريخنا أمجد من تواريخهم ، وأنها لم تخدم أمة العلم ما خدمته أمتنا ، وأن يعتقد التاجر أن من الفرض

عليه أن يروّج البضاعة الوطنية ، ويقاطع الأجنبية التي تزاحمها ، وأن يؤمن الأديب بأن لهذه الأمة حقاً على قلمه ، أن يدافع عنها ، ويعيد اليها كرامتها ، وثقتها بنفسها ، ويصغّر الأجنبي في عينها ، وأن يفهم أخنع[1] رجل فينا ، أنه أعظم من أكبر خواجة من الخواجات ، أو (مستر) من المساترة أو (هر) أو (سنيور) من السنانير والهررة ، وأن يعلم أنه هو صاحب البلد ، وهؤلاء بين غاصب أو لص أو (شحّاد) ، وله هو مقعد الدرجة الأولى في الترام ، وله الغرفة الأولى في الفندق ، والمائدة الأولى في المطعم ، وأنه حينما يقنع بالأقل ويتوارى ويبتعد ، ويدع الأجنبي يملك الأرض ، والعمارات ، والمتاجر ، يكون مجرماً كالجندي الذي ينهزم من المعركة .

وملاكُ الأمر كلّه ، أن نعلم أننا نحن أساتذة الدنيا ، ونحن سادتها . عزنا بقرآننا وديننا ، ولا يزال القرآن مبعث عز لنا ، فَلْنعد اليه ، ولنجعله إمامنا في حياتنا ، ومَعقِد فخارنا ، ولْنَدْعُ الدنيا الى اتّباعه لأنه لا فلاح لها إلا به .

إننا اليوم أضعف من الغربيين في القوى المادية ، فلم يبق لنا الا القوى الروحية : قوّة الايمان ، وقوة الأخلاق ، وقوة العفاف فلنحافظ عليها ، ولنحارب الإلحاد والنفاق والفجور ، لأنها عون للعدوّ علينا ، وسلاح له يعمله فينا ، وأن نجرّد للعدو جنداً أخرجوا حبّه من قلوبهم ، وضلالاته من رؤوسهم ، وعاداته من بيوتهم ، وأبغضوه بغضاً بلغ الشغاف ، وخالط الدم ، وسرى في الأعضاء ، وظهر في الأفعال . جنداً ، صدورهم حافلة بالايمان ، عامرة باليقين ، يثقون بماضيهم وأنهم يستمدّون منه الظفر : من ألف معركة منصورة كانوا أبطالها ، ومن ألف سنة مباركة كانوا ملوك الأرض فيها ، ويثقون بحاضرهم ، وأن دماءهم ما أضاعت

---

(1) اخنع : أقلّ وأوضع . وهي من عامية الشام الفصيحة .

هذا الإرث ، ورؤوسهم ما فقدت هذه الذكريات ، ونفوسهم ما خسرت ذلك الشمم وتلك الفضائل ، ويثقون بمستقبلهم ، وأنهم سيملكون الأرض كرّة أخرى ، وسيعودون ملوكها . شباباً هم في الحكمة كالشيوخ ، لم تسترقّهم الشهوات ، ولم تستعبدهم الملذّات ، ولم تلعب بهم الصبايا ، وشيوخاً هم في العزيمة كالشباب ، لم تفتنهم المناصب ، ولم يطغهم الغنى ، ولم يسر في أعصابهم الخَوَر ...

بهذا الجيش فلنجاهد ، جهاداً متّصلا مستمراً ، لا ينَي ولا يقف حتى يهدم قلاع العدو كلها ، ظاهرها ومضمرها ، وواضحها وخفيّها .

إن الجهاد إن لم يبدأ من البيت والمدرسة والجريدة ، فلا يمكن أن ينتهي الى الساحة الحمراء ، فاذا أردتم أن تبلغوا نهاية الطريق فامشوا من أوله ، ان شئتم أن تصلوا الى أعلى السلم فابدؤوا من أسفله ، فان من يمشي من آخر الطريق يرجع الى الوراء ، ومن ينزل من رأس السلّم يصل الى الأرض !



ثورة مصر

نشرت سنة ١٩٥٢

أكتب هذه الكلمة وأنا مريض في المصيف في (مضايا) ، قد هبط معي الضغط ، وضعف مني الجسم ، وانقطعتُ عن عمل اليد وعمل الدماغ ، ولذلك ما[1] أخللت بعهدي ، وكان العهد أن أكتب الى (الرسالة) مرتين في الشهر . ولكنّ أخبار مصر ، ومن قبلها أخبار ايران ، تطرد المرض ، وتنهض الجسد ، وتهزّ من الحماسة الجبال ، وترقص الحجر ، فكيف أنام اليوم واليوم عزّت بالإسلام العرب والعجم ، واليوم استكمل الشرق يقظته إلا بقايا في عينيه من الكرى وأقسم أن لن ينام ، واليوم أحسّ كل مسلم بأن الأمة التي يكون فيها من زعماء الدين أمثال حسن البنّا والقاشاني ، ومن زعماء الدنيا أشباه نجيب وجمال ومصدق . لم تفقد عزّتها ، ولم تدفن أمجادها في قبور تاريخها ، ثم تسير بلا عزّة ولا مجد ، بل ان لها من حاضرها أياماً غراً محجّلات لا يضرّ من رآها الاّ يكون رأى تلك الأيام . لا ، لا يضر من حضر الجلاء عن الشام ، وإقامة إندونيسيا والباكستان ، وشهد ظفر الشعب في طهران أمس وفي مصر اليوم ألاّ يكون قد حضر القادسية وشهد اليرموك .

لقد تتالت علينا الأفراح ، وتتابعت البشائر حتى ما تستطيع أن تحتملها أعصابنا ، إننا نعدو عَدْواً في طريق الظفر لا نقدر أن نقف ساعة لنستريح ونلتقط أنفاسنا ، هذا شعب إيران يهبُّ هبّة الرجل الواحد ،

---

(١) ما هنا موصولة لا نافية

يحمل معه أكفانه ليثبت للدنيا أن الكفن في يَدِ المستميت أمضى من المدفع في يد من يحبُّ الحياة ويكره الموت ، وأن الرغبة الصادقة في الموت هي أقصر طريق الى الحياة ، وأن الشعب اذا استمات لا تغلبه قوة في الدنيا ، وهل يمكن أن يُبَادَ شعب على بكرة أبيه فلا يبقى له أثر ؟ هل تستطيع قوى الشرّ كلها التي حشدها المتمدنون ليقتلوا بها البشر باسم المدنية التي نُسبّح جهلاً بحمدها ، ونموت في عشقها ، أن تهلك خمسمئة مليون ضفدع لو هاجمت بلداً من أقطاره الأربعة ؟ فكيف لو هبّت خمسمئة مليون إنسان ، يستجيبون لصوت إيمانهم ، ويغضبون لماضيهم ، ويعملون لمستقبلهم ؟ إن القطّة إن غضبت لأولادها ، كشّرت عن أنيابها ، وأبدت عن مخالبها ، وهجمت على الذئب ، فكيف إن غضب شعب كشعب إيران ؟ وكيف إن كان يقوده شيخٌ له عزة العلم ، وله قوة اليقين ، كالقاشاني ، ينفخ فيه من روح الدين ما يثبت للعالم أن قوة الإيمان هي أقوى القوى ، وأن العدو لم يصنع بنا شيئاً أضر علينا من صرفنا عن ديننا ، وتعطيل هذا السلاح الماضي الذي وضعه الله في أيدينا !

ثم جاءت أخبار مصر ، مصر الديّنة الصيّنة التي طالما احتملت الفسوق والعصيان .. وسكتت ترجو أن ينيب الفاسق ، ويتوب العاصي .. مصر العزيزة الحرّة التي صبرت على الطغيان والاستبداد .. مصر التي بذلت في حرب فلسطين ما لم تبذله دولة عربية ، ثم ضربها في ظهرها من كبار أبنائها من كان شراً عليها وعلى جيشها من أعداء الله والانسانية : اليهود . مصر التي طالما زرتها وأقمت فيها الشهور الطوال فكنت أشم روائح الفساد كلما خرجت من إدارة الرسالة ومررت بالميدان الكبير ، وانتشرت هذه الروائح حتى عمّت مصر ، ثم وصلت إلى أوربا .. وشمّها أصحاب الجرائد هناك بأنوفهم الحسّاسة فنشروها في كل مكان حتى

بلغت الشام ودخلت كل بيت ، لذلك كانت أخبار الانقلاب الأولى فرحة في كل بيت .. يتباشر بها الناس ، ويفتحون الرادّ ليسمعوها ، وأزهد الناس بسماع الأخبار صار يعانق الرادّ في داره ليسمع إذاعة مصر وغير مصر .. فلما أذيع أن الفاروق (الذي كان يوماً الملك الصالح) قد أُخرج من مصر لم يعد يستطيع الناس أن يضبطوا من الفرح أعصابهم . ولولا أني مريض .. وأن ذهني مكدود .. لحيَّيتُ هذا اليوم العظيم التحيّة التي تليق به .. ولَسُقتُ له كلاماً غير هذا الكلام : كلاماً تثب له القلوب ، وتحمى منه أقحاف الرؤوس ، وترقص له من الحماسة الأعصاب ، وتغلي الدماء ، ولكني إن عجزت اليوم عن نظم هذا الكلام .. فلقد قال هذا البطل بفعاله أكثر منه ، وهو صامت متواضع لم يفخر ولم يتحمَّس ، فيا أيها الرجل العظيم حقاً ، لك شكر العروبة ، لك شكر الوطن ، لك شكر الإسلام .

★★★

وبعد فهذه عاقبة الفسق والفجور ، واستغلال أموال الأمة وسلطانها في إرضاء الشيطان وإرواء الشهوات ، فاعتبروا يا من لم تصل اليه النوبة بعد فإنها ستنوبكم ، إن الله يمهل ولا يهمل ، ويُنسي ولا ينسى ، وليعتبر الذين أنبت الله لهم من التراب ذهباً ، وأنبع لهم من الرمال دولارات ، فتركوا قومهم جياعاً حفاة وأنفقوها على الفسوق والشهوات حتى ضجَّت من عجبها من فجورهم باريس مدينة الفجور

اعتبروا فإن نعم الله لا تحفظ بالمعصية ولكن بالشكر .. وإن الأوطان لا تحمى باتّباع الشهوات ، وإضاعة الأموال في البذخ والترف ، ولكن بتقوية الجيش وإعداد السلاح ، وإطاعة الله ، والعمل على إعلاء كلمة الله . وإن الملك لا يكون ليستمتع المَلِكُ ويلهو ، ويعدو هو

وحاشيته على العرض وعلى الأرض . ويرفع نفسه عن النقد ، بل ليكون أطول الناس سهراً على مصالحهم،وأكثرهم شغلاً بهم ، وأعظمهم تبعة وأشدهم من الله خوفا ، كذلك كان الرسول صلوات الله عليه ، وكان أبو بكر وعمر ، وكان الصالحون من الملوك . وبعد فإن في كل بلد (محمد نجيب) لا تعرفونه اليوم ، ولكنها ستعرفه الدنيا كلها في لحظة كما عرفنا محمد نجيب ، وما كنا قبل دقائق قد سمعنا في الشام باسمه . وأن في كل بلد (يخت) كالمحروسة التي حملت (فاروق) فذهبت به الى حيث ألقت ... أو سيارة تقوم مقامها و (دار ابن لقمان على حالها) ...

★★★

وبعد فبارك الله في شعب مصر ، وبارك الله في شعب إيران ، وبارك الله في كل شعب يأبى الدنيَّة ويرفض العار ، ويعرف كيف يرفع رأسه ويقول : لا !

والسلام على روح حسن البنا موقظ الأرواح النائمة في مصر ، وعلى القاشاني ، وعلى مصدق ، وعلى القائد النجيب : محمد نجيب ، وعلى البطل الظافر عبد الناصر .

الفهرس

جدول الخطأ والصواب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطـأ	الصواب
١٠	١٧	هامٍ	هامٌ
١١	٩	ستخترق	سيخترق
١١	١٢	يعد	يعيد
١١	١٢	فتقرأ	فيقرأ
١١	١٩	نساءلهم	نساءلهنّ
١١	٢٣	قد هجمت	هجمت
١٢	٦	المجاهدون	يا أيها المجاهدو ن
٢٦	١٩	ثم	و
٤٥	٢٠	وأنقل	وأثقل
٤٩	٢٣	فتنقطع	فتتقطّع
٥٠	١٧	فهل تصبر قلوبهم	فهل تصبر بطونهم
٥٢	٢١	يبشر بفتح	مبشر بفتوح
٦٨	١٢	للأطفال اللائي ذبحهن	للأطفال الذين ذبحهم
٧٣	٢٣	وأرفعت	وألقيت
٩٤	١٠	⟵	السطر العاشر يوضع قبل السطر التاسع
١٠١	١٠	جدّدنا	جَدَدنا
١٢٦	٩	يجِب	يَجبُ

وهناك أخطاء طفيفة لا تخفى على القارىء

من آثار المؤلف

أ ـ الكتب التي نفدت

١ ـ في بلاد العرب ١٩٣٩ م
٢ ـ من التاريخ الاسلامي ١٩٣٩ م
٣ ـ رسائل الاصلاح ١٣٤٨هـ
٤ ـ بشار بن برد ١٣٤٨هـ
٥ ـ رسائل سيف الاسلام ١٣٤٩هـ
٦ ـ الهيثميات ١٣٤٩هـ
٧ ـ عمر بن الخطاب (جزءان) ١٣٥٢هـ
٧ ـ في التحليل الأدبي ١٣٥٣هـ
٩ ـ كتاب المحفوظات ١٣٥٥هـ

ب ـ الكتب التي صدرت حديثاً

١ ـ أبو بكر الصديق (طبعة ثانية) ١٣٧٢هـ
٢ ـ قصص من التاريخ ١٩٥٧ م
٣ ـ رجال من التاريخ ١٩٥٧ م
٤ ـ صور وخواطر ١٩٥٨ م
٥ ـ قصص من الحياة ١٩٥٩ م
٦ ـ في سبيل الاصلاح ١٩٥٩ م
٧ ـ دمشق ١٩٥٩ م
٨ ـ مقالات في كلمات ١٩٥٩ م
أحسن كتاب لتعليم الانشاء، وهو نموذج للايجاز البليغ، موضوعاته كثيرة، وأسلوبه جيد، فيه قدوة للطالب، وتذكرة للمصلح، وتسلية للمطالع، وتسجيل للواقع.
٩ ـ سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٥٩ م
١٠ ـ أخبار عمر ١٩٦٠ م
١١ ـ من حديث النفس ١٩٦٠ م
١٢ ـ نفحات من الحرم ١٩٦٠ م

١٣ ـ هتاف المجد ١٩٦٠

ج ـ تحت الطبع

١ ـ في أندونيسيا
٢ ـ فصول اسلامية
٣ ـ في الهند والسند
٤ ـ الجامع الأموي
٥ ـ مع الناس

١٧ رمضان المبارك ١٣٧٩
١٤ آذار ١٩٦٠

★★★

